



FIFA WORLD CUP
Qatar 2022

29.11.2022

@detab_n

محمد عبد العزيز الهجين الأنسُ بالراحِلين أمسيات مع السَّير الذاتية



مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

محمد عبد العزيز الهجين

الأُنْسُ بِالرَّاحِلِينَ

أمسيات مع السَّير الذاتية

مدارات للأبحاث والنشر
Medarat for Research and Publishing





الأنسُ بالراحِلين

أمسيات مع السَّير الذاتية

محمد عبد العزيز الهجين

- باحث مهتم بالتاريخ والسير الذاتية.
- تخرج في كلية الآداب - قسم التاريخ.
- حاصل على درجة الماجستير.
- صدر له: مودة الغرباء: حكايات من السّير الذاتية والمذكرات.



الأنس بالراحلين

أمسيات مع السير الذاتية

محمد عبد العزيز الهجين

مدارات للأبحاث والنشر ©

جميع الحقوق محفوظة

الأنس بالراحلين: أمسيات مع السير الذاتية

محمد عبد العزيز الهجين

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢١/٣٠٩٣٥

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-48-9

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٢ م - جمادى الآخر ١٤٤٣ هـ

مدارات للأبحاث والنشر

٥ش ابن سندر- الزينون- القاهرة - جمهورية مصر العربية

٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠/١/٢

info@madarat-rp.com

Facebook.com/madaratrp

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تعبر - بالضرورة - عن رأي الناشر

وَالْحَافِظِينَ الْيَتَامَىٰ وَالْمَلَائِكَةَ الْمُرْسَلِينَ
 (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ٦٩
 الْمَلَكُوتِ ٦٩



المحتويات

المقدمة.....	٩
(١) ذكرى عهد: سيرة جديدة للزَّيَّات بعد اثنين وخمسين عامًا من وفاته.....	١١
(٢) محمد علي وكل رجال الباشا.....	٢١
(٣) نوبار في صُحبة الوالي محمد علي باشا وإبراهيم باشا.....	٢٩
(٤) أرسكين كالدويل: كيف أصبحت روائية؟.....	٣٧
(٥) قربان سعيد: في فضّ غموض حياة غريبة وخطيرة.....	٤٣
(٦) برتراند راسل: تجارب مسالم في الحرب العالمية الأولى.....	٤٩
(٧) بعث صدام حسين: رؤية من داخل نظام استبدادي.....	٥٧
(٨) رياض الرئيس: رحيل صحفي المسافات الطويلة.....	٦٧
(٩) ذُبابة في الحِساء: كيف وصف شاعر أمريكي حياة اللجوء؟.....	٧٣
(١٠) وليد سيف: حياة مع الدراما.....	٧٩
(١١) حكايات الأغا خان: ترند الخمسينيات.....	٨٥
(١٢) أنيس صايغ عن أنيس صايغ: حكايات كاتب مناضل.....	٩٥
(١٣) صلاح الدين المنجد: سندات المخطوطات وعالم دمشق ومؤرُخها.....	١٠٣
(١٤) أسعد داغر: شاهد عيان على الانقلاب على السلطان عبد الحميد ١٩٠٩.....	١١٣
(١٥) جمال الدين الأفغاني: سيرة سياسية لحكيم الشرق.....	١١٩
(١٦) حياة غير آمنة: في رثاء جيل الأحلام والإخفاقات.....	١٢٧
(١٧) التفرقة الإسطنبولية: كامل مُروّة ورفاقه في عام ١٩٤١.....	١٣١
(١٨) زكي كرام: تاجر سلاح عثماني-ألماني بعد الحرب العظمى.....	١٣٧
(١٩) مغامرات جبرائيل ورد: الجندي السوري في ثلاث حروب.....	١٤٧
(٢٠) زلماي خليل زاد: من فنى في مزار شريف إلى البيت الأبيض.....	١٥٥

- (٢١) دار العودة: حياة ناشر بين الشعر والشعراء ١٦١
- (٢٢) حمدي قنديل يروي قصته بقلم رصاص ١٦٩
- (٢٣) خبارات هيلاري كليتتون الصعبة ١٧٧
- (٢٤) سوريا في مذكرات وزير الخارجية الأمريكي جون كيري ١٨٩
- (٢٥) القدس الانتدابية في المذكرات الجهورية ١٩٩
- (٢٦) نجيب المانع: ذكريات عمر أكلته الحروف ٢٠٥
- (٢٧) الفصول الأربعة: معن زيادة يرثي قاهرة الستينات ٢١١
- (٢٨) أمين الحسيني: في سبيل الله والفوهرر ٢١٩
- (٢٩) إقلاع وهبوط: سيرة طبيب من رأس بيروت ٢٣٥
- (٣٠) لورنس العرب: صناعة الأسطورة ٢٤١
- (٣١) في رثاء أدباء الأسس: ماهر شفيق فريد وزمته المفقود! ٢٤٧
- (٣٢) على بلد المحبوب: حكايات الغلابة في زمن الحرب ٢٥٩
- (٣٣) مطامح جورج مقدسي وأقداره: تعليم استثنائي لأمريكي من أصول شاميّة ٢٦٧
- (٣٤) محمد كريشان يروي: وإليك التفاصيل ٢٧٧
- (٣٥) أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرّمة ٢٨٥
- (٣٦) سالم بن لادن وعالم النفط والمال والطائرات ٢٩١
- (٣٧) أحمد حسين: البدايات والنهايات ٢٩٩
- (٣٨) جيش الشرق: حياة الجنود الفرنسيين في شوارع المحروسة ٣٠٥
- (٣٩) القافلة: حكاية أول العرب الأفغان عبد الله هزام ٣١٣
- قائمة قراءة مقترحة والمراجع ٣٢٥

المقدمة

«آية حياة مهما كانت تافهة ستكون ممتعة إذا رُويت بصدق»^(١)

- كولردج.

هذه أوراق من سيرتي كقارئ، وحكايتي مع المذكرات؛ عشت مع هذه الشخصيات في غربتي، وفررتُ من الواقع شطَرَ عالم الخيال؛ مصغياً لهذه التجارب؛ محاولاً من خلالها أن أفهم التاريخ عبر الدروس التي تقدمها، لكن وراء ذلك غاية أخرى؛ هي البحث عن دروس عملية تصلح لحياتي؛ كيف عاشوا؟ وكيف واجهوا صروف الحياة وأقدارهم؟ كانت هذه القراءات تُقوّي عزمي، وتشدُّ من أزري، وتعلّمني الكثير عن التحمل والصبر.

في هذا الكتاب تجد شخصيات متنوعة من القادة والسياسيين؛ مثل: هيلاري كليتون، وزلماي خليل زاد، ونوبار باشا، وأحمد حسين، وتجد حكايات الناشرين؛ مثل: رياض الرئيس، ومحمد سعيد محمدي؛ صاحب دار العودة، وتستمتع مع حكايا الصحفيين؛ مثل: حمدي قنديل، وتتقلب في أحداث التاريخ مع الروائي قربان سعيد، وتعيش أحوال القضية الفلسطينية مع أنيس صايغ، وتشجوا بحكايا الدراما التلفزيونية مع الكاتب وليد سيف. وهكذا يتضمّن هذا الكتاب تنويعاً من الشخصيات ذات

(١) أفدثُ هذا الاقتباس من كتاب عبروا النهر مرتين لحسين بافقيه؛ وهو كتاب رائع في استعراضه الكثير من السّير الذاتية والمذكرات.

التوجهات المختلفة؛ نخلتُ لك سيرهم الذاتية على مدار عامين؛ لتكون
مسلية ومفيدة، وتشجّعك على التعرف على هذا العالم الغني.

هذه الفصول بستانٌ مختلفٌ أشكّأه من النباتات والورود، ومن
الشخصيات من مُختلف المشارب والتوجهات؛ كانت أنسالي في
حياتي، عندما أعود من العمل بالمكتبة، وأسهر مع حكاية شخص يحكي
عن عمره؛ فتكون دواءً ومسكّنًا من معاناة الحياة، وأنت ترى كفاحاته
والصعوبات التي عاشها. أي إنها كانت عزاء عن كل متاعبي الشخصية؛
خصوصًا مع قسوة إسطنبول؛ تلك المدينة المليونية التي يُحشر الناس في
قطار الأنفاق فيها كالسردين، ونمط حياتها السريع. كنتُ كمن يبحث عن
الهدوء والطمأنينة في حياة الكتب؛ لذلك كنتُ أغرق في التاريخ،
وقصص هذه الشخصيات.

جعلتُ الكتاب منوّعًا؛ لكي لا يسأم منه القارئ، ويقرأ من أي فصل
شاء؛ وقانون الكتاب هو الفوضى الخلّاقة؛ ومنهجي هو أن يتفتح وعي
القارئ على قصص وحكايات من تاريخنا السياسي والثقافي من خلال
ذكريات أصحابها؛ وهكذا تكون تلك الذكريات أكثر إنسانية وجمالًا،
وهي مطعّمة بالحوادث الشخصية وتجارب البشر، وأعمار الناس.

وهذا الكتاب استكمالٌ لكتّابي الأول: مودة الغرباء؛ حكايات من
السير الذاتية والمذكرات؛ الذي حكيت فيه عن العديد من الشخصيات.
هذا الكتاب فيه من رُوح ألف ليلة وليلة؛ أي إن الكتب التي قرأتها، وكتبْتُ
عنها كانت في الليل، كانت لي كشهريزاد التي تحكي لي الحكايات؛ حتى
أفلت من السأم والملل، ولقتل الوقت، عشتُ مع الشخصيات بمشاعري
وفكري.

(١) ذكرى عهد: سيرة جديدة للزيات بعد اثنين وخمسين عاماً من وفاته

فرحت بصدور كتاب ذكرى عهد: أشلاء سيرة ذاتية، للأديب الكبير أحمد حسن الزيات؛ الذي حرره وأعاد بناءه د. عبد الرحمن قائد، وحرصت على أن أحصل عليه؛ فلَبِى هذه الأمنية صديق أعتر به وأرسلها لي، وبرغم عملي بين الكتب إلا أن الحصول على كتاب جديد يصيني بفرحة عارمة.

أخذتُ أقرأ هذه السيرة الجميلة، وقرأتُ مقدمة عبد الرحمن قائد، وسعدت بهذا الجهد المعرفي الذي قام به؛ لقد جمع قائد ذكريات الزيات في مختلف عهود حياته من كتبه، ومن المجلات التي كان ينشر فيها مقالاته، وفي ذكرى عهد مقالات تُنشر اليوم أوّل مرة في كتاب، وكانت مطوية من قبل في زوايا الصحف والكتب والمجلات، وربّما قائد على مراحل عمره؛ لنتقل معه من الطفولة والصبا، إلى الشباب، ثم الكهولة، وننتهي عند الشيخوخة. ولم يكتفِ قائد بجمع الفصول التي يروي فيها الزيات من سيرته؛ بل نقل إلينا الفصول التي كتبها الزيات عن الشخصيات التي عرفها والتقاها؛ لأن الزيات كتب فأكثر عن أعلام عصره في مجلته الرسالة.

فسّر عبد الرحمن قائد ما غمض من الألفاظ والتراكيب مما لم يفّسه الزيات في الحواشي، وتأثرت بالدافع الذي حكاه في مقدمة الكتاب؛

فهو يوضح أن دافعه لإخراج هذا الكتاب هو «صلة لرحم الأدب، وبراء بآله؛ نهضت لتحقيق أمنية الزيات هذه التي ظلَّ يتمناها نحو أربعة عقود (١٩٢٨ - ١٩٦٨)».

هذا الوفاء لثراث الزيات، والنية الحسنة، والخُلُق الجميل من عبد الرحمن قائد؛ جعله يجمع لنا كتابًا بعنوان ذكرى عهود؛ وهي التسمية التي أعلن الزيات أنه ينوي أن ينشر بها سيرته في مقالاته، وهكذا قدم لنا هدية نشكره عليها، وأضاف لرفِّ السَّير الذاتية العربية كتابًا يُوَضِّع مع أيام طه حسين ومجايليه من هذا العصر؛ وهو نصٌّ من النصوص البليغة المعاصرة، وهذه هي هديته الثانية للقراء بعد أن أخرج كتابًا بعنوان مقدمات العقاد؛ وهو كتاب يستحق الاحتفاء به والحديث عنه، وهو فرصة لمراجعة تراث العقاد وكتاباته.

وُلد أدينا أحمد حسن الزيات في سنة ١٨٨٥، في محافظة الدقهلية في مصر، وتساعدنا السيرة على فهم مراحل حياة هذا الأديب الذي اقترن اسمه بواحدة من أهم المجلات الثقافية مجلة الرسالة.

تبدأ المذكرات بفصل عن عهد الطفولة؛ نرى الزيات يستعيد فيها الحديث عن حياته في القرية، ويصف قريته قبل ستين سنة، وينقل لنا صورة بليغة من ذاكرته، ونكتشف عند قراءة الكتاب أن عينَ الزيات عينُ باحث اجتماعي يلتقط التفاصيل الصغيرة، التي تهتمُّ الباحث الأنثروبولوجي؛ فهو يصور لنا حفلات الأعراس في الريف وطقوسها، ويستعيد ذكرى العيد في القرية، ويقارن القرية بين الأمس واليوم، وعن وضع القرية عند وصول وباء الكوليرا لها عام ١٩٠٢، وعن أول حب في

حياته وموتها بالكوليرا، ونظر للقرية عند لحظات فيضان النيل قبل السد العالي، ويرسم بقلمه صورة ليوم شَمّ النسيم وليالي الحصاد، وهكذا يصف لنا الزَّيَّات حياة القرية التي وُلد فيها وترعرع وصفاً أسراً.

نتنقل المذكرات بعد ذلك لعهد الصبا؛ وهو من أمتع الفصول في الكتاب؛ وفي هذا الفصل نجد بداية معرفة الزيات بالأدب؛ فبعد أن حفظ القرآن، اشترى والده كتباً تكون مؤنسةً لهم في سهرات الليل؛ مثل قصة سيف بن ذي يزن، وسيرة عنترة بن شداد، وألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة. وانعقد السامر لسماع المختار منها؛ كان مجلس الزيات، وهو فتى مراهق، بجانب الفانوس الذي يقرأ الشيخ منصور على ضوئه؛ فكان يرى كيف يصور القارئ العواطف على قسَمات وجهه، ويمثل المواقف بنبرات صوته؛ فيهتز لحماسة الأداء، ويطرب لطلاوة العبارة، ويلتذُّ من جاذبية القصة، ثم إن والده أهدها ديوان المتنبي؛ فكان أول كتاب يقتنيه، وأول شاعر يُحبه.

ثم نراه في الأزهر يحكي لنا كيف عرف الشيخ محمد محمود الشنقيطي، في أوائل القرن الفائت؛ غلاماً ناشئاً يهوى الأدب، ويحفظ الشعر، ويُعالج القريض؛ يجلس في الرواق العباسي بالأزهر، وكان على خلاف الأزهرين في ذلك العهد؛ يقرأ الصحف، ويغشى الأندية، ويتابع المعارك الأدبية في الضياء لليازجي، والمؤيد لعلي يوسف.

بعد أن يصف لنا الشيخ الشنقيطي، نتنقل معه لقراءة هاجسه في هذه الفترة؛ قدم في الأزهر، وقدم في الصحافة، والزيات ورفاقه طه حسين ومحمود الزناتي يفكرون في أسلوب للكتابة يُبين كتابة الأزهرين؛ كان

هؤلاء الفتية يُطلّون على العصر الجديد من نوافذ الصحف، ويقفون على
البرزخ الممدود بين دنيا الأزهر ودنيا الناس؛ كان أستاذهم سيد بن علي
المرصفي يطبعهم على النظم على غرار الحماسة، وفي النثر على غرار
كتاب الكامل، ويزين لهم أن ينظموا معلقة كطرفة، وعلى الناحية الأخرى
كانوا يفكرون في كتابة تحكي عن الحال الحاضرة، وواقعهم الذي شعروا
أن الصحف تُعبّر عنه.

شرح المذكرات هذه الصداقة بين الزيات وطه حسين ومحمود
الزياتي في الأزهر وكيف تعارفوا، وعن صفات كل شخصية فيهم بقلم
الزيات البديع، وعن عشقهم للكتب، وكانت الكتبخانة المصرية (دار
الكتب) هي مكتبتهم العربية، التي يتعلمون منها، ثم انصرف الزيات وطه
حسين بعدها لتعلّم الفرنسية.

تتيح لنا ذكريات الزيات تخيّل حالة الأزهر في ذلك الوقت، وكم
تمنيّت أن تُجمّع ذكريات من عاش في الأزهر في عهود مختلفة؛ لتخرج
كتاباً يُؤرّخ للأزهر بقلم من تعلّم فيه؛ ستجد وصفاً للأزهر عند طه حسين
في الأيام، ولدى أحمد أمين في سيرته حياتي، وعند سليمان فيّاض في
أيام مجاور، وعند محمد البهي في كتابه حياتي في رحاب الأزهر؛ سيرة
للمكان من خلال أجيال مختلفة.

ترصد المذكرات لحظة ظهور المنفلوطي؛ عندما أشرق أسلوبه على
صفحات صحيفة المؤيّد، وإعجاب القراء بهذا الفن العجيب، وترقّب
هؤلاء الفتية الأزهريين صحيفة المؤيّد كل خميس؛ ليقرؤوا مقال
المنفلوطي؛ وطه حسين مُرهفُ أذنيه، وزياتي مُسبّلُ عينيه، والزيات

مأخوذاً بروعة الأسلوب، وكلهم يودون لو يتعرفون على هذا المنفلوطي؛ إلى أن ترجم الزيات رواية آلام فتر عام ١٩٢٠، وكان المنفلوطي صاحب العبرات يومئذ بلغ الغاية في الشهرة، وبلغ أيماننا كانت كتب المنفلوطي من الكتب الأكثر مبيعاً في العشرينيات، وطلب المنفلوطي لقاء الزيات، ويرسم لنا الزيات وصفاً ممتعاً لهذه الشخصية.

تستمر المذكرات بالسير بنا لمعرفة تفاصيل حياة الزيات؛ نراه في قاعة الدرس يعلم التلاميذ، ويصف أول درس ألقاه على مسامعهم، والرهبة التي شعر بها في بداية عمله مدرساً في مدرسة الفرير بالخرنفس عام ١٩٠٧، وبقي فيها إلى سنة ١٩١٤، وعن تجاربه في تدريس اللغة العربية، ثم مشاعره فيما هو وجلٌ من أن يعتقله الإنجليز في فترة ثورة ١٩١٩، وهو يجلس مع أحد قادة التمرد يوسف الجندي، وعن إخفاء الزيات المسدس الذي يحمله صديقه في القفطان الأزهري ذي الجيوب الخفية، ونجاتهما من القبض عليهما؛ بفضل هذا القفطان المبارك. وكان نصيب الزيات من المشاركة في ثورة ١٩١٩ مراجعة المنشورات السرية، وتحرير الخطب العلنية لمن يلقيها.

وفي بعض الأحيان أفكر في حياة القرية، وأخاف أن يكون جدي قد شعر بالملل من هذه الحياة، أقرأ فقرة من مقال الزيات عن الحصاد؛ فيعيد لي جو القرية، يقول الزيات:

«ذلك في ليلة بين أواخر ماي وأوائل جوان والزرع قد استُخِصِدَ، وتهالك بعضه على بعض من الذُّبُولِ واليئس؛ فلم يعد يقوى على حمل سُنبله. وكان الحاصدون والحاصدات قد خرجوا عشاءً إلى الحقول الذهبية، وفي أيديهم المناجل، وعلى أكتافهم

الأردية؛ وهم يُوقعون على الطرق العشبية أهزيجَ الجدَل
والأمل، فباتت القرية هامدة؛ كأنما ضرب على آذانها الموت؛
فلا تسمع سامراً على مصطبة، ولا نابحاً على تلٍّ؛ فأخذني منها
ما يأخذ السائر الوحيد من الغابة الكثيفة أو المقبرة الفسيحة؛
فخرجت أنشد الفرجة والأنس في حقل من حقولنا القرية.

فلما غمرني ليل الحقول، وملكني سلطان الطبيعة، أحسستُ
في قلبي دنيا جديدة لم أحسها من قبلُ في نهار الناس، ولا في
ليالي القرية! فقد كان القمر حيثلُ في أوله يُرسل أضواءه اللينة
الرخية كإشعاع الحلم؛ شاحبة كإسفار الأمل، فيلون الغيطان
والغُدران والطرق بلون الفضة الكابية، وتسمع الجنادب تصرُّ
في هشيم البرسيم، والضفادع تنقُّ على حفافي الترع، والسواقي
تنوح على رءوس الزروع، والحاصدات يغنين في مزارع القمح،
وطيور المساء تنغم في أعالي الدوح، وكلاب الحراسة تنبح
على أطراف الليادر؛ فيكون من كل أولئك إيقاعٌ موسيقي
عجيبة؛ تبعث الرُّوعة في النفس، وتلقي الشعر على الخاطر.

يشرح الزيات لماذا ترجم آلام فرتر لجوته، ونزعت الرومانسية التي
وجَّهته لهذا النوع الأدبي، وترجمته رفائيل للأديب الفرنسي لامارتين، ثم
نتقل معه لتتعرَّف على ذكرياته في باريس التي سافر إليها عام ١٩٢٥؛
ليؤدي امتحان الحقوق، وليحصل على الليسانس من جامعة باريس، ثم
نرتحل معه إلى العراق؛ حيث سافر إلى بغداد للتدريس بها، ونُطالع
ذكرياته فيها، ويكتب الزيات عن أول الأشخاص الذين التقاهم في
العراق الشاعر جميل صدقي الزهاوي، وعن شكوى الزهاوي المتكررة

من جحود الأمة، وإغفال الدولة وكيد الخصوم، وإلحاح المرض، وكانت مواضيع الزهاوي في كل لقاء مع الزيات لا تخرج عن أحاديث الأنا.

تساعدنا تلك المقالات التي يسرد فيها الزيات ذكرياته في العراق على معرفة الشخصيات المرموقة التي التقى بها، واتصال أسبابه بالقصر الملكي في العراق، ونراه يصف صيف العراق وصفًا يشعر ك بالقَيْظ، وينقل إليك الشعور بالاختناق والرطوبة، كما نراه يصف مساءات النزهة على شاطئ دجلة، وهو يتعجب كيف ازدهرت حضارة العباسيين في هذا القَيْظ الطويل، واستبحر عُمرانهم في هذا الخمود الملازم للحر.

لا تكفي المقالات بذكر أحاديث العراق السياسية؛ بل نقرأ عن قصة غرامية للزيات مع نورا الفتاة العراقية، في وصف مسهب؛ يرق فيه قلم الزيات، وتشبُّ عاطفته؛ ليصف بأسلوبه الأخاذ هذا الحب الرومانسي الذي كان مؤنسًا له في ليالي بغداد، ولا ينسى أن يخبرنا أنه يسهر على دجلة؛ يأكل السمك المسقوف، ويتفكَّه بالبطيخ المبرّد، ثم يقضي العشيّة في زورق يهدده ساعة أو ساعتين على ظهر النهر الخالد، وقضى في هذه العلاقة العاطفية التي يسميها نشوة صوفية أحد عشر شهرًا؛ لا يسأل القَدَر المقدور متى يفيق منها، ولا كيف ينصرف عنها، ثم نُفجّع في نهاية الفصل بقصة فقدان الزيات كتابه «العراق كما رأيته»؛ الذي كتبه عن سنواته في العراق، وعن ضياع كتابه، وعن الحزن الشديد الذي أصابه بضياع هذا الكتاب العزيز عليه.

كلما مررتُ على صفحات الكتاب اقتربتُ من حياة الزيات أكثر؛ ترى رثاء لابنه رجاء، وحزنه عليه، وقد توفي طفلاً، ثم حديثه عن أثر ظهور

الراديو واختفاء الشاعر والقصاص من المجالس، وعن الحزن الذي أصابه بعد حرب ٤٨، وتوقفه عن الكتابة، وعن شعوره بالاكئاب؛ بسبب الوضع في فلسطين.

تلتقط المذكرات لحظة تفكير الزيات في إنشاء المجلة الأدبية التي أسماها الرسالة بعد عودته من العراق، ودعوته لطله حسين أن يشاركه هذا المشروع، واعتذار طه حسين بأسباب يشرحها في الكتاب، وعن الإقبال الذي حدث على مجلة الرسالة؛ حتى إن مصطفى أمين عندما عاد من جولة طويلة في البلاد العربية، قال: «لو أغلقت الحكومة المصرية عشر سفارات، وأبقت مجلة الرسالة؛ لكان خيرًا لها وللعرب!».

قضى الزيات قرابة ثلث عمره في إدارة هذه المجلة المهمة؛ حتى وصلت أعدادها إلى عشرين مجلدًا ضخماً، ويحكي لنا وديع فلسطين أن الزيات كان يقضي يومًا كاملاً في الاعتكاف متى شرع في كتابة مقاله الافتتاحي لمجلة الرسالة؛ يكتبه وينقحه، ويتأنق فيه، ثم احتجبت الرسالة بعد عشرين عامًا كانت فيها ملء السمع والبصر، ودارت على صفحاتها أشهر المعارك الأدبية، ولم يكن من عادة الزيات المشاركة في المعارك الأدبية، ويشرح الزيات في المذكرات ظروف إغلاق المجلة؛ مثل تخلي الدولة عن الاشتراكات التي كانت تدعم مالية المجلة، وملاحقة الضرائب له، ويضيف الكاتب وديع فلسطين أن ضياع فلسطين في ١٩٤٨ أفقد المجلة نصف قرائها، والسبب الآخر في رأيي تغير الجو الأدبي بعد ثورة يوليو؛ لقد تغير العهد السياسي، ولحق به الجو الثقافي، وانتشرت جرثومة في دنيا الثقافة أصابت المجلات الأدبية بالخمول والإغلاق؛ مثل مجلة المقتطف، والكاتب المصري، والثقافة. حاولت الرسالة أن تعود عام

١٩٦٣، لكن المشروع لم يستمر؛ حيث أصبحت جزءاً من الدولة، واختلف الجيل الذي شارك فيها في المرحلة الأولى، وتولى الزيات رئاسة تحرير مجلة الأزهر قبيل وفاته.

عندما انتهيت من هذا السفر الجميل والرحلة الممتعة مع حياة الزيات متفلاً بين عهود وذكريات مختلفة؛ شعرت أنني انتقلت بالزمن لعالم الزيات وعصره، لقد استطاعت هذه السيرة؛ بفضل جامعها ومنشئها د. عبد الرحمن قائد - القبض على روح عصر الزيات، والتعرف على رجاله الذين صادقهم؛ مثل أحمد شوقي، والمازني، والعقاد، وعلي محمود طه، وعاتكة الخزرجي، وغيرهم. كل هؤلاء بُعثوا من جديد بعد وفاة الزيات باثنين وخمسين سنة في هذه السيرة، ثم تمنيتُ أن أرى سيراً ذاتية على نفس الشاكلة من تراث كتبه المؤلفون عن حياتهم في الصحف والمجلات والحوارات، تُجمع وتُنشر؛ حتى تسعفنا تلك النصوص في فهم تجربتهم والاستفادة منها.

أختم بوصف الزيات لعلاقته بطله حسين ومحمود الزياتي، وهم طلاب في الأزهر.. وصف جميلٌ وممتعٌ كتبه في رثاء الزياتي رحمه الله:

«كنا ثلاثة ألفت بيننا وحدة الطبع والهوى والسن؛ فالطبع مَرِح فِكِه، والهوى دَرَس الأدب وقَرَض الشعر، والسنُ فتيةٌ لا تجاوز السادسة عشرة. وكان طه قاعدة المثلث، ومحمود وأنا ضلعيه القائمتين، أو كان المبرّد صاحب الكامل قلب الطائر، والزمخشري صاحب الكشّاف، وثعلب صاحب الفصيح، جناحيه الخافقين، وتلك كانت ألقابنا على الترتيب؛ لُقّب بها بعضنا بعضاً؛ لنزعة فكرية أو فنية كان يزعها كلُّ منا في نظر

أخويه. ووجه الشبه بيننا، وبين المثلث أن وجودنا كان كوجوده؛ لا يُتصوّر في الذهن، ولا في الخارج إلا بأضلاعه الثلاث على أيّ شكل يكون، وأما وجه الشبه بيننا وبين الطائر؛ فإن حياتنا كانت كحياته؛ تَرَدَّدُ إلى كل روضة، وتغريدٌ على كل شجرة، وتحليقٌ في كل جو. كنا نتقل من حلقة العلم إلى درس الأدب، ومن درس الأدب إلى مجلس الشعر، ومن مجلس الشعر إلى دار الكتب، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف؛ نعرض عليها ما كُنَّا نسميه يومئذٍ شعراً؛ ثم ننتهي إلى دار أحدها؛ فنتدارس ما حصلنا من علم، ونتذاكر ما حفظنا من أدب، ونتنادر بما سمعنا أو رأينا من سُخف؛ فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة؛ فتعيد ما وعت لا تخرم منه حرفاً؛ فنُصحِّح، أو نستكمل، أو نستفيد. وإذا سئمنا أو وينا فزِعنا إلى حافظة محمود الخصية؛ فيُسرِّي عن خواطرنا بمقطّعات من أعذب النوادر يحكيها عن نفسه، أو يرويها عن أبيه، أو ينقلها عن حياته؛ وزناتي مُحدّثٌ طلبق اللسان، مُتفنّن الحديث؛ تسمع منه النادرة عشرين مرة وكأنك لم تسمعها من قبل؛ لجمال عرضه، وجاذبية أسلوبه. ثم كان الطائر بقلبه النابض بالأمل والحب، وبجناحيه الخافقين بالخيال والنشوة.

(٢) محمد علي وكل رجال الباشا

«أنا الآن أهمُّ رجل في الدولة العثمانية كلها... فقد أعدتُ المدينتين المقدستين (مكة والمدينة)، وأرسلتُ جيوشي المنتصرة إلى مناطق لم تعرف من قبلُ سلطة السلطان الأعظم، وسأنتزع باشوئتي دمشق وعكا، وسوف أكوّن جيشًا عظيمًا، ولن أتوقف إلا عند دجلة والفرات».

- محمد علي في حديث صريح مع أحد مستشاريه الفرنسيين.

عندما تُطالع كتاب كل رجال الباشا: محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة، للمؤرخ خالد فهمي؛ تُلقي فهمي وكأنه يسعى سعيًا حثيثًا في نقض غزل التاريخ القومي المصري الذي نسجه المؤرخون التقليديون؛ فهو يفكّك الأساطير الرسمية عن محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة، وجيشه الذي استحدثه، أسطورة تلو الأخرى، ويروي تاريخ هذا الجيش؛ لكن من خلال نموذج مختلف؛ يؤرّخ فيه من أسفل؛ بحيث يسلط الضوء على حياة الجندي العادي، لا سير القادة.

يقدم فهمي حياة الجنود بأسلوب شائق؛ بداية من تجنيدهم، وما يعانونه من تفاصيل الحياة اليومية في معسكرات الجيش، وكيف كان يجري إطعامهم والعناية الصحية بأبدانهم. وينقل تجربة إصابة الجيش بمرض الزُّهري، وكيف عالجت الدولة هذه المشكلة.

سأركّز على معالجة فهمي لشخصية محمد علي، وحملة ابنه إبراهيم

باشا إلى سوريا (١٨٣٠ - ١٨٤٠)؛ لكنني سأستعرض قبلها ما يمكن أن نُسمّيه الرواية الرسمية في كثير من الكتابات التاريخية التقليدية عن محمد علي وجيشه.

الرواية الرسمية

نمّ نمطٌ من الكتابة التاريخية التقليدية عن تلك الفترة؛ تبدو فيه مصر فاعلاً تاريخياً متجانساً ذو صوت واحد متّحد متواصل على مدى التاريخ، وتتوصل مصر فيه إلى إدراك ذاتها في شخص الباشا العظيم محمد علي، أمّا ما قبل محمد علي فهو غائبٌ ورماديٌّ ومُبهم. وتُختصر فيه ثلاثة قرون من الحكم العثماني (١٥١٧ - ١٨٠٥) في أنها عصور ظلام؛ لم يُقدّم العثمانيون فيها شيئاً للبلاذ. ولا تخرج مصر من حقة إطباق البؤس تلك إلا مع ظهور المُخلّص محمد علي. لا تتوقف هذه الأدبيات عن وصفه بالعبقريّة؛ ولقد ساعد على رواج هذه المقولة أحفاده من الأسرة العلوية، وكتابات الأدباء والمؤرخين.

النقطة الثانية التي تعتمدها الكتابات التقليدية هي دور محمد علي في تجنيد الفلاحين؛ ليصبحوا جنوداً لأول جيش نظامي في مصر، وأن هذا الجيش سار في خطّ صاعد ومستمر من التقدم؛ ففي عام ١٨٣٣ أصبح محمد علي بالفعل من أهمّ ولاة الدولة العثمانية؛ مضارعاً السلطان العثماني في القوة والمنعة، وبعد أن ثبت أقدامه في مصر، مدّ سيطرته إلى سوريا والحجاز والسودان وكريت، وأكثر أراضي اليمن، وشرقي الجزيرة العربية. وتستخدم تلك الدراسات الترتيب الزمني لحملاته؛ فهو يوجّه الحملة إثر الحملة؛ في البداية حملته المبكرة ضد الوهابيين في الحجاز

(١٨١١ - ١٨١٨)، ثم إلى السودان (١٨٢٠ - ١٨٢٢)، ومن هناك إلى المورة (١٨٢٤ - ١٨٢٧)؛ لتصل إلى النُزوة في مواجهة السلطان العثماني في حملة سوريا (١٨٣١ - ١٨٤٠).

نلاحظ هنا في هذه الرواية أنها تعرض حملات الباشا عسكريًا في تتابع متماسك، وتُظهره كأنه يستقل عن الدولة العثمانية في كل خطوة. يظهر محمد علي في قلب الأحداث بطلًا يسبق عصره، لم يفهمه شعبه، وخانه حلفاؤه.

نقد الرواية الرسمية

يحاول فهمي أن يتبع تاريخ نشوء عبارة «محمد علي مؤسس مصر الحديثة»؛ والتي يعدّها مقولة تاريخية نشأت في سياق معين له ظروفه التي يمكن البحث فيها. ولقد وجد أن هذه المقولة ظهرت واستُعملت بكثافة بين عامي ١٩٠٢ و ١٩٠٥؛ مع حلول الذكرى المئوية الأولى لتولي محمد علي الحكم. ويلفت فهمي النظر إلى غشاة اختزال فترة الحكم العثماني في أنها كانت فترة ظلام واستبداد فقط؛ معتمدًا في ذلك على العديد من الدراسات التي قدّمت تاريخًا مغايرًا لفترة الحكم العثماني لمصر.

ثم يردّ فهمي على الرأي الذي مفاده أن قوام جيش محمد علي كان من الفلاحين؛ ما أتاح لهم الشعور بهويتهم المصرية؛ بأن هذا الرأي مفتقرٌ للدقة؛ بسبب تهرب الكثيرين من الخدمة النظامية بالجيش، وأنهم حاولوا ابتكار طرق للمقاومة؛ أحيانًا بإحداث العاهات البدنية أو الثورة والمقاومة؛ كما في ثورات الصعيد. ويؤكد أن الجيش الذي تمت صناعته

لم يكن وطنيًا خالصًا؛ بل ينطوي على الكثير من الفوارق الطبقية بين الفلاحين المصريين والضباط الأتراك؛ وسيتجلى ذلك لاحقًا في اعتراضات أحمد عرابي وانتفاضته ضد الخديوي توفيق.

ولفهم توسعه العسكري في سوريا؛ يستعرض فهمي ظروف كل حملة على حدة؛ فحملة محمد علي في الحجاز إنما أراد بها الاستجابة لأمر السلطان بإخماد الثورة الوهابية، وكذلك التخلص من قوات الألبان والمماليك المتمردة في جيشه؛ فضلًا عن الأمل في الحصول على سوريا مكافأة من السلطان؛ نظير القضاء على الوهابيين. أما حملة السودان؛ فكان الدافع وراءها هو الاستيلاء على مناجم الذهب الغنية في جبل سنار، وكذلك تجنيد السودانيين، وكانت حملة اليونان استجابة لأمر السلطان أيضًا؛ مثل حملة الحجاز.

وبالنسبة لأهم حروب محمد علي باشا في سوريا؛ فقد رأى المؤرخون أن وراءها عدة أسباب مترابطة؛ فلقد رأى محمد علي أنه يستحق مكافأة من الباب العالي؛ نظير جهوده في خدمة السلطان في إخماد التمرد الوهابي، وإخماد الانتفاضة في اليونان، وقد طلب بالفعل بعد حرب المورة أن يمنحه السلطان باشويات سوريا الأربع مكافأة، لكن خسرو باشا، عدو محمد علي اللدود، أقنع السلطان برفض هذا الطلب.

ومن أسبابها كذلك رغبة محمد علي في إقامة منطقة عازلة بين أراضيه في مصر، وأملاك الدولة العثمانية في الأناضول، وهناك ذرائع كثيرة؛ مثل خلافه مع عبد الله باشا والي عكا الذي اتهمه بإيواء نحو ستة آلاف فلاح مصري من المتهربين من دفع من الضرائب.

يؤكد فهمي أن مشروع محمد علي التوسعي لم يكن مشروعًا وطنيًا خالصًا؛ بل كان مشروعًا شخصيًا لا قوميًا؛ بل يزيد فيسلط سهام نقده على فكرة وجود كيان أزلي مصري مستمر في التاريخ يقوم بأدواره التاريخية بمعزل عن سياقه التاريخي؛ ثم يشير إلى أن مصر لم تكن ولاية مستقلة لها توسعات؛ بل ولاية عثمانية تُدار من مركز الإمبراطورية؛ لها مساحات من الحرية، لكنها تدور في فلك الدولة العثمانية، وأحيانًا تتمرد كما فعل محمد علي لأطماعه الشخصية.

يتغيًا فهمي فهم توسعات محمد علي بوصفها توسعات وإلٍ عثماني كان يتلقًى من السلطان في إسطنبول فرمانًا سنويًا بتوليته منصبه، ويطمح إلى منافسة السلطان، وتأسيس بيت ونسل ملكي؛ مثل بيوت: العظم والأمراء الشهابيين والجزّار في الشام وجبل لبنان، أو بيت داود باشا في بغداد. لكن الفارق أنه نجح فيما فشل فيه الآخرون؛ لأنه كان يمتلك المهارات الشخصية، فضلًا عن استخدامه الموارد المتاحة، ما أتاح له تحقيق ذلك.

لقد سلّم أكثر المؤرخين المصريين، بلا تبصّر، بأن محمد علي كان يحارب من أجل الاستقلال؛ انطلاقًا من حاجة مصر للتخلص من التأثير العثماني؛ فأنكروا هذا الحقّ على الولايات الأخرى التي يُفترض أنها كانت تعاني أيضًا من السيادة العثمانية. ويُعدُّ السؤال عما إذا كانت حروب محمد علي حروبًا أسرية من أجل التوسع الإمبريالي، أم لغايات؛ مثل الاستقلال عن العثمانيين سؤالًا مركزيًا لفهم مُجمل سيرة محمد علي.

والسؤال الذي يستحق أن يُطرح: لماذا وافق محمد علي أن يُحارب مع السلطان ضد الوهابيين واليونانيين، ثم انقلب عليه في سوريا عام ١٨٣١؟ والإجابة أن جيش محمد علي (الجديد) أصبح بكامل طاقته في ذلك الوقت؛ فقد تخلص من المماليك والألبان، وبنى جيشاً من الفلاحين، ولم تكن مالية الولاية المصرية تتحمل تمويل حملة بمثل هذا الحجم من قبل. وهناك أيضاً الحاجة الملحة للأخشاب لبناء أسطول ضخم، ووجود خزّان بشري من المقاتلين في تلك المناطق. وفي الكتاب تفاصيل عن حملة محمد علي على سوريا بوصفها التجلي الأهم لشخصية محمد علي، وخلافه مع السلطان الذي انتهى بصلح كوتاهية.

المنهج التاريخي ومنطق القصة

قدّم خالد فهمي عملاً تاريخياً مُميّزاً اعتمد فيه على أدوات غير تقليدية في الكتابة التاريخية؛ مثل استخدامه لأفكار ميشيل فوكو في الضبط والعقاب لدراسة انضباطية الجيش والتعاليم العسكرية للجنود، واستخدامه لأفكار بندكت أندرسن عن القوميات، وكيف تنشأ الجماعات المتخيلة، واستخدامه تجربة مدرسة التابع في الهند لكتابة تاريخ بديل، والتركيز على تاريخ الجنود؛ بدلاً من القادة، وكذلك تجارب مدرسة ما بعد الاستعمار، وما أنتجته من نقد لهذه الفترة، وهذا شيء غير معتاد في الكتابات التاريخية السابقة.

والنقطة الأهم هي أنه برغم الحمولة النظرية التي تتجلى في بدايات الكتاب، إلا أنه سرعان ما يقرأه القارئ بمتعة وشغف؛ ذلك أن الكتاب لم يفقد روح التاريخ بوصفه قصة تُروى، وحتى لو كانت القصة هذه المرة

تاريخ عساكر وجنود، وليس قادة؛ كما فعل فستظّل ممتعة بل أكثر إمتاعاً
من قصة القادة. هذا النمط من الكتابة مهم؛ لأن الدراسات - مهما قدمت
من أطر تفسيرية - تظل مفتقرة إلى القصة؛ فللقصة مذاق خاص؛ لأنها
تجعل من التاريخ تاريخ أشخاص، لا تاريخ أفكار فحسب.

(٣) نوبار في صُحبة الوالي محمد علي باشا وإبراهيم باشا

يبين يدي مذكرات نوبار باشا، وعندما شرعتُ في قراءة فصول هذه المذكرات شعرتُ أنني وجدتُ نصًّا مميّزًا يحكي فيه نوبار باشا قصة حياته، وخدماته للأسرة العلوية. وُلد نوبار نوباريان في إزمير عام ١٨٢٥، من نسل عائلة أرمنية، ودرس الابتدائية في جنيف، وكان نوبار في السابعة عشرة من عمره عندما تم استدعاؤه إلى القاهرة من قبل خاله بوغوص بك؛ الذي كان يشغل منصب وزير التجارة والأموال الإفرنجية لوالي مصر محمد علي باشا. بعد أن عمل نوبار سكرتيرًا في مكتب خاله الذي توفي في عام ١٨٤٤، أصبح سكرتيرًا و مترجمًا لمحمد علي، ثم التحق بخدمة إبراهيم باشا الذي اصطحبه معه في أسفاره.

نستعرض القسم الأول من المذكرات التي يحكي فيها نوبار تجربته مع محمد علي وإبراهيم باشا، ويزكّرنا في البداية بالفرمان الذي أصدره السلطان عبد المجيد عام ١٨٤١؛ بمنح حكم مصر لمحمد علي وأولاده، وكان صلحًا بعد سنوات من المعارك بين الطرفين، وعلى الرغم من الحقّ الوراثي للأسرة العلوية؛ فإن حاكم مصر ظل جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وظلت المعاهدات السياسية والاقتصادية تُعقد من جانب الباب العالي، وواجبة التنفيذ على مصر. وكانت الضرائب تُجبي باسم السلطان العثماني، وكان يُجبي إليه منها ما يوازي ٣٠٠ ألف جنيه إسترليني، ولم يكن تعداد الجيش المصري آنذاك يزيد عن ١٨ ألف جندي.

وصل نوبار إلى مصر في عام ١٨٤٢، بعد وقت قصير من صدور هذا فرمان، وكان والده يعمل وكيلًا للوالي محمد علي في باريس. كانت أول مهمة لنوبار الحصول على أوراق والده ومراسلاته مع محمد علي؛ خوفًا من وقوعها في يد العثمانيين. يصف لنا نوبار باشا الإسكندرية، وضوضاء الشوارع، وجموع الناس بالملابس الرثة، وكيف رأى ضباطًا من الجيش وموظفين مدنيين يمتطون الخيول.

يحكي نوبار عن قصر محمد علي باشا، وعندما يصف نوبار محمد علي أتذكر الفصل المميز الذي كتبه خالد فهمي عن نظرات محمد علي وشخصيته في كتابه الرائع كل رجال الباشا. قال محمد علي لنوبار في أول لقاء بينهما: «اعمل؛ حتى أراك وأنت تعمل». كان نوبار شابًا حديث التخرج من أوروبا، ووجد نفسه في عالم غريب وجديد عليه؛ عالم يصفه في المذكرات بأنه من العصور الوسطى؛ يشرح لنا قصصًا كثيرة تدل على شخصية محمد علي؛ فلقد غضب على خال نوبار - الخواجة بوغوص - وطلب اعتقاله ليعدم بعد نقاش حول بعض الأمور المالية، فهزّبه أحد المساعدين، وحماه سرًا؛ لأنه كان مدينًا له بمعروف. وفي يوم من الأيام مرّ محمد علي بضائقة مالية في رشيد وصاح قائلًا: «لو كان بوغوص هنا لأتقذني من هذه الضائقة»، واعترف مساعد محمد علي بأن بوغوص حي، فطلب إحضاره على الفور.

يكمل نوبار رسم خطوط علاقة الخواجة بوغوص بالوالي؛ فالخال شديد الحياء والخوف، يقاوم رغبات محمد علي التوسعية؛ يقف بوغوص وعينه تنظران إلى الأرض ويقول للباشا: «لن أتمكن من تنفيذ

رغباتكم يا سيدي»؛ مزيج من الحياء والشجاعة في مواجهة نزوات الحاكم.

حكايات نوبار عن حياته في ظل محمد علي تظهر شخصية هذا الوالي. عندما مات خاله بوغوص سأل محمد علي: كم ترك بوغوص من ثروة؛ ليتأكد هل كان لصًا أم نظيف اليد، فقيل له: ترك ١٩ قطعة ذهبية فقط، فقال محمد علي: «لا يمكن، لقد أعطيته بنفسه مائة تزن ١٧ قيراطًا». بالبحث وجد نوبار الماسة، لكن لم يجد ثروة مخبأة لبوغوص باشا، وهكذا مات بوغوص فقيرًا بعد خدمة الوالي أربعين عامًا. قال محمد علي ساعتها: «لو كنتُ أعلم أن بوغوص لن يترك شيئًا، لكنك خبأت تحت سريره ١٠٠ ألف تالاري (عملة ألمانية)؛ حتى لا يُقال: إن محمد علي يهمل من يقوم بخدمته».

يتبهننا نوبار إلى أن محمد علي، حين بلغه نبأ وفاة بوغوص وأن جنازته لم تُشيع عسكريًا، أرسل رسالة إلى قائد الحامية العسكرية يقول له فيها: «إنك حمار، إنك غبي، كيف لا تصطحب القوات التي تحت إمرتك؛ لتشيع الرجل الذي أخلص لك ورباك إلى مثواه الأخير»، وأمر بتوجّه الضباط إلى كنيسة الأرمن، وتشيعه في تشريفة عسكرية. يوضح نوبار أنه لم يكن معهودًا في ذلك الزمن -عام ١٨٤٤- أن يشيع قائد مسلم جنازة شخص مسيحي، ويشرح لنا أن الشخصيات ذات الحيثية في المجتمع لم تكن تستطيع أو تجرؤ على مصافحة مسيحي في الطريق العام؛ حتى لو كان صديقًا إلا بإيماءة بالعين، أو حركة خفيفة بالرأس.

يقصُّ علينا نوبار قصة أخرى عن دور محمد علي في تغيير معاملة المسيحيين في المجتمع؛ عندما أرسل كبير الشَّيَاس فرسًا هدية إلى أحد أمناء سر محمد علي، وكان مسيحيًا، ثم اكتشف محمد علي بعد ذلك أن الفرس به عيب؛ فاستدعى الموظف وسأله: «كيف اخترت فرسًا به عيب لتعطيه لفلان؟»، فردَّ عليه كبير الشَّيَاس: «لكن الذي اخترته يا سيدي حسنٌ للغاية بالنسبة لكافر»، فقال محمد علي: «إن الكافر هو من لا يُنفذ أوامري»، وأمر أن يُعاقب في الحال؛ ضربًا بالعصا على قدميه. لذلك ليس عجبًا أن يدافع نوبار عن محمد علي، ويعُدُّه مصلحًا كبيرًا مختلفًا عن حُكَّام القسطنطينية غير الأوفياء الذين يتلقون أوامره من موسكو على حدِّ وصفه.

كان نوبار يعرف الإنجليزية والفرنسية، ويستطيع ترجمة الرسائل والخطابات؛ ولقد منحته هذه المهارة مكانةً متميزة في حاشية محمد علي. بعد فترة من عمل نوبار مع محمد علي؛ جاء إبراهيم باشا، وطلب أن يلتحق نوبار بخاصته؛ طلب إبراهيم هذا الطلب؛ لأنه كان يعتقد أنه والده يشكُّ فيه؛ فأراد أن يزيح هذه الشكوك باستعارة رجل من خاصَّة والده؛ ليصبح شاهدًا، و مترجمًا لمحادثاته مع القناصل الأجانب.

يسرد نوبار قصصًا من داخل قصر الوالي؛ وهو في معية إبراهيم باشا تدلُّ على وجود صراع بين الأب محمد علي باشا وابنه إبراهيم، وشعور محمد علي أن إبراهيم يغدر به، ويخطط للتمرد عليه وحبسه، والانفراد بالسلطة. ظل هذا الهاجس يراود محمد علي، ونجد في هوامش الحكايات وصفًا لحياة إبراهيم وعربته من طراز فيكتوريا العتيق، ويعلِّق

نوبار بأن إبراهيم لم يكن من النوع الذي يتخلى، ولو قليلاً، عن رفاهيته، وعن كل ما هو مُريح.

الحكايات من داخل البيت العلوي تدلُّنا على صراع حاد بين الأب وابنه؛ بل إن محمد علي أصدر أمراً بقتل ابنته نازلي؛ بسبب جريمة قتل ارتكبت بتحريض منها؛ للتخلص من عشيق لها، لكن ابنه عباس رفض قتل عمته، وجلس ليلة كاملة يقنع والده بالعدول عن هذا القرار. كان هاجس إبراهيم الخوف من إراقة الدماء، وأن يأمر محمد علي بقتله؛ كما فعل مع الأميرال التركي أحمد باشا الذي سلّم الأسطول العثماني لمحمد علي بعد وفاة السلطان محمود ١٨٣٩، وطلب الباب العالي تسليمه، وأبى محمد علي مدة أربع سنوات، ثم قتله.

يتضح لنا من هذه التفاصيل التي يذكرها نوبار شعور إبراهيم باشا بالغبن من والده، وأنه يشعر أنه يتلقى عتاباً ظالماً ليس له أي أساس من الصحة، وعندما استدعى محمد علي ابنه إبراهيم إلى قصره في شبرا، طلب إبراهيم من مملوكه أن يضرب بسيفه؛ فقال له مساعده: «من؟» فردَّ إبراهيم: «من سيأمر بقتلي؟» وهو تلميح إلى والده.

لم يكن إبراهيم باشا ينام الليل، وكان يعاني أرقاً مزمنًا، ويعاني تقطُّع نومه، وكان عادةً ما يرسل في طلب نوبار؛ ليسهرًا سويةً، ويتجاذبا أطراف الحديث؛ كي ينسى همومه قليلاً، سأل نوبار ذات يوم العبدَ عُمر الذي يسهر معهما: منذ متى يعاني إبراهيم باشا من هذه المشكلة؟ فقال له: «إن الرجال الذين قتلهم في الشام يجيئون لإيقاظه من نومه ليلاً»؛ يصف نوبار عبد إبراهيم باشا بأنه شخصٌ بدائي؛ لأنه لا يفهم فكرة الندم والشعور

بالذنب، وحولها لمعنى ملموس؛ يقوم فيه القتلُ بإيقاظ إبراهيم من نومه.

نستمرُّ في النقاط الحكايات البسيطة التي يحكيها نوبار عن محمد علي وإبراهيم باشا، وكل حكاية تدلُّ على سمات شخصية هؤلاء الحكام، وتكمن براعةُ الكتاب في أننا نتعرف من خلاله على عبارات وأفكار صادرة عن لسان هؤلاء الحكام أنفسهم؛ يُفلسفون فيها قراراتهم وأفكارهم؛ فعندما سافر إبراهيم باشا إلى أوروبا اصطحب معه نوبار، وتناقشا في طبيعة المرأة الأوروبية. لحظة عجيبة عندما نرى إبراهيم باشا يراجع مقولاته وأفكاره عن الغرب، ويتحدث مع نوبار قائلاً: «إن سامي باشا يقول: إن المرأة تعيش في أوروبا حياةً سيئة»، ثم يحكي لنوبار أن هذه الفكرة محلُّ شكٍّ عنده، لقد رأى سيدةً في مدينة إيطالية وأعجبته، وعرض عليها صُرةً من الذهب، لكنها رفضت صُحبته ونهرته؛ هذا الرفض للبasha كان جديداً عليه؛ وهو القادم من قصور مليئة بالجواري.

يحكي نوبار عن تأثر إبراهيم، الذي أشعل النار وسفك الدماء في المورة، وبكائه عندما رأى حدائق أوروبا قائلاً: «انظر كم هي جميلة»؛ إنه يرى بلاداً يعمُّ فيها الرخاء، ويشعر بيؤس مصر. لكنها طموحات لم تثبتها الوقائع؛ لأن ولع إبراهيم بعائدات أراضيهِ كان يعمي قلبه عن إظهار أي رحمة بالفلاح البسيط. كما نرى اهتمام إبراهيم بالمصانع، وزيارته مصنعاً للنسيج والسجاد، وانبهاره عندما رأى الشرطة تتدخل في مشاجرة في الشارع، وامتنال الناس لها؛ قائلاً لنوبار: «هذه عظمة إنجلترا، وليست عظمتها مقصورة فقط على المصانع التي زُرناها».

عندما زار إبراهيم باشا متحف قصر فرساي شرح له نوبار قصة اللوحات وخلفيتها التاريخية؛ حيثُ تغيرت معاملة إبراهيم لنوبار؛ لقد وجد فيه رفيقاً مثقفاً يعرفه على التاريخ والفنون ويناقشه بودّ، وكان إبراهيم يراجع مع نوبار ماذا سيحكى لمحمد علي عندما يعودون إلى مصر، وينبهه قائلاً: «أنت لم تعرف بعدُ العجوز عندما يغضب، ويكشّر عن أنيابه».

كان نوبار يتجنّب إبراهيم باشا فيما هو مخمور؛ لأنه يغمس في الحديث عن المعارك الحربية التي خاضها وبطولاته. تُكمل شهادة نوبار بزيارة إبراهيم باشا إلى إسطنبول، وطلبه الحصول على حق الولاية، وكيف كان يعامل الأعيان في العاصمة بازدرء على عكس احترامه للأوروبيين؛ وسر هذه المعاملة الجافة لأنه كان يتذكر صراعه القديم مع الأتراك، وتمرده عليهم، ووصوله إلى الأناضول. لم يكن أحدٌ في الباب العالي يحبه، كانوا يعدّون إبراهيم متمرّداً سابقاً ومغامراً لا يوالي الدولة، وتمنوا أن يموت سريعاً؛ ليتخلصوا منه. وقد بادلهم إبراهيم التعامل باحتقار واستخفاف، وفي طريق عودته إلى مصر أصابه المرض، فقرح الأعيان بمرضه، وارتسمت على وجوههم علامات السرور، كلما بلغتهم أنباء تردّي صحته، وخشي عباس، بصفته خليفة إبراهيم، أن يناله نصيبٌ من غضب إبراهيم قبل موته، فسافر إلى الحجاز، ومات إبراهيم، وحضر الأعيانُ الجنازة، وينقل لنا نوبار نداء الموظفين الكبار على الخدم؛ ليجلبوا لهم الغليون، وهم في غبطة بوفاة.

ينقل لنا نوبار صورةً من جنازة إبراهيم باشا التي كلما اقتربت من المدفن قلّ المشيعون وانصرفوا، ووصلت إلى المدفن يشيعها الفلاحون

فقط، وعندما وصل الخبر لمحمد علي قال: «كنتُ أعرف، لقد حبسني، كان قاسيًا معي، لقد عاقبه الله وأماته، لكنني أجد لكوني أباه من الواجب أن أترحم عليه وأدعو الله له». يستمر الكتاب في تقديم الشهادات عن أسرة محمد علي، ويسرد لنا قصصًا وتفاصيل عن حياة الأسرة العلوية، وكيف كانت تُدار الدولة؛ حيث ترقى في المناصب، وأصبح رئيسًا للوزراء في عهد إسماعيل. وتستمر المذكرات في وصف العهود اللاحقة؛ عهود: عباس، وسعيد، وإسماعيل. أما المراجع التاريخية فتقف موقفًا نقديًا من تجربة نوبار نفسه، وتتهمه بالتسبب في الديون، فضلًا عن الإثراء، والترشح من منصبه.

(٤) أرسكين كالدويل: كيف أصبحت روائية؟

قرأت كتاب أرسكين كالدويل المعنون: اسمها تجربة؛ توقعتها سيرة ذاتية؛ لكنها كانت أقرب لمذكرات أرسكين مع الكتابة وهمومها. الكتاب يعرض خبرات أرسكين حول مهنة الكتابة أرض العجائب والخيال، كما يطلق عليها؛ لذلك لا نرى استعراضاً للأحداث التي مرت في حياته بالتفصيل؛ بل يروي التجارب التي ربما تكون قد أسهمت في مشروعه الروائي. لا نجد في الكتاب حديثاً عن مراحل حياته؛ إلا ما يتعلق بالكتابة، والنشر، والسهر على كتابة القصص القصيرة والروايات. ينذر الحديث عن الحياة العاطفية للكاتب، أو عن الحب في حياته، ولا ترى ظلال الحياة السياسية أو صراعات الحكم والسياسة، بل الصراع من أجل الكتابة والنشر.

يكثُر حديثه عن ذلك القلق؛ قلق الكتابة وهمومها، ومعاناة الحصول على فكرة وتطويرها نصّاً روائياً. الكتاب تجري أحداثه في أمريكا منذ مئة عام تقريباً؛ تغير الكثير: من سوق النشر إلى أذواق القراء، لكن كل من يحترف الكتابة يعرف شعور معايشة النمرة - والتعبير لجبرا إبراهيم جبرا. يعصر أرسكين ذهنه ليتذكر ذلك اليوم الذي قرر فيه أن يكون كاتباً، أو متى شعر أن مهنته ستكون الكتابة؛ لا يتذكر كاتبنا نقطة التحول التي دفعته للتعلق بالكتابة؛ لكنه يؤكد أن رحلته في كتابة القصص والروايات لم تكن أمراً هيناً يقوم به بسهولة ويسر؛ فلقد أتعبت تلك المهنة، وأشعرته بالقلق المستمر. كتابة القصة عنادٌ لمزاج المرء، وميله الفطري في

الانطلاق. يحكي لنا عن حالة الضيق والتوتر والنكد طيلة النهار أو الليل، فيما هو جالسٌ أمام الآلة الكاتبة؛ ليدع قصة، أو يكمل فصلاً في رواية، وفي الوقت نفسه يرغب بالخروج من المنزل؛ ليفعل أشياء أخرى أكثر إمتاعاً، وإثارة من الكتابة.

بدأ أرسكين كالدويل حياته في العمل مراسلاً صحفياً، إلى أن أسدى إليه أحد المحررين نصيحةً عندما كان يراجع مقالاته: «عُد إلى مدينتك، واكتب عما يحدث أمام ناظريك، وحوّل مشاهداتك إلى حدث مثير؛ المهم هي الطريقة التي ترى بها الحدث وتكتب عنه»، في صيف ١٩١٩، أكمل العمل في مهن متنوعة؛ أحياناً صحفياً، وأحياناً عاملاً على سطح سفينة شحن، وباع اللبن، وعمل في محل عصير برتقال، وفي مخزن زجاج وفخّار؛ المهم ما يجد به قوت يومه، وأن يجد فرصة للكتابة. وفي تلك الفترة أكمل سنوات الجامعة، وزادت رغبته في أن يكتب عن الناس الذين عرفهم في الواقع، وكما عاشوا، وتحركوا، وتكلّموا فعلاً.

في بداياته كصحفي مبتدئ لم يقتنع رئيس التحرير بأن كثرة القراءة يمكن أن تفيده: «أنا أريد مراسلاً صحفياً، لا عُتّة كتب»؛ هكذا صاح فيه رئيس التحرير، وطلب منه أن يكتب عن الجرائم في المدينة التي يعيش فيها. ولمدة عام كان يتصل بالمشرحة المحليّة يومياً، ويكتب عمود نعي للراجلين، فضلاً عن الذهاب إلى بعض الفنادق الرخيصة، واكتشاف كيف مات أحد الأشخاص داخله. في هذه التجربة تعرّف على أيام الاثنين السوداء؛ حيث يتحضر بعض الفقراء في صباح يوم الاثنين بعد أن يستيقظوا، ويتذكروا أنهم لا يملكون شروى فقير بعد أن يبددوا ما كسبوه من أجر طيلة الأسبوع الفائت، ويقرر ذلك الفقير الانتحار. عاد أرسكين

للصحيفة، وكتب قصة عاطفية يتخيل فيها انتحار أحد هؤلاء الأشخاص، لم يقبل رئيس التحرير القصة، وقال: لو أردت قصة مؤثرة سأرسل بيغي ميتشل؛ كانت بيغي تعمل في الصحافة قبل أن تستقيل، وتكتب بعد عشرة أعوام الرواية الشهيرة ذهب مع الريح عام ١٩٣٦.

لم يكف أرسكين عن المحاولة؛ الكتاب سجل بالخيبات التي مُني بها والتجارب التي خاضها. يعود إلى المنزل في المساء، ويكتب قصصًا قصيرة، ويرسلها إلى رؤساء تحرير المجلات، وكانت القصص تُعاد إليه دائمًا، ومعها رفض النشر. وعندما حاول العمل بمراجعات الكتب وجد صحيفة تعطيه أجره الكتاب التي سيكتب عنه. كانوا يرسلون له ستة عناوين أسبوعيًا، وهكذا فكر في بيع تلك الكتب بعد الكتابة عنها؛ لتصبح مصدر دخل له. وفي عام ١٩٢٦ كتب نحو أربعين أو خمسين قصة قصيرة لم يُنشر منها شيء، وأصبح لديه نحو ألفين وخمسمائة كتاب قُدِّمت له كأجر لمراجعتها؛ وبهذه الكمية من الكتب قرَّر أن يفتح محلًا لبيع الكتب المستعملة؛ تكون أرباحه منه معينًا له في الاستمرار في الكتابة.

ينتقل أرسكين من مدينة إلى أخرى، ويوفر الحد الأدنى من المال؛ لكي يستأجر غرفة ويقطع الحطب لفصل الشتاء القارس، وأحيانًا يزرع البطاطا ليأكلها؛ فهو بالنهار حطَّاب، وبالليل أديب. في النهار يجهز الخشب الذي يستعمله في التدفئة في فصل الشتاء البارد، وفي الليل يجلس أمام الآلة الكاتبة يصنع عالمًا من الأخيلة والواقع، ويعيش حياة بسيطة فقط ليكتب؛ كأنه يعيش لهذه الغواية الخطيرة. لكن مشاعر الضجر والتملل وشهوة التجوال، والرغبة التي لا تقاوم للذهاب لمكان ما - كانت تحرمه الشعور بالرضا والقناعة مدة طويلة، وسرعان ما انتهت تلك

الكتب التي كان يبيعها، وعندما زار هوليوود أول مرة، شغلته الكتابة عن زيارة معالم المدينة.

تلقى أرسكين رسالة عام ١٩٢٩ بالموافقة على نشر أحد قصصه القصيرة بعد حوالي ست سنوات من بدء محاولاته الأدبية، وفجأة انمحت من ذاكرته كل خيبات الأمل المتراكمة طيلة عدة سنين، وبلغه مدير التحرير أنهم سينشرون قصتين من قصصه مقابل ثلاثة دولارات ونصف الدولار، فردّ كالدويل أنه تلقى أجراً أكثر من ذلك من قبل، وقال للمدير: «تمنيْتُ أن أتلقي أكثر من ثلاثة دولارات ونصف»؛ فصَحَّح له المدير أن المبلغ ثلاث مئة وخمسون دولاراً.

ثم نشر أول مجموعة قصصية له، لكن مراجعات النُّقاد في الصحف كانت حانقة وغازية، حتى جعلته يشعر أن هؤلاء النقاد ينضوون تحت فئة العاشق العثين، أو المؤلف الفاشل؛ فيسخر منهم بالقول: «على كل من يريد أن يصبح ناقدًا أدبيًا أن يُظهر مقدرة على ممارسة الحب بكفاءة، أو تأليف مجموعة قصصية صالحة للنشر». وبعد هذه السنوات العجاف تناقص وزن الكاتب من ٨١ كيلو، حين كان يلعب كرة القدم في الجامعة إلى ٤٥ كيلو، لم يكن أحد يتصوّر أن هذا الكاتب النحيل المجهول، سينجح في فرض إنتاجه الأدبي، وتوزّع أعماله ملايين النسخ، وتُرجم إلى اللغات الأخرى.

ويستمر كالدويل في سرد ظروف كتابة روايته طريق التبغ ونشرها، وحصوله على ثلاثة ألف دولار؛ نظير تحويل الرواية إلى فيلم. وقد كتب بعدها رواية أرض الله الصغيرة، وبدأت شهرته كأديب وكاتب مميز. إن

رحلة كالدويل تبدو شاقة لنا، وفيها الكثير من الشغف بالكتابة، والقلق من الفكرة واللغة، وفيها الصراع مع توفير النفقات؛ لكي يجد الوقت والمكان للكتابة. لم يكن لدى كالدويل فلسفة يريد نشرها، أو مذهب يهتم بالترويج له؛ بل كان يريد أن يصف بأقصى ما يستطيع من صدق بؤس الحياة، وآمال الناس الذين عرفهم.

نجح في نهاية المطاف، وشقت روايته طريق التبغ الطريق؛ لتعرض في بروودواي كمسرحية، وتلقى ألف دولار مكافأة من إحدى المجلات؛ اتباع بها البيت الذي كتب فيه إحدى رواياته. ولم يكف عن الترحال والسفر داخل الولايات المتحدة، ثم سافر إلى روسيا، وتسلم حقوقاً مالية نظير ترجمة رواياته إلى الروسية، وأصبح يتلقى عشرات الرسائل أسبوعياً من المعجبين؛ تسأله عن سر الصنعة، كما عمل مراسلاً حربيًا إبان الغزو الألماني لروسيا، وكتب رواية عن تلك الفترة، وسرعان ما خطفتها هوليود مقابل خمسين ألف دولار، وطلق الرجل الفقر الذي لازمه في مستقبل حياته، وكتب عنه الكثير في الروايات؛ لقد بدأ حياته وهو يحصل على ثلاثة دولارات في السنة نظير الكتابة، تحولت إلى ثلاثة ألف دولار في الأسبوع.

(٥) قربان سعيد: في فض غموض

حياة غريبة وخطيرة

كنت في المطار ورأيتُ لوحة عليها طائرة متوجهة إلى باكو عاصمة أذربيجان، لم تُترجم اللوحة في عقلي إلا صورة قربان سعيد الروائي الأذري؛ مؤلف رواية علي ونيو؛ أحقًا الأدب شعارُ البلدان؟

بدأتُ يوم ريس الاهتمام بهُوية وشخصية قربان سعيد ابتداءً من ربيع عام ١٩٩٨؛ حين ذهب إلى مدينة باكو عاصمة أذربيجان للكتابة عن طفرتها التنفطية الجديدة؛ وهي أول مظاهر الحياة التي عادت للمدينة منذ أن جعلت الثورة الروسية الزمن يتوقف بها عمليًا عند تاريخ ١٩١٧، وبالكاد قبل أن يغادر باكو نصحه صديق إيراني بقراءة رواية علي ونيو لقربان سعيد؛ للتعرف من خلالها على المدينة، وعلى القوقاز بوجه عام؛ تلك كانت البداية، وأينما ذهب يوم وحلّ في باكو لاحقه ظلُّ قربان سعيد، عاد لفندق «باكو حياة ريجنسي»، ووجد كتابًا وحيدًا باللغة الإنجليزية في متجر للهدايا بعنوان: الدم والنقط في المشرق، وعلى الغلاف مكتوب أن المؤلف أسعد بك هو مؤلف رواية علي ونيو، وتحتة وبين قوسين كتب اسم ليف نوسيمباوم؛ أسماء ثلاثة لشخصية واحدة: قربان سعيد، أم أسعد بك، أم ليف نوسيمباوم، وماذا حدث له، ومن هو؟ ذلك الفضول الذي استولى على يوم ريس جعله يتتبع كل ما يخص حياة قربان سعيد تبعًا دقيقًا يشبه تتبع المحققين السريين.

أتصفح الكتاب، وأسير مع توم ريس في رحلة تدقيقه تفاصيل حياة قربان سعيد؛ أغلق الكتاب أحياناً، وأتمتم: «إنها رواية مشوقة أكثر منها ترجمة لحياة أديب»؛ هل يُعقل أن قربان سعيد مرَّ بكل هذه التجارب المريرة، ورؤية هذه الشخصيات، وتأتي الإجابة أن المعلومات التاريخية الموثقة في الكتاب مطمئنة، وحياة قربان سعيد المثيرة للتأمل لافتة ومشوقة.

جهدُ توم ريس في تتبع كل ما يخصُّ قربان سعيد مبهر، لقد بنى الكتاب على مراجعة المراسلات والمخطوطات، وسجلات الشرطة الفاشية في روما، ومدونات محفوظة في النمسا، وزيارة المناطق والقرى التي ذكرها قربان سعيد عن حياته، فضلاً عن مقابلة كل من يمكن أن يُسهم بمعلومة عن حياة قربان سعيد من أقارب أو أصدقاء وورثة، وحصل على أكثر من ثلاث مئة رسالة خاصة خفيت عن الباحثين؛ كانت مراسلات بين قربان سعيد، وإحدى صاحبات الصالونات الأدبية في عهد موسوليني، وفي الرسائل وصفٌ لأيامه الأخيرة، لكن الأكثر أهمية أنه وصول إلى الناشرة الألمانية التي نشرت كتب قربان سعيد، وزارها في بيتها، وهي في عمر الـ ٩٦، السيدة مُوغله كيرشنر التي استقبلت توم ريس، وحكّت له عن قربان سعيد، وسألته: هل قرأت كتابه العنون: الرجل الذي لم يعرف شيئاً عن الحب؟، وكانت إجابته بالنفي، فسألته دفاتر مخطوط كتاب كتبه قربان سعيد، وعندما بدأ توم في قراءة سطور هذه الدفاتر، كانت المفاجأة أن هذه الدفاتر ليست رواية؛ بل كانت مذكراته التي كتبها عن حياته، وهو على فراش مرضه، وهي آخر ما كتبه.

قصة ليف نوسيمباوم القصيرة هي التالي: وُلد ليف في أكتوبر/ تشرين

الأول ١٩٠٥ في باكو عاصمة أذربيجان لأبٍ يهودي ثري من بارونات صناعة النفط، وأمٍ شيعية من متطرفي الثوار، تبرعت لستالين بمجوهرات لدعم الثورة، وانتحرت في طفولة ليف. اندلعت الثورة البلشفية ضد القيصر الروسي، ووصل البلاشفة إلى باكو، وسيطروا عليها وهددوا بارونات النفط فيها؛ على إثر ذلك هرب رفقة أبيه على ظهر الجمال بضجة قافلة عبر شُهب بلاد فارس، وصحاري تركستان، وانتقل إلى إسطنبول بعد الحرب العالمية الأولى، ثم انتقل بعدها إلى برلين، وأعلن اعتناقه الإسلام في السفارة العثمانية في برلين عام ١٩٢٣، في الأيام الأخيرة للخلافة العثمانية، وتسمّى قربان سعيد. وفي بداية الثلاثينيات انتقل إلى فيينا، ونشر روايته علي ونيو، باسم مستعار، وحقق كتابه القيصر وستالين أعلى المبيعات، ونال شهرة واسعة في الولايات المتحدة في أثناء زيارته لها عام ١٩٣٥. لقد اشتهر في مجتمعات فيينا ونيويورك وهوليوود في الثلاثينيات، وكان نجم وسائل إعلام جمهورية فايمار في ألمانيا، ومستشرقاً محترفاً التقى كثيراً بموسوليني، لكنه حتى في أثناء حياته لم يعرف أحد، على جانبي المحيط، الكثير عن قصة حياته، أو هويته، أو ماضيه، كتب تروتسكي إلى ابنه من منفاه عام ١٩٣٥ متسائلاً: «من هو أسعد بك هذا؟» وفي عام ١٩٣٨ حاول قربان سعيد الفرار من حصار الاضطهاد النازي الألماني، وسرعان ما تم اعتقاله، وترحيله إلى إيطاليا، حيث وافته مئيتته هناك عام ١٩٤٢.

في سيرة قربان سعيد التي كتبها توم ريس، نجد ملامسةً لعالم الظلال الغامض للمهجرّين والفارين من أوطانهم بسبب الثورة الروسية، أو الحرب العالمية الأولى. ولقد تسبّب وصول البلاشفة إلى باكو أن يفقد

والده ثروته، ويتم الاستيلاء على ممتلكات الأسرة؛ بل تهديد والده بالقتل. ومثل كثير من الكتاب الذين وُلدوا في أعوام تختصر فيها الإمبراطوريات وتتداعى، سوف يجعل ليف من إمبراطوريته المنهارة، أعني الحكم الملكي القيصري والحنين لباكو قبل وصول البلاشفة عالمًا مثاليًا يحن إليه دائمًا؛ ألا يذكرنا ذلك بما تحدث عنه ستيفان تسفايج في سيرته عالم الأمس، أو سيرة حياة شكيب أرسلان بعد سقوط الخلافة العثمانية التي انتمى إليها، وتشكّل عالم جديد مختلف كليًا. قريب من ذلك يحكي لنا نوم ريس عن جده النمساوي الذي ساوره الشعور نفسه مع سقوط الإمبراطورية النمساوية-المجرية، وبسقوط إمبراطورية الهابسبورج تعيّر الكثير في تلك المنطقة، وهاجر العديد من اليهود إلى أمريكا، أو سقطوا ضحايا للنازية.

يبنى نوم ريس قصة حياة قربان سعيد على إستراتيجية أسميها «الاستطراد التاريخي»؛ مثال ذلك عندما يأتي الحديث عن ولادة قربان في باكو؛ يقف وقفة عند باكو وصراعات بارونات النفط، وأهمية النفط فيها؛ يصل في هذا الاستطراد إلى لمحة حول الحرب العالمية الثانية، والصراع بين ألمانيا وروسيا على نفط باكو، واستشهاد بمواقف هتلر في إصراره؛ للوصول إلى تلك المنطقة، وعن دور باكو في تاريخ الاتحاد السوفيتي؛ يتوقّف بعدها ليعود ويلتقط خيط الحكاية، ويقصّ عليك من نبأ قربان سعيد، الاستطراد التاريخي يبرز عند ظهور شخصية على مسرح الأحداث؛ فمثلاً ستالين يزور باكو؛ هنا يجب أن يستطرد عن تاريخ علاقة ستالين بهذه المنطقة، وموقف لينين والبلاشفة منها.

يقرأ نوم ريس شخصية قربان سعيد بوصفها جزءاً مما يسميه نمط «اليهودي الشرقي»، وهي ظاهرة شاعت في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن نُسبت في عصرنا الحالي. عُرفت هذه الظاهرة في أوائل العصر الفيكتوري في إنجلترا؛ حينما كان الشباب من العائلات اليهودية الثرية والشهيرة ذات النفوذ في مجتمعاتها، مثل وليام جيفورد، وبنيامين دزرائيلي، ينطلقون للبحث عن جذورهم المشرقية في الصحراء، في حالة بيلجراف؛ وصل الجزيرة العربية، وانتحل شخصية طبيب مسلم، وعمل في الخفاء لصالح طائفة الجيزويت، وأدار مؤامرة نابليون الثالث؛ لتأليب العرب على العثمانيين؛ أي قبل خمسين عامًا من قدوم توماس إدوارد لورانس؛ المعروف بلورنس العرب. كانت مذكرات بيلجراف من أعلى الكتب مبيعًا، حتى غلبت عليها مذكرات لورنس بعد ذلك. الاستشراق اليهودي يرى المشرق لا مكانًا لاستكشاف الغريب عنه؛ ولكن موضعٌ يستكشف فيه جذوره الشخصية، وأحيانًا عدُّ المستشرق اليهودي العرب إخوة دم، أو يهودًا على ظهور خيول؛ كما صاغها دزرائيلي.

تُرجمت رواية علي ونيو لقربان سعيد إلى العربية، وتحولت إلى فيلم من إنتاج أمريكي، كما تُرجمت روايته الأخرى فتاة من القرن الذهبي؛ بالإضافة للسيرة التي كتبها نوم ريس، والتي تُعدُّ درسًا في كتابة التراجم الشخصية.

(٦) برتراند راسل: تجارب مسالم في الحرب العالمية الأولى

عشتُ مع برتراند راسل من خلال كتابه صور من الذاكرة، من ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، وكتابه الآخر سيرتي الذاتية، وأعجبنني ما يحكيه في سيرته الذاتية عن الانفعالات الثلاثة التي تحكمته في حياته؛ انفعالات بسيطة لكنها متناهية القوة؛ أولها الحنين للحب، والبحث عن المعرفة، والإشفاق الشديد على الذين يقاسون ويتعذبون، وقد قذفته هذه الانفعالات كالرياح العاتية في طريق غير مستقيم فوق بحر عميق من العذاب.

وُلد برتراند راسل في فبراير/ شباط ١٨٦٧، في زمن المدِّ العالي للتفاؤل في العصر الفيكتوري. كان الظنُّ السائد أن الحرية والرخاء سينتشران في العالم تدريجيًا، وبترتيب منظم. وُلد راسل في عالم ما قبل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، والتي ستصبح نقطة فارقة في حياته الشخصية؛ حيث رأى تلاشي الدول العريقة كما يتلاشى ضباب الصباح. نشأ راسل في بيئة مثقلة بالتقاليد، ومات والداه قبل أن يعلِّقا بذاكرته، وكان والده يميل إلى الفلسفة والدرس، وكان أحد مريدي الفيلسوف جون ستيوارت ميل وصديقًا له، ونشأ في رعاية جدِّه وجدَّته؛ كان الجو العام في المنزل قوامه التقوى والتقشف البيوريتاني، وكان الطعام في بساطة الطعام الإسبرطي، لقد كانت طفولة تتسم بالخجل والوحدة؛ فلم

يجرب متع الطفولة الاجتماعية، لكنه عشق الرياضيات منذ صغره؛ أهدته جدته إنجيلًا كتبت على صفحته الأولى النصوص الأثرية لديها؛ ومنها: لا تتبع الكثيرين في فعل الشر، ولقد كان من أثر تلك المقولة ما جعله في فترات متأخرة من حياته لا يخشى الانتماء إلى أقليات ضئيلة العدد.

التحق راسل بجامعة كمبرج في سن الثامنة عشرة، وشعر بالارتياح في الجامعة؛ حيث وجد نفسه بين قوم يتكلمون نوعًا من اللغة الطبيعية على مسمعه، وكان إذا أخذ يتفلسف لم يُحملقوا فيه كأنه مجنون، ووجد نفسه في عالم يقدر الذكاء، وفي الجامعة كوّن صداقات، ولم يعد مضطّرًا لاحتمال الوحشة التي عانى منها في سنوات المراهقة؛ خصص السنوات الثلاث الأولى من دراسته بالجامعة للرياضيات، وخصّص السنة الرابعة للفلسفة، وكانت دراسة الفلسفة متعةً فتحت عينيه على مشكلاتٍ جديدة مغرية؛ تمنى لو شارك في حلّها؛ لقد ناسبته بيئة كمبرج مناسبة القفاز للكف.

عندما انتهت دراسة راسل في الجامعة كان عليه أن يقرر إن كان سيَهَب حياته للفلسفة أم للسياسة؛ أما السياسة؛ فقد اشتغلت بها أسرته منذ القرن السادس عشر؛ لذلك بدا الاهتمام بالفلسفة كأنه خيانة لأجداده، وأخذت تتوالى الفُرص أمامه للالتحاق بالعمل الدبلوماسي، وعُرضت عليه وظيفة في سفارة بريطانيا في باريس؛ لكن إغراء الفلسفة لم يكن يُقاوم، ومنذ تلك اللحظة وحياته ليست أكثر من صراعات يُسلمه أحدها إلى الآخر، حتى ظنَّ بعض الناس أنه يحب تلك التحديات.

جرى كل شيء سهلاً بعد اختياره العمل الأكاديمي بالفلسفة، حتى كانت سنة ١٩١٤؛ حين اندلعت الحرب العالمية الأولى. لقد آمن راسل أن الحرب حماقة وجريمة تقع مسئوليتها على كل الدول المنخرطة فيها، ورجا أن تظل إنجلترا على الحياد، وأخذ يحتج، لكنه وجد نفسه معزولاً عن أكثر أصدقائه القدامى، وكان وقع العزلة مؤلماً على نفسه؛ حتى أنه شعر بالغربة والبعد عن مجرى الحياة الوطنية.

قضى أصيلاً أحد أيام شهر أغسطس / آب متجولاً في الطرقات؛ وخاصة في جوار ميدان الطرف الأغر؛ يرقب الحشود الهائفة الفرحة بإعلان الحرب؛ بينما هو يسير ليتلقى مشاعر السابلة. وتبين له في ذلك اليوم أن الرجل والمرأة العاديين كانا مُبتَهَجَيْنَ لوقوع الحرب، وقد كان يظنُّ قبل ذلك أنَّ الناس مسالمين، وأن الحرب تُفرض على أناس عازفين عنها بفعل حكومات مستبدة وصولية مكيا فيلية.

يحكي راسل أنه لو كان مؤمناً لسمي ذلك الصوت الذي ساندته في تلك الفترة صوت الله الذي يستحثُّ على المضي في الاحتجاج ضد الحرب. وموقف راسل من الحروب ليس موقفاً نهائياً؛ فهو يرى أن الحرب العالمية الثانية ضرورية؛ لأن الظروف والملايسات كانت مختلفة، وكل ما جعل الحرب العالمية الثانية في حكم الضرورة هو أخطاء الحرب العالمية الأولى، وما تلاها من بروز الشيوعية الروسية والفاشية الإيطالية والنازية الألمانية. لقد خلّفت الحرب العالمية الأولى عالماً مظلماً لا يعرف الاستقرار. وقد حاول راسل أن يقنع الناس أن الألمان أقلُّ شراً مما تُصورهم الدعاية الرسمية؛ لأن جانباً كبيراً من الشرِّ

نجم من قسوة معاهدة فرساي، لم تكن هذه التجربة هي نهاية عُزلة راسل عن المواقف الوطنية؛ بل كانت البداية فقط.

كانت مشاعره الوطنية تُعذِّبه؛ فهو يتمنى أن تنتصر إنجلترا على الألمان؛ لأن حب إنجلترا عاطفة قوية في رُوحه؛ فكان في تظاهره بإلقائه جانبًا، وعدم مبالاته بها كأنما يتخلى عن شيء يصعب التخلي عنه. كانت رؤيته موت الشباب في الحرب تُمزِّق قلبه، وقد قضى أربعة أشهر ونصفًا في سنة ١٩١٨ سجينًا بسبب الدعوة إلى الجنوح للسلم، ولكن سُمح له بالقراءة والكتابة في السجن، بفضل تدخل آرثر بلفور. وجد راسل في تجربة السجن فرصة لاستراحة؛ فلا مواعيد، ولا قرارات يصعب اتخاذها، ولا خوف من الزيارة المفاجئة، ولا مقاطعة وهو يعمل؛ فقرأ كمًّا هائلًا من الكتب، وكتب كتابه مقدمة للفلسفة الرياضية، وشرع بآخر هو تحليل العقل، واهتم بقصص السجناء معه. أفرج عنه بحلول الهدنة، ورأى جنديًا بلجيكيًّا؛ فأخبره بحلول السلام فقال الجندي: «الله هذا جميل»، ودخل محلًّا للتبغ، وأخبر البائعة، ففرحت وقالت: «نستطيع التخلص من الأسرى الألمان»، ورأى الناس تفرح جذلة بخبر نهاية الحرب.

كذلك لم يرحّب راسل بالحكومة الثورية في روسيا، وزار روسيا عام ١٩٢٠، وتحدث مع لينين، وشعر أن نتائج هذه الثورة ضد طموحات أي شخص يحب الحرية، وشعر أن مردّ الأزمة هو ازدياد الحرية وإهمال الديمقراطية، وأعلن راسل أن الحكم البلشفي ملعونٌ في وقت مبكر خالف فيه حماسة أصدقائه البريطانيين للثورة؛ لقد شعر في روسيا أن البلد سجنٌ كبير، سجّانوه شرذمة من المتعصبين القساة، لقد شعر أن حركة التطور التاريخي تدفع كل حمية ثورية إلى التسلط والاستبداد.

شُغف راسل بالفلسفة والرياضيات، وتمنى أن يجد فيهما شيئاً من الاطمئنان يُغنيه عن اعتناق الأديان، ولقد حقق أحد أحلام طفولته في أن تصله رسائل وخطابات مدح وثناء من العلماء الأجانب الذين لم يعرفوه إلا من كتاباته، وفي المذكرات حديثٌ عن الكثير من رجال عصره وأدبائه؛ مثل جورج برنارد شو الذي يعدد جهوده ودوره، ويقول عنه: «لقد كانت لبرنارد شو فضائل كثيرة تستحق الإعجاب؛ كان غير هيّاب بالمرّة، وكان يعبر عن آرائه بنفس القوة؛ سواءً أكانت تعجب الجمهور أم لا تعجبه؛ والخلاصة أنه كثيراً ما عمل صالحاً، وقليلًا ما أساء، وأنه كحاطمٍ أصنامٍ جديرٍ بالإعجاب، ولكنه كصنمٍ لا يستحق كل هذا الإعجاب». ويحكى لنا عن جوزيف كونراد الذي كتب خطابًا لراسل بعد أول لقاء بينهما؛ يقول فيه: «عاطفة إعجاب عميق لو لم يُقدّر لك أن تراني بعد اليوم، وقُدّر أن تنساني غداً؛ لظلت العاطفة قائمة عندي بلا تغيير للأبد».

كنت أعود للنسخة القديمة المترجمة عن دار المعارف، وشعرت أنها أكثر تفصيلاً وشرحاً لحياة راسل؛ لقد شعرت بالمتعة، وأنا أقرأ هذه المذكرات. إنك تتمتع بالعبارة المترنة، والكلمة الطريفة، وخلاصات التجارب بين السطور، ويحلّو لك أن تضع علامةً على سطر أعجبك وتردّده أمام صديقك، ولقد تذكرتُ كتاب عصارة الأيام لسومرست موم، وأنا أقرأ في مذكرات برتراند راسل؛ لعل المشترك بينهما هو السرد السلس، وتحليل المواقف، وبعضُ من خفّة الروح، والتواضع في تقدير الذات. والطريف في شخصية راسل، وهو الرياضي والفيلسوف، سلاسة اللغة لديه؛ إنه يشرح ما يريده بجلاء؛ على الأقل في سيرته، ويطمئن

قلبك وهو يعترف بغموض كثير من أفكار صديقه هو ايتھيد الفلسفية. إنها رحلة ممتعة تتعرف فيها على شخصية رأت نفسها منذ طفولتها خلقت لعظائم الأمور، واحتكت بالعقول المميزة، وترى في الصفحات وصفًا للكثير من الشخصيات؛ مثل د. هـ. لورنس، و هـ. ج. ويلز وجورج سانتيانا، وغيرهم ممن احتك بهم.

يحكي برتراند راسل عن العديد من أصدقائه في كتاب صور من الذاكرة؛ مثل الفيلسوف لودفيغ فتنجشتين؛ الذي ظل راسل يسأل نفسه فصلًا دراسيًا كاملاً: أهو عبقرى أم مجرد شخص غريب الأطوار؟ وذهب فتنجشتين يسأل راسل عن رأيه في أفكاره ومزح معه: «إذا قلت لي إنني معتوة مُطبق العتة، فسأغدو طيارًا؛ أما إذا لم أكن كذلك، فسأغدو فيلسوفًا».

فطلب راسل منه أن يكتب شيئًا في موضوع فلسفي ليقراه، وقرأ راسل ما كتبه وقال له: «لا يصح لك أن تكون طيارًا»، لكن راسل يحكي عن غرابة فتنجشتين أحيانًا؛ مثل زيارته في منتصف الليل، والحديث عن الانتحار كثيرًا، وعن عبقرته أيضًا.

أما صديقه تيودور فيقول عنه: «كان يوحى بأعمق المؤدة في نفس كل من يعرفه، ولست أعرف غير امرأة واحدة في الدنيا بأسرها لا يسرها أن تقتن به؛ وتلك بالطبع المرأة الوحيدة التي كان يتمنى أن يقتن بها».

أما بوب تريفلان؛ فكان أشد من عرفهم برتراند راسل غرامًا بالكتب، وقد ابتدع راسل سؤالًا اختباريًا للناس؛ حتى يعرف إن كانوا من المتشائمين أم لا: «إذا أوتيت القدرة على تحطيم العالم؛ هل تحطمه؟»

قال بوب: «ماذا، أحطم مكتبتي، أبدًا!» هكذا كان يرى أن العالم هو مكتبته.

أما جوزيف كونراد؛ فقد كانت بينهم علاقة قوية، وأطلق راسل اسم جون كونراد على اسم أول أبنائه، ولقد رآه ذات مرة في الشارع يتحدث مع أحدهم، فلم يقاطعه، وأكمل طريقه، ومات بعدها جوزيف كونراد، وأسف راسل أنه لم يكن أجراً مما كان، ولم يتقدم لمصافحته، ثم قال: لقد كان يقف أمام بيتٍ سيّاه هتلر بالأرض في الحرب، أما كونراد؛ فهو في طريقه إلى النسيان، ولكن نُبله الدافئ الكبير يسطع في ذاكرته؛ كما يسطع نجمٌ في عين رجل في قاع بحر، ولكنه يتمنى لو استطاع أن يجعل ضيائه يسطع على غيره؛ كما سطع عليه من قبل.

(٧) بعث صدام حسين: رؤية من داخل نظام استبدادي

«لقد جاء حزب البعث للعراق ليحكمه ثلاث مئة عام قادمة» -
صدام حسين.

هكذا ينقل يوسف ساسون الأستاذ المشارك في مركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورج تاون، في كتابه الألفيت: بعث صدام: رؤية من داخل نظام استبدادي. يقوم هذا الكتاب على تحليل الكثير من وثائق حزب البعث وقراءتها؛ ومن خلال الوثائق يمكن فهم أسلوب إدارة دولا ب العمل الداخلي لدولة عربية معاصرة. والكتاب لا يعود كثيرًا إلى مقالات الجرائد وغيرها من المصادر الثانوية الأخرى؛ فمن خلال النظر في وثائق الحزب نفسه، اعتمد الكتاب على رواية الحزب عن نفسه. وبهذه الطريقة استطاع المؤلف التنقيب في أحشاء حزب أوحد حاكم لدولة عربية وقعت في قبضة أيديولوجية سلطوية.

يعتمد الكتاب على السجلات الحكومية الهائلة التي استولت عليها الولايات المتحدة الأمريكية بعد غزو العراق، وسقوط صدام في إبريل / نيسان ٢٠٠٣؛ تلك السجلات التي تُقدَّر بالأطنان، والتي أشرف على خروجها كنعان مكية؛ وهي عبارة عن سجلات حزب البعث، وأجهزة المخابرات، وعلى وجه التخصيص جهاز الأمن الخاص، والديوان

الرئاسي، ووزارة الإعلام، وكذلك شرائط التسجيلات الصوتية لاجتماعات مجلس قيادة الثورة.

حزب البعث

مكّن تطوير جهاز حزب البعث خلال الأعوام الخمسة والثلاثين التي قضاها في الحكم قيادة الحزب من التغلب على الصراعات الداخلية، واجتياز حربين مدمرتين، والصمود في وجه حصار وحظر وعقوبات دولية قاسية، وخوض معارك ضد الشيعة والأكراد في أثناء انتفاضة ١٩٩١؛ ليكون الحزب الذراع الطويلة لصدّام، بعدما أصبح تنظيمًا قويًا مؤثرًا؛ حتى إنه لعب دورًا في الحفاظ على سلطة النظام وبنيته.

يشرح لنا ساسون بنية الحزب؛ حيث احتل أعضاؤه أغلب الوظائف المهمة في البلاد، وكان كل قرار كبير وخطير في الدولة يخرج من مكتب قيادة الحزب؛ أي أمانة سرّ الحزب، ويصف لنا الكتاب أحد الشُعَب المهمة داخل الحزب؛ وهي «قسم المعلومات الخاصة»، وكان يختصّ بفحص المعلومات عن أي عضو بالحزب يطلب شغل منصب مهمّ بالحزب أو الجهاز الإداري التنفيذي للدولة.

على المستوى الوطني؛ كانت أهم وظائف الحزب وأخطرها أن يكون عين النظام وأذنه في كل ركن من أركان البلاد، ومع مرور الوقت تدخل الحزب في الكثير من الملفات، وكان له نفوذ على قوى الأمن، والجيش، والبيروقراطية الحكومية، والعمال، والاتحادات، والنقابات المهنية. كما أسّس الحزب لعبادة الزعيم القائد، صدّام حسين، وشرعها ونشر الدعوة إليها. وابتداءً من عقد التسعينيات؛ شرع الحزب في التدخل في توزيع

حصص الطعام، وفي ملاحقة واعتقال المنسحبين وهاجري الحزب، وفي الإعداد لمقاومة الغزو في ٢٠٠٣.

تمويل الحزب

يشير الكتاب إلى إدراك صدام لأهمية التمويل في نجاح إدارة الحزب، وطبقًا لما يذكره جواد هاشم، الذي شغل منصب وزير التخطيط والمستشار الاقتصادي لمجلس القيادة القطرية لحزب البعث - قرّر صدام حسين احتجاز نسبة ٥٪ من عوائد النفط العراقي في خزانة حزب البعث، وكانت تلك النسبة تملكها مؤسسة كولبنيكيان قبل تأميمها عام ١٩٧٣، وحسب تقديرات هاشم تراكمت تلك النسبة في حسابات سرية خارج العراق، ويقدر أنها بلغت نحو ١٠ مليار دولار عام ١٩٨٩ دون حساب الفوائد السنوية لهذا الاستثمار في البنوك الأجنبية.

بل إن الحزب حافظ على تحصيل رسوم الاشتراك من الأعضاء أنفسهم؛ والتي تزيد مع ارتفاع رتبة العضو في الحزب، وكانت هناك مراقبة سرية للتفاصيل المادية لمنتسبي الحزب؛ لأن أي تغيير مفاجئ في الحالة المالية لأي عضو بالحزب، يعني أنه يمكن أن يصبح عرضة للضعف، واحتمال قبوله التعاون مع خصوم الحزب مقابل ثمن مادي، وبالتالي يسمي مصدر تهديد لأمن الحزب.

الانضباط الحزبي

اعتمد الكاتب على ما اطلع له من وثائق في تفسير أهمية الانضباط الحزبي، وهي القضية التي أولاها صدام اهتمامًا شخصيًا. كان كبار

أعضاء الحزب يُعاملون بازدراء واحتقار إذا استعملوا سيارات الحزب في تنقلاتهم الشخصية، وثُمَّ وثائق لمراقبة مواعيد وصول الأعضاء إلى أماكن عملهم. كان هناك فسادٌ داخل الحزب لا شك، وكذلك إساءة استعمال السلطة؛ إلا أن أعضاء الحزب، قُدامى وجُدُد، لم يعرفوا أبدًا إن كانوا سيُعاقبون على أفعالهم أم لن يُعاقبوا. وقد عمل انعدام اليقين ذلك بوصفه أداةً مقيدة، وكان كافيًا للهيمنة عليهم بالإيعاز والإيحاء.

اتخذت الهيمنة على حياة الأعضاء أشكالًا أخرى؛ فقد كان على الأعضاء أن ينتظروا الحصول على موافقة أمانة سرّ الحزب قبل إقدامهم على الزواج؛ كما هو متَّبِع بالنسبة لضباط الجيش، وفور أن اندلعب الحرب مع إيران، كان على الحزب مراجعة أية أصول إيرانية لمنتسبيه. واحدة من المذكرات الصادرة من أمانة سرّ الحزب كانت موجَّهة مباشرة لصدّام حسين؛ تنقل إليه أن «الحزب يعاني وجود أعضاء لا ينحدرون من أصول عربية؛ وأن ذلك قد يكون خطرًا على الحزب في المستقبل». وأوصت تلك المذكرة ألا يُمنح أي عضو من أصل إيراني شرف الانتماء للحزب. سجّل صدّام حسين رأيه على هامش المذكرة: «أوافق على رأي أمانة سرّ الحزب، ويُناقش في اجتماع القيادة».

يُلاحظ يوسف ساسون، من خلال قراءة وثائق الحزب الداخلية، أنه كانت هناك رقابة داخلية قاسية وانضباط تامّ داخل الحزب. في إحدى المناقصات أرسلت مذكرة تنتقد أعضاء الحزب حضروا اجتماعًا دون أن يكون لديهم دفتر لتدوين الملاحظات، أو آخرين جلسوا بشكل غير ملائم واضعين ساقًا فوق أخرى، وتم تذكيرهم بأن القائد (صدّام حسين) ذاته استنكر تلك العادة في الجلوس بوصفها دلالةً على افتقار الانضباط

الحزبي. وثمَّ عادة أخرى تمت مراقبتها في الحزب؛ وهي عادة لعب الورق، وقد حُدِّرَ منتسبي الحزب منها. وهناك عادات كان يصعب تغييرها؛ فقد طلب عضو من أعضاء القيادة القطرية أن يمتنع العراقيون عن إطلاق النار في الهواء تعبيرًا عن الفرح، لكن صدام حسين رفض ذلك الاقتراح؛ إذ رأى أن تلك الممارسات تسمح للأعضاء أن يُعبروا عن أنفسهم بحرية. بل إن الحرص على مراقبة الأعضاء وصل حدَّ ضرورة اجتياز اختبارات اللياقة البدنية لمنتسبي الحزب، وأن يُجرُوا فحصًا طبيًا؛ للتأكد من صحة لياقتهم البدنية، ولو لم يجتازوا الفحص مرتين متتاليتين، كانت مرتبتهم تُخفَّض إلى الدرجة الحزبية الأدنى.

يشرح الكتاب كيفية الحصول على عضوية الحزب، وتجنيد الأعضاء؛ خصوصًا مع وصول الحزب للحكم عام ١٩٦٨. عندها قرَّرَ الحزب أن يزيد من عدد أعضائه كثيرًا؛ ليتمكن من منافسة الأحزاب الأيديولوجية الأخرى؛ وعلى وجه الخصوص الحزب الشيوعي الذي كان يحظى بشعبية كبيرة. ومورست ضغوط هائلة بلا كلل لضمَّ أعضاء جُدد، وبلغت تلك الضغوط حدًّا وصل إلى أن كبار قادة الحزب وجَّهوا تعليماتٍ للفروع بأن كلِّ مؤالٍ للحزب عليه أن يضمَّ عضوين جديدين، على الأقل، كل عام، وأن على أعضاء الحزب أن يعملوا على ضمَّ أبنائهم وأقاربهم. تخيل ساسون حياة عضو عامل في الحزب أطلق عليه اسمًا افتراضيًا، محمد مثلاً، وتتبع رحلة ذلك العضو من خلال وثائق الحزب، وكيف يُرقَّى ويُراقب، كما تتبَّع ساسون أنشطة الحزب الثقافية، والدعايات، والفعاليات التي يقوم بها. كان صدام مهتمًّا بالشأن الثقافي، وكان في غاية السخاء تجاه أي شاعر يمتدحه في قصائده، وكمثال على اهتمام صدام

بالأدب واللغة يُورد ساسون قصةً عن مشاهدة صدام للتلفاز في شهر سبتمبر / أيلول عام ٢٠٠٠، وسماعه مذياع القناة يقع في الكثير من الأخطاء النحوية فيما هو يقرأ أوامر القائد (أوامر صدام حسين). فاستدعى وزير الثقافة والإعلام من فوره، وتشكّلت لجنة خاصة على وجه السرعة لتحري أسباب المشكلة، وأُخذ قرار بأن يُعيد المذيع القراءة على الوجه الصحيح دون أخطاء، كما عوقب، أي المذيع، بإيقافه عن العمل مدة ستة أشهر.

جهاز الأمن الخاص

يعود يوسف ساسون للوثائق ليقراً تاريخ الأجهزة الأمنية في العراق. وحين نطالع تفاصيل عمل هذه الأجهزة نرى عالمًا يشبه عالم رواية ١٩٨٤ لجورج أرويل؛ فالأخ الأكبر يراقبك في كل مكان. ويفضّل الكاتب في تاريخ جهاز الأمن الخاص ودوره؛ حيث كان أقوى الأجهزة الاستخبارية العراقية، وكان حسين كامل المجيد، زوج رَغْد ابنة صدام ذو كفاءة في إدارته، وأصبح قُصي صدام حسين رئيسًا للجهاز بعض الوقت، والكتاب يعتمد على وثائق القيادة القطرية لحزب البعث التي تُظهر كيفية عمل ذلك الجهاز.

مهمة هذا الجهاز هي حماية الرئيس؛ غير أنه في أواخر الثمانينيات، نُزعت هذه المسؤولية من جهاز الأمن الخاص، ونُقلت إلى مجموعة خاصة تشكّلت وقتها عُرفت باسم «مجموعة الحماية»؛ مكوّنة من حُرّاس في الرئاسة. كذلك من بين الأفرع التي كانت تحت إدارة الأمن الخاص

فرع علمي يُدير مختبرًا لفحص الطعام الذي يُقدّم للرئيس، عن طريق تحليل عينات منها.

كلما غادر الرئيس أحد قصور الرئاسة، استنفّر كل نظام الأمن، وكان على جميع أجهزة الأمن الأخرى أن تتبع أوامر جهاز الأمن الخاص؛ هذه الإجراءات التي يقوم بها الجهاز في حماية أمن الرئيس طبيعية، وتحدث في الدول الديمقراطية، لكن المختلف في تجربة هذا الجهاز هو تشديد الرقابة على جميع الدوائر اللصيقة بالقائد العظيم؛ يشمل ذلك العاملين بالقصور الرئاسية؛ مثل الكهربائيين، واللحامين، والحائكين، والكوّائين الذين يعدون ملابس الرئيس، وكذلك السائقين، والمصورين؛ تشمل المراقبة تركيب أجهزة تسجيل خفية في بيوت العاملين بالقصور الرئاسية، والتنصّت على الهواتف في العمل والبيوت، والجمع الدائم والدقيق لأي معلومات تخصّ هؤلاء الأشخاص.

إحدى المشاكل التي واجهت فرع الأمن الخاص، بناءً على الوثائق، هو أن أكثر العاملين بالقصور الرئاسية، الذين وصل عددهم ١٣٠٠ عام ١٩٩٥، كانوا من المسيحيين؛ ولأن أولئك العاملين كانوا يتحدثون إلى بعضهم، ومع عائلاتهم باللغة الآشورية والكلدانية؛ فقد كان من الصعب على جهاز الأمن مراقبة المكالمات الهاتفية، ويدي كاتب المذكرة الأمنية قلقه من أن فك شفرة هذه النصوص وترجمتها يستغرق أحيانًا ثلاثة أيام؛ وهي فترة كافية لتدبير مؤامرة، فتمّ تخصيص مزيد من الأموال لتشغيل المزيد من الآشوريين والكلدانيين في أعمال المراقبة.

في وثيقة أخرى نجد مُخبِرًا يبلغ عن زوجة طبّاح الرئيس، وأنها تدمن ألعاب الميسر والقمار والمراهنات، وأنها خسرت ذات مساء ٣٠٠٠٠ دينار عراقي (نحو ٣٠٠ دولار أمريكي). يرى جهاز الأمن في لعبها القمار نقطة ضعف للاختراق الأمني، وتُرفع مذكرة لصدّام تُوصي باعتقال الطّباح وزوجته، فيكتب صدّام بخط يده على هامش المذكرة: «يجب أن تكونوا أكثر صبرًا، وبدلًا من الاكتفاء باعتقالهما، يجب أن تزرعوا واحدًا من الجهاز ليلعب الورق في بيت الطّباح؛ فيمكن له أن يخبرنا عما يدور، وعن الأمور التي يتحدثون عنها في تلك الليالي». بعد أسبوع رُفع تقرير مفاده أن أحد أفراد جهاز الأمن الخاص بدأ يشارك زوجة الطّباح في لعب الورق بالفعل.

تدل الوثائق على تحول جهاز الأمن الخاص من حماية الرئيس إلى مؤسسة عائلية خالصة؛ مهمتها حماية أمن أفراد عائلة صدّام، ومراقبة جميع من يعمل في دوائرهم؛ مثلًا حين كان أطفال قصي، نجل صدّام، على وشك الالتحاق بدار حضانة، طلب نائبه معلومات مفصلة عن ستة من المعلمين فيها؛ بل إن المذكرات تشير إلى كون عُدي، نجل صدّام الثاني، كان كثيرًا ما يطلب معلومات عن أناس وأفراد دون أن يذكر سببًا لطلبه، وفي الحال تنشط جميع الأجهزة الأمنية لجمع المعلومات؛ بل إن قوارب ويخوت عُدي تمتعت بحماية جهاز الأمن الخاص، وتمت مراقبة طواقم الإبحار والفنيين وفحصهم أمنيًا.

كما تعرّضت العلاقات العاطفية بين موظفي الجهاز أنفسهم للمراقبة، فعلى سبيل المثال رُفعت مذكرة مفادها أن أحد العاملين في الجهاز يجلب نساء إلى شقته في أوقات متأخرة من الليل، وكان هاجس الخوف العلاقات الغرامية يسيطر على تقارير الجهاز. وثمّ هناك وثيقة عن أحد

العاملين بالجهاز تُفيد بأنه أقام علاقة غرامية مع سيدة كردية، فانزعج قادته انزعاجاً شديداً من هذه العلاقة. وفي الكتاب الكثير من التفاصيل عن أساليب الهيمنة على العاملين بجهاز الأمن الخاص والسيطرة عليهم. لم يكن الخوف هو الدافع الوحيد للعمل بالجهاز؛ فهناك أيا العطايا والمكافآت؛ التي أسهمت في نجاح هذه المؤسسة. ويستعرض الكتاب أنواع تلك المزايا التي يتمتع بها المتمين للجهاز؛ مثل الشقق السكنية المجانية، وتخصيص أراضي لهم، ودفع تكاليف التعليم لمن يود منهم استكمال التعليم الجامعي.

كان جهاز الأمن الخاص كليّ الوجود والسلطة؛ فكانت له الكلمة النهائية في أي ترقية لمنصب رفيع أو الإقصاء من داخل النظام، ويحتوي الكتاب على نماذج لشكاوي المواطنين من فساد الجهاز، واستغلاله للسلطات، وطرق مراقبة النظام لهذه التجاوزات. كما يحتوي الكتاب على قصص عن كيفية جمع المعلومات داخل هذا الجهاز من خلال المخبرين الذين سمّاهم النظام الـ «مُؤتمّن». وكان نظام البعث يجمع كمّاً هائلاً من المعلومات، مثل كل النظم السلطوية وعلى رأسها النظام السوفييتي الذي كان نموذجاً يُحتذى للنظام البعثي. كانت المعلومات تُجمع عن المواطنين من مختلف المستويات الاجتماعية والسياسية، ومن بين وثائق قيادة حزب البعث القُطرية؛ كان هناك ملف سميكَ لطف ياسين رمضان؛ كان مكوناً من ثلاث مئة صفحة، ويحتوي على كل المعلومات المتعلقة به.

كان صدام حسين يعي تماماً أهمية كل ما يمكن جمعه من المعلومات عن الأعداء المحتملين، وحين أرسل له مجلس قيادة الثورة تقريراً يُفيدة

فيه أن نجل طارق عزيز؛ (وكان طارق عزيز في ذلك الوقت وزيراً للخارجية وموضع ثقة الرئيس)، يستغل منصب أبيه، ويتفاوض مع شركات أجنبية؛ ليستفيد منها عمولات، فكتب صدام على هامش التقرير: «علم، لا يجرى استجواب للابن، ولكن يُجمع عنه مزيد من المعلومات». بعبارة أخرى، أدرك صدام أن تلك المعلومات المدمرة يمكن أن تُستعمل ضد طارق عزيز؛ إن حادَّ يوماً عن ولائه المطلق للرئيس.

يمنحنا الكتاب الفرصة لرؤية الطاغية فيما يمارس قمعه من خلال أجهزته، ومن خلال العبارات المقتضبة التي يكتبها على هوامش التقارير الأمنية. نعيش لحظة نادرة لا تُتاح لنا كثيراً نقرأ فيها عقلية المستبد، وكيفية إدارة البعث وأجهزته للبلاد التي تحولت إلى جمهورية خوف، مع انعدام الإحساس بالأمن، وعدم معرفة ما يخبئه الغد، والخوف من المجهول. مستوى هائل من الوسواس القهري، وصل إليه نظام صدام؛ ليرغم الناس، كما تُطلعنا الوثائق، على الوشاية حتى عن أفراد العائلة الواحدة. وتصوّر لنا الوثائق حجم ما مورس على المواطنين من إذلال، ومفاوضتهم في أبسط حقوقهم، وابتزازهم ليتحولوا إلى مخبرين. أنهى حديثي بذكر وثيقة تتحدث عن موافقة معلّم على أن يكون مخبراً، أو «مؤتمناً» مقابل استلام ترخيص لمكتبة لبيع الكتب، وأخرى تحدثت عن ابتزاز تقني يريد الحصول على رخصة لفتح محل لنسخ المستندات؛ ليعمل مخبراً. ولعل هذه الوثائق والوقائع، تُعين المصابين بمرض عشق الطغاة وتحويلهم إلى أبطال خالدين؛ على أن يروهم على حقيقتهم، أي كمجرمين!

(٨) رياض الرئيس: رحيل صحفي المسافات الطويلة

«وأنا بقيتُ أطارِدُ ظلَّ التاريخ من بلدٍ إلى آخر؛ غير أنني لم أصل إلى سوريا، لم أصل قطْ إلى الحدث السوري؛ بلادي القرية، والتي بت اليوم بعيدًا عنها؛ شأن أي لاجئ، في أشد لحظات بلادي وحدة ومرارة». رياض نجيب الرئيس.

سيحزن رفُّ الكتب المخصص لتاريخ سوريا في المكتبة برحيل ناشر كبير وصحفي مشاغب، وسيفتقد عالمُ الكتب صحفيًا مثل رياض نجيب الرئيس؛ الذي غادر عالمنا عن عمر ٨٣ عامًا؛ فهو من قَدَم عبر «منشورات رياض الرئيس» ومجلة الناقد، العديد من الإسهامات الثقافية المهمة في مجال النشر العربي.

يحكي لنا رياض في أحد مقالاته عن لحظة إصابته بالفشل الكلوي؛ تزامنًا مع بداية الثورة السورية، تعطلت الكلبتان في الأسبوع الأول لأحداث درعا؛ مما يعني أنه حظي من ذلك الوقت بصديق جديد، هو ماكينة غسيل الكلى، وأنه سيقوم برحلة بصورة منتظمة للمستشفى ثلاث مرات في الأسبوع، وسيلغي ساعتها جدول أعماله المزدحم بالأسفار؛ وهو الذي تمنى أن يعود لزيارة البلاد التي كتب عنها قديمًا؛ مثل فييتنام، وحضر موت؛ ليجدّد الكتابة عنها.

لم تُغفل عينا رياض نجيب الرئيس حدثًا مهمًا منذ منتصف خمسينيات

القرن الماضي. ولم يعتذر أمام مناسبة كبرى، أو حرب، أو انقلاب، أو غزو. أما عند مرضه؛ فكان عليه أن يكون بطريقة ما غائبًا ثلاث مرات في الأسبوع، غائبًا لا عن العالم وحسب؛ بل عن سوريا تحديدًا؛ سوريا التي عَنَت له في ذلك الوقت أكثر مما عَنَت له في أي وقت مضى. لقد عبَّر عن هذا الأمر بمنتهى الألم: «أنا مُجَبَّر في كل مرة على أن آخذ قسطًا طويلًا من الراحة قبل أن أعود إلى وعيي؛ لأراقب سقوط العالم في بلادي».

يعبَّر رياض الرئيس عن عمق حنينه إلى سوريا الذي يجتمع فيه حنين الإنسان، وحنين الناشط السياسي بالقول: «أُلَوِّح لسوريا وهي تبتعد؛ سوريا التي كان لعائلتي دورٌ أساسي في استقلالها؛ ما يزيد من شعوري بأنها توأمي؛ كما لو أن مصابًا واحدًا ضرب جسدَنا معًا». وهو يشير هنا إلى دور والده نجيب الرئيس مؤسس جريدة القَبس السورية؛ والذي كان مشاركًا في الكتلة الوطنية.

لقد شاهد رياض الرئيس أطفال دِرْعا، وعابن حجم الوحشية التي تعرض لها الأطفال من نظام الأسد، وجعلته المشاهد القاسية يشعر بأنه عاش طفولةً سوريةً مترقّة. يتذكر بيته الأول في حي «بستان الرئيس» بالشام؛ ينشر الصحف على حبال الغسيل في القبو، ويخرج إلى الشوارع التي لم يكن لحزب البعث أثرٌ فيها أو سُلطة، ويخطُّ الشعارات على جدرانها رفقة غيره من الأولاد.

بدأ حياته الصحفية في جريدة الصياد، ثم عَمِل محرِّرًا في قسم الاقتصاد في جريدة النهار؛ ذلك القسم الممل، على حد وصفه؛ فهو حيوان سياسي بتعبير أرسطو. ويبدو من سيرته وأحاديثه أنه جلس أخبار

يتعش بالعيش في قلب الأحداث التاريخية، وتكمن متعته في الكتابة الصحافية؛ بل إن رياض الرئيس طلب من غسان تويني رئيس تحرير النهار أن يُغطي الحرب بين الجمهوريين والملكيين في اليمن، وأن يذهب للبلاد التي لا يفضلها الصحفيون الآخرون.

قدّم رياض الرئيس للقارئ العربي العديد من الكتب والدراسات عن الخليج العربي والجزيرة العربية؛ لاهتمامه المبكر بهذه المنطقة؛ فهو متابع للأحداث السياسية فيها؛ يسمع برحيل الشيخ شخبوط، وصعود الشيخ زايد؛ فيطير إلى أبو ظبي ليكتب عنها، ويرى رحيل السلطان سعيد بن تيمور؛ فيذهب إلى عُمان لمقابلة السلطان قابوس والكتابة عنها. وقد عاصر مرحلة الخروج البريطاني من منطقة الخليج العربي في البحرين، وغيرها من دول الخليج العربي.

يروي لنا فرانك ميراميه في كتابه الكتاب والمدينة: بيروت والنشر العربي عن خروج رياض الرئيس من بيروت عام ١٩٧٦؛ ليستقر في لندن؛ حيث أصدر بعد سنتين مجلة المنار الأسبوعي، وخلافاً لدار الساقبي؛ حرص نجيب الرئيس على ألا تكون دار النشر مهتمة بالترجمات في بداية نشأتها، وأن تهتم بالكتاب العربي.

يسرد نجيب الرئيس سيرته في كتابه آخر الخوارج: أشياء من سيرة صحافية، وقصة تفكيره في دار النشر عندما شعر أن السنوات تمرّ دون أن يصدر في العالم العربي كتابٌ يلفت الأنظار. كان هذا بعد الحرب الأهلية اللبنانية؛ لذلك فكّر في إنشاء دار نشر عربية من لندن، لأن هذه التجربة ليست في حاجة إلى رأس مال ضخّم؛ مثل الصحافة. كتب نداء

للمؤلفين العرب للمشاركة معه في هذا المشروع، وتلقى خلال ثلاثة أشهر ما يزيد على ٨٠ مخطوطة من ٨٠ كاتباً لا يعرفهم، وفي مواضيع تتراوح بين السياسة والتاريخ والمذكرات والتراثيات والأدب والشعر. يقول نجيب الرئيس أن كلمة السحر كانت هي الحرية والانفتاح.

في بداية نشأة الدار، التزم نجيب الرئيس بألا ينشر إلا لكتاب عرب، وفي مواضيع عربية، وقُرّر ألا يمارس أي نوع من الرقابة على المؤلفين الذين ينشرون معه، كما قرر أن يُصدر كتبه في أربعة مواسم سنوية؛ فنشر كتاب واحد يُظهره في صورة الناشر الضعيف؛ وإن كان الكتاب في غاية الأهمية. تأسست شركة «رياض الرئيس للكتب والنشر» في لندن عام ١٩٨٦، أصدرت الدار أكثر من ٨٠٠ عنوان، وفي عام ١٩٩١ انتقل إلى بيروت نهائياً. يشرح الرئيس في أحد مقالاته أسباب انتقاله إلى لبنان قائلاً: «بيروت هي المدينة الوحيدة في العالم العربي التي تستطيع أن تعمل فيها، بيروت قد تكون مدينة قذرة لا كهرباء فيها ولا ماء، فقيرة وهي تحمل أكياس الليرات اللبنانية التي لا قيمة لها.. لكن يمكنك أن تباع على أرصفتها ما شئت من أحلام، أو أن تفتح فيها معملًا للنفايات، أو أن تنشر فيها مجلة ثقافية دون أن يقول لك أحد: ما هذا؟»، ثم يحكي عن معاناته في غربة لندن؛ فهو لم يعرف قيمة بيروت إلا بعد خروجه منها؛ بل إنه كان يرى عمره مهدورًا، وينزعج من هؤلاء الحُساد الذين يقولون له: «نيالك ساكن في لندن». لقد كتب هذا الكلام في أثناء إعلان عودته إلى بيروت؛ لأن لندن منفى، وسنديانة بغير جذور.

شجّع رياض الرئيس نشر الشعر من خلال جائزة سنوية باسم «جائزة يوسف الخال للشعر»؛ تُمنح لشاعر عربي شاب لم يسبق له أن نشر ديوانًا

من قبل، لم يكتف بذلك؛ بل أسّس «مكتبة الكشكول» في لندن لبيع الكتب العربية، واستمرت هذه التجربة عشر سنوات.

وعند وصوله إلى بيروت، لم تكن أوضاع النشر فيها صحناً من الكَرْز حسب التعبير الأمريكي؛ بل تعرض لمضايقات عديدة، وصلت إلى مصادرة بعض عناوين نشرها؛ إذ صادرت قوى الأمن كتاب الروض العاطر في نزهة الخاطر للشيخ النفزاوي على سبيل المثال، بعد أن تقدم الشيخ عبد اللطيف دريان رئيس مكتب مفتي لبنان حينها بشكوى للنائب العام، وكانت التجربة الثانية مع المنع في عام ١٩٩٥، بعد مصادرة الأمن اللبناني كتب الصادق النيهوم، وكذلك مُنِع العديد من إصدارات «منشورات رياض نجيب الريّس» من التداول في السعودية.

في عام ٢٠٠٠، جرّب أن يطرق أبواب دمشق، عارضاً على المسؤولين فكرة إعادة إصدار جريدة القبس من دمشق وبيروت «جريدة واحدة لشعبين»، وقد رأى أن ذلك أفضل ترجمة لعبارة «شعب واحد في بلدين». رفض النظام السوري المشروع، ودُفنت فكرة إحياء القبس، جريدة والده، إلى الأبد. وقد وُلِدَ هذا المنع من العودة إلى دمشق أَلَمًا خاصًا لديه.

قدمت «منشورات رياض الريّس» العديد من الدراسات المهمة في تاريخ سوريا؛ ونذكر هنا بعض المذكرات التي تُوثّق للذاكرة السورية، ولتاريخ سوريا مثل مذكرات الجيل المُدان؛ السيرة الذاتية لمنصور سلطان الأطرش، وكذلك مذكرات ضافي جمعان من الحزب إلى السجن؛ الذي انضم للبعث، ثم اعتقله حافظ الأسد عام ١٩٧١، وأُفرج عنه عام ١٩٩٤، وكذلك نشرت مذكرات نصوح بابيل صحافة وسياسة؛

الذي توفي عام ١٩٨٦، وهو يخطُ آخر كلمة فيها، وهي أحد المراجع المهمة للباحثين في تاريخ سوريا، وكذلك كتاب بين مدينتين: من حمص إلى الشام لعبدان الملوحي، ومذكرات أحمد الجندي المعنونة: لهو الأيام: مذكرات سنوات المتعة والطرب والثقافة، وكتاب شاهد من المخابرات السورية لفوزي شعبي، وذكريات أيام السياسة لعبد السلام العجيلي، وكتاب سعاد جروس المعنون: سورية زمان نجيب الرئيس، وغيرها من الكتب.

لقد عدَّ البعض رياض الرئيس واحدًا من شيوخ الكار في صناعة النشر؛ بضرباته الجريئة، ومعاركه التي كان يسير فيها عكس التيار، وهو أحد رعاة الذاكرة السورية والتأريخ لها، وهو الذي كان يتحدث دائمًا عن الفرق بين الناشر وبائع الكتب، وما تُوحيه كلمة النشر من معنى ثقافي، والبيع من معنى تجاري. لا زلتُ أذكر المرة الوحيدة التي رأيته فيها في الدوحة منذ سنوات يجلسُ بكل ثقة يتحدث مع ضيوف له عن صناعة النشر، ودوره في اختيار عنوان الكتاب؛ لكي «يضرب في السوق» بلغة التجارة. هل ذكر عنوان: لماذا تركت الحصان وحيدًا؟ لمحمود درويش، أم أن ذاكرتي وضعت هذه الذكرى للعبث بي؛ كما تفعل ألعاب الذاكرة؟

(٩) ذبابة في الحساء: كيف وصف شاعر أمريكي حياة اللجوء؟

في الفصول الأولى من سيرته المعنونة: ذبابة في الحساء يحكي تشارلز سيميك عن المنفى، وهو يشعر أن قصته ليست مميزة؛ فاللجوء بسبب الحروب أصبح شائعاً في عصرنا. حتى إنه عندما كان يترجم قصائد من سرايفو لمجموعة شعرية، واجه محرروها صعوبات كبيرة في العثور على الشاعرة التي كتبها. لقد اختفت. لم تكن شاعرة مغمورة؛ كان لديها الكثير من الأصدقاء، لكن يبدو أن أحداً لم يعرف ما حدث لها في فوضى الحرب.

في عام ١٩٤٥ انتهت الحرب العالمية الثانية، وتوقف الاحتراب بين الدول الكبرى، ونتج عنها هؤلاء المشردون؛ كما أطلقوا عليهم في تلك الفترة، وبفعل معاهدة يالطا، والاتفاقات بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي دفعت الأسر البريئة ثمناً باهظاً لمجرد وجودها في أماكن الحرب. لقد جاء هؤلاء اللاجئين إلى أوروبا بخرقهم البالغة، ومناظرهم التعسة ويأسهم، جاءوا زرافاتٍ ووحداناً من الشرق؛ فآرين من الشرّ بدون أية فكرة عما ينتظرهم، ولم يكن لدى أحد في أوروبا ما يكفيه ليأكل. ويخبرنا تشارلز أن أسرته، مثل أسر أخرى عديدة، تمكّنت من رؤية العالم مجاناً، والفضل في ذلك يعود لحروب هتلر، وسيطرة ستالين على أوروبا الشرقية. شعر تشارلز أنهم كانوا عديمي الأهمية، وأنهم لم يقرروا شيئاً

لأنفسهم؛ كل شيء رتبته قادة العالم وقتها، وعُقدت اتفاقيات حول مجالات النفوذ.

لم تتعرض أسرة تشارلز لمعاناة مُريعة كالآخرين؛ كنتك التي عاشتها الأسر التي أعادها الحلفاء إلى ستالين. مئات الآلاف من الروس الهاربين ضد إرادتهم، كان الألمان قد جلبوهم قبل ذلك للعمل في المصانع والمزارع، قتل الروسُ البعض، والبقية سُحنت إلى معسكرات السُّخرة؛ حتى لا تنتشر عدوى تلك الأفكار الرأسمالية المنحطة التي اكتسبوها من الحياة في الغرب. كانت أسرة تشارلز تأمل في الحصول على فرصة في الولايات المتحدة، أو كندا، أو أستراليا، لكن ذلك لم يكن مضموناً؛ لقد كانت أسهم سكان دول أوروبا الشرقية منخفضة في فرص قبول الهجرة، هؤلاء السلاف الجنوبيون كانوا من الأعراق غير المرغوب فيها من منظور خبراء الجينات الأمريكيين، وواضعي قانون الهجرة.

يخبرنا تشارلز أنه لم تكن لديهم الوثائق اللازمة، وهذه التجربة لم يفهمها إلا من عاشها، ويخبرنا عن السعادة التي يشعر بها ضباط الهجرة عندما يُسيئون استخدام سلطاتهم على الأجانب؛ تلك السعادة في إذلال العاجزين لم تكن بسيطة، وهو يتذكر هذه المواقف رغم أنه كان طفلاً؛ فحيثما يوجد بيروقراطيون؛ تكون الدولة البوليسية هي المثال الأعلى.

يتذكر تشارلز سيميك وقوفه في طوابير لا نهاية لها أمام مقر البوليس في باريس من أجل استلام تصريح الإقامة أو تجديده؛ ينتظرون نهراً كاملاً؛ ليكتشفوا أن القوانين تغيرت منذ الزيارة الماضية، ويطلب الموظفون الساديون شيئاً على قدرٍ من العبث؛ مثل وثيقة زواج جدّه، أو

شهادة تخرج أمه من المدرسة؛ يقفون عالمين باستحالة الحصول على تلك الأوراق، يقفون في الطوابير، ويستمعون إلى قصة شخص احترق بيته، وكيف غادر بيته بسرعة دون أن يتمكن من جمع الأوراق الثبوتية المهمة؛ هل سمعتم بهذه القصة من قبل؟ نعم يبدو أن تاريخ اللجوء واحد؛ سواء لمواطن من شرق أوروبا في باريس في منتصف القرن الماضي، أو لمواطن سوري في أي من دول الشتات.

يهز ضابط الهجرة كتفيه، ويشرع في إعلام هؤلاء اللاجئين، أنه إذا لم تُقدّم الوثائق؛ فسيتم إلغاء تصريح الإقامة، وبأعجوبة يتواصلون مع أحدهم؛ للحصول على تلك الأوراق. تصل الأوراق بفضل قرابة ما بعيدة، وتُترجم على يد مُترجم معتمد، ثم يعودون إلى الطابور الطويل؛ ليكتشفوا أن هذه الوثيقة لم تعد مهمة، وأن شيئاً آخر أصبح مطلوباً. وهكذا تقف عائلة تشارلز سيميك، وغيرها من اللاجئين من غرب أوروبا، في كل مكتب لجوازات السفر، أو أي قسم بوليس أو قنصلية؛ حيث يُوجد موظف سيئ المزاج أتى من الجحيم، ويشبهه في أن هؤلاء المشردين كاذبون، وهكذا يعلن كاتبنا أن اللاجئين لا يحبهم أحد. إذا كنت غادرت بلدك بسبب النازية قد تحصل على بعض التعاطف، لكن أن تغادر بلدك بسبب روسيا الشيوعية؛ فهذا ما يصعب قبوله، ولا يجعل أحداً يتعاطف معك، وأحياناً إذا كان المسؤولون يساريين يعاتبونهم؛ لأنهم تركوا المجتمعات الاشتراكية التقدمية.

يصف الشاعر تشارلز سيميك بكل دقة شعور اللجوء؛ وهو يقول: «حتى الدُمى المبتسمة خلف فتارين المحلات في شارع فيكتور هيجو الأنيق عاملتنا؛ وكأننا هناك لنسرق شيئاً»، وهكذا لن يحتاج هؤلاء الأفراد

إلى طبيب نفسي، طالما أن كل من يقابلهم يسألهم: «من أنتم؟» فور أن يفتحوا أفواههم، ويسمع لكتّهم. كانت إجابات اللاجئين غير واضحة، بعد تجارب الرجرجة في القطارات المخيفة، والسفر فوق الشاحنات، والسفن التجارية المهلهلة، أصبحوا لغزًا حتى لأنفسهم، في البداية شعروا بالصعوبة، لكن مع الوقت تعودوا، وكانت شوارع باريس ممتلئة بهؤلاء الواثقين من أنفسهم الذين لم يُجربوا التّبد، أو العيش في المنفى، وبرغم أن تشارلز شعر أحيانًا بالحسد نحو هؤلاء، لكنه أيضًا شعر بالشفقة عليهم؛ لقد جرب شيئًا لم يعرفه؛ شيئًا يصفه بأنه يصعب التعبير عنه إلا إذا ركلك التاريخ بقوة في مؤخرتك، وهجرك من بلدك التي وُلدت فيها. لقد رأى تشارلز اللاجئ كيف يمكن للأفراد أن يكونوا غير ضروريين وعديمي الأهمية في لعبة التاريخ. أما هؤلاء الباريسيون الواثقون من أنفسهم لا يفهمون احتمال أن يكون ذلك مصيرهم في يوم من الأيام. وعندما يصف تشارلز نفسية اللجوء، نتذكر ذلك النص الذي كتبه حنة أرندت عن حياة اللاجئ السابقة.

في الكتاب وصف لشعور سيميك وهو طفل في بلجراد التي تعاني ويلات القصف؛ كيف كانوا يذهبون إلى الأقبية للاختفاء، وكيف اعتقل الجستابو أباء، ثم أفرج عنه. في النهار يلعب كطفل مع أصدقائه على أنقاض البيوت المهدامة، وفي إحدى الفترات قصف الأمريكان بلجراد بطريقة عنيفة في يوم أحد الفصح، ١٦ إبريل / نيسان ١٩٤٤، وفي اليوم التالي للغارة الأولى في ١٩٤٤، جاءت الطائرات مرة أخرى، وبالطريقة نفسها أُلقت ٣٧٣ طنًا من القنابل على بلجراد، وقال الأمريكان إنه لا يوجد ما يشير إلى حدوث تفجيرات خارج الأهداف العسكرية خلال

هذه العملية؛ لكن تشارلز يحكي عن سقوط قنبلة على الممشى أمام منزلهم، إلا أنها لم تنفجر.

في عام ١٩٧٢ التقى تشارلز أحد الأمريكيين الذين شاركوا في قصف بلجراد عام ١٩٤٤. كان تشارلز قد عاد لبلجراد بعد عشرين عامًا تقريبًا من مغادرته، وعندما عاد إلى الولايات المتحدة ذهب إلى تجمع أدبي في سان فرانسيسكو؛ حيث قابل بالصدفة الشاعر ريتشارد هيوغو في مطعم. توجه ريتشارد بالسؤال إلى تشارلز: «كيف قضيت الصيف؟» وكانت الإجابة: «في بلجراد».

تحمّس ريتشارد هيوغو وقال: «إنني أعرف هذه المدينة جيدًا»، ودون أن يعرف خلفية تشارلز سيميك، رسم هيوغو معالم بلجراد مستخدمًا قطع الخبز التي على المائدة. افترض تشارلز أن صديقه قد ذهب إلى المدينة سائحًا لذلك يعرف معالمها، لكن إجابة هيوغو الصادمة كانت: «لم أزرها أبدًا؛ أنا فقط قصفتها عدة مرات في الحرب». تحت وقع الصدمة اندفع تشارلز قائلاً أنه كان طفلًا تحت هذه القصف. خجل صديقه من القصة وانزعج انزعاجًا شديدًا. حاول تشارلز أن يهدئ من روعه، قائلاً إنه لا يحمل أي ضغينة ضده، لكنه سأله عن السبب في أنهم لم يقصفوا مقر الجستابو، أو أي مبنى آخر كان يتواجد فيه الألمان؟ شرح له هيوغو أن الغارات الجوية كانت تنطلق من إيطاليا؛ مستهدفةً أولاً حقول النفط الرومانية، التي كانت لها أهمية إستراتيجية كبيرة بالنسبة للنازيين؛ حيث كان يتم الدفاع عنها بضراوة. في كل غارة جوية كانوا يفقدون طائرة أو اثنتين، ولذلك في طريق عودتهم لإيطاليا، كان عليهم التخلص من حمولاتهم فوق بلجراد. يطرون على ارتفاع عالٍ، ويلقون

ما تبقى من الحملات بأيّ طريقة ممكنة، متسابقين في العودة إلى إيطاليا؛ حيث يقضون بقية اليوم على الشاطئ مع بعض الفتيات المحليات. هذا جانبٌ من تفاهة الحروب، وكيف يُستهان بالأبرياء، وكيف يُقتلون بدم بارد.

(١٠) وليد سيف: حياة مع الدراما

برع وليد سيف في كتابة النصوص الدرامية للمسلسلات التاريخية. لقد قدّم نصوصًا في لغة راقية، ووصف ممتع، وتأملات تصل إلى أن تكون نظرات بديعة في فلسفة التاريخ، وصعود الشخصيات التاريخية وانهارها. في ذاكرة جبلي محبّة لنصوص ربيع قرطبة، وصقر قريش، وملوك الطوائف. ويُذكر لوليد سيف كذلك تفتُّنه في مسلسل عمر؛ فضلًا عن مسلسل التفرية الفلسطينية.

توجّه وليد سيف للدراما التاريخية بعد أن شعر بالملل من العمل في التدريس الجامعي، وضاق ذرعًا به في عام ٢٠٠٧. ونجده في مذكراته الشاهد المشهود يتساءل كيف أن مصيره الشخصي، وهو ابن هذا الزمن قد ارتبط بصراع الأمويين والعباسيين، وفرار عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، وبعد زهاء ألف وأربع مئة سنة، يقرّر كاتبنا أن يكتب عملاً دراميًا عن سيرة الأمير الشريد.

كانت بداية عمله في الكتابة الدرامية عام ١٩٧٨؛ حينما توسع الإنتاج الدرامي والتلفزي خارج مصر، وتصدّرت «مؤسسة الخليج للأعمال الفنية» في دبي بالإمارات العربية المتحدة. كان هناك نقصٌ فادح في كُتّاب الدراما، وجاءه عرضٌ وافق هوّى في نفسه، ومنزعا قويًا لهذا النوع من الكتابة؛ فكان مسلسل الخنساء الذي أسّس لنجاحه الباهر، رغم

ضعف الإمكانات الإنتاجية والفنية في ذلك الوقت؛ وهو يؤكد أن مدخله إلى الكتابة الدرامية التلفزيونية كان من باب الأدب منذ اللحظة الأولى، ولم يخامزه الشك في إمكانية الدمج بين المستوى الأدبي، والتقنيات البصرية.

أما بخصوص اللغة؛ فقد قرر منذ اللحظة الأولى ألا يتنازل عن المستوى البلاغي الأدبي وفقاً لمقتضيات الموقف الدرامي، والعصر الذي تدور فيه الأحداث. وهو يرى أن التعريف القديم للبلاغة بأنها: «موافقة الكلام لمقتضى الحال»، صحيحٌ ومفيدٌ لمن يكتب النصوص التاريخية، وليس من المعقول أن نُنطقَ شخصيات العصور التاريخية بأسلوب عصري يحاكي لغة الصحافة مثلاً؛ فنأتي بعبارات معاصرة ترد في الدراما التاريخية، فتفقد العمل رونقه. ويُنبهنا إلى أن من أوتي حساً لغوياً أسلوبياً مُرهقاً، وكانت له بالمصادر القديمة ألفة طويلة، يلتقط ما هو أخفى من هذه العبارات المعاصرة الفعّية. هناك كلمة مثل: «أرجوك»، والكلمة لها اشتقاقات قديمة وراسخة؛ إلا إنه يوضح أننا لن نجد في نص قديم من يستفتح الطلب بالمصدر رجاء؛ كما نفعل الآن. وقد تكون كلمة «نشدتك الله» أكثر دقة على لسان الأبطال في الدراما التاريخية.

وفي أحد أعماله التاريخية تصرّف المخرج في أحد المشاهد لضرورة إنتاجية، فاستعمل الممثل كلمة «يا أبي»، ويعلق وليد سيف أنه لا غبار على الكلمة، ولكنه ما كان ليكتبها أبداً؛ فالأقرب إلى الأساليب القديمة أن يقال: «يا أبتٍ»؛ فهي أكثر انسجاماً مع لغة النص. ويرى كاتبنا أنه يمكن استعمال المفردات الغريبة شريطة دمجها في السياق؛ فمثلاً كلمة «ورهاء» يكفي أن ترد في سياق الشتيمة: أيتها الحمقاء، الخرقاء، الورهاء

! والسياق هنا يتكفل بالإضاءة على دلالة المفردة. ولو أنه أنطق شخصياته في مسلسل التغرية بالفصحى، لأفسدت صدقيتها، وقدرتها على الإقناع. لكن، ليس بالأسلوب اللغوي وحده يقوم الأدب السردي الدرامي؛ فهناك المعالجة الدرامية، وإذا كان الصراع عنصرًا أساسيًا؛ فإن هذا الأمر لا يتحقق بالشخصيات المسطحة ذات البعد الواحد. وهنا يتساءل سيف: «كيف يتطور الصراع إذا استقرت الشخصيات من أول العمل إلى آخره على بعد واحد؟ فهي في آخر أمرها؛ كما هي في أوله؛ فإما شرٌّ مطلق، وإما خير مطلق». ولقد سرّه دائمًا أن يرى الناس تختلف في تقويم الشخصيات الأدبية والتاريخية التي يكتب عنها، وكلُّ منهم يأتي بحُجّة لها أو عليها.

يشرح وليد سيف أسئلة الدراما التاريخية التي تُواجهه من يسير في درب هذا النوع من الكتابة، ويشرح لنا الأفكار التي تشكّلت لديه عن تجربة عبد الرحمن الداخل، وكيف حقّق الداخل حلمه العظيم، لكن الثمن الأخلاقي كان فادحًا. وهكذا تتحول أسئلة صواب الحدث التاريخي أو خطأه إلى أسئلة وجودية من نوع أسئلة المصير، والحرية، والإرادة، والسلطة، والتدافع، الإنساني، والتنازع بين الضرورة والأخلاق.

ويشرح لنا عملاً قديمًا كتبه في مطلع الثمانينيات عن الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد، أحد أصحاب المعلّقات الشهيرة، والذي انقصف عمره في ريعان شبابه مصلوبًا على جذع نخلة في موطنه في هَجَر والبحرين، بأمرٍ من عمرو بن هند، ملك الحيرة، لعامله على تلك الديار؛ ولذلك لُقّب طرفة بالغلام القتل، وهو شاعرٌ يمكن أن تُجمّع أخباره في بضع

صفحات، لكن المعالجة الدرامية التاريخية تقتضي الكشف عن مفاتيح الشخصية. وقد تبين للكاتب ولید سيف أن أزمة طرفة الوجودية هي التنازع الأبدي بين فردية الإنسان وانتمائه الجمعي؛ وهي مسألة تتعلق بسؤال الحرية. لقد ضاق طرفة بتقاليد القبيلة وإملاءاتها التي تقيد حريته؛ فغلَّبَ حريته الفردية، وجازف بتلقّي العواقب.

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخُمُورَ وَلَذَّتِي

وَيَتَبِعِي وَإِنْفَاقِي طَرَفِي وَمُثْلِدِي

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا

وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعْبَدِ

يحلّق بنا ولید سيف في قصة حياة طرفة، وسعيه لفهمها، وقصة موته؛ ذلك أن الكتابة التاريخية هنا تصبح قراءة بعيون الباحث المدقق، ونقلًا للأحداث الصغيرة إلى إشكاليات قد تتكرّر مع أشخاص آخرين في أزمنة أخرى مختلفة. ويشير أيضًا للمصعوبات التي تُواجه الكتابة التاريخية من على صعيد ضعف الإمكانات؛ فقد عُرض عليه كتابة وثائقي عن صلاح الدين شريطة إزالة المعارك من النص؛ تجنبًا لضخامة التكاليف، لكنه رفض العرض وهو يُفكّر: كيف يكون هناك صلاح الدين بلا حطّين، حتى أذن الله بتحقيق أمنيته بعد ثمانية أعوام من هذا الموقف؛ فكان مسلسل صلاح الدين الأيوبي فاتحة تعاونه مع المخرج السوري الراحل حاتم علي.

ويحكى لنا سيف أنه لم يخل عملٌ من أعماله الدرامية من مواقف وجد نفسه يتماهى مع أبطالها، ويستحضر فيها شيئًا من مزاجه وتجاربه الشخصية والوجدانية؛ ففي مسلسل صلاح الدين الأيوبي توقّف في

مرحلة الكتابة عند علاقة صلاح الدين الأيوبي بعمّه شيركوه الذي قدّمه على أبنائه. وجد كاتبنا نفسه يستحضر علاقته بعمّه محمود؛ فألقى على معالجته لذلك الجانب من القصة قبساً عاطفياً من حياته، أو أنه عندما كتب أحد المشاهد في مسلسل ربيع قرطبة؛ وهو المشهد الذي يترافع فيه محمد بن أبي عامر أمام صُبح؛ أمّ ولد الخليفة الحاكم المستنصر؛ فقد كان يتحدث بلسان هؤلاء الذين يجدون في الحلم والخيال فرصةً للابتعاد عن إثم الجوارح. وثمّ أثر من سيرته الذاتية، وسيرة أسرته في بناء شخصيات مسلسل التغريبة الفلسطينية؛ فلقد عانت أسرة جدّه في باقة الشرقية من بعض ما عانت منه أسرة صالح الشيخ يونس (أبو أحمد) في المسلسل. وهكذا تنبّط حياة الكاتب وسيرته في نصّه السردى؛ فيوزّع نفسه في نفوس كثيرة من أبطال عمله الأدبي والدرامي. يوجز لنا وليد سيف تجاربه مع هؤلاء الشخصيات، قائلاً:

«غزوتُ إذ غزا أمير الصعاليك عروة بن الورد، وبكىْتُ إذ بكى الخنساء أخاها صخرًا، وأعقبنى البكاء فرجًا، وصعدتُ مع شجر الدر إذ صعدت ولم أهبط معها إذ هبطت، وصحبتُ صلاح الدين الأيوبي في تحرير القدس؛ فنلتُ حظًا من مغامر نصره في حياتي الشخصية، وقطفتُ في ربيع قرطبة بعض ما قطف المنصور بن أبي عامر دون أن أبيع رُوحى لشيطان السلطة العويّة، وخرجتُ من عصر الطوائف بخير مما خرج به المُعتَمِد بن عبّاد إلى منفاه البئيس في أغمات! بل تقلّب مصيري مع تقلّب مصائر هؤلاء وغيرهم».

(١١) حكايات الآغا خان: ترند الخمسينيات

تنتشر الأخبار عن صفقة طلاق بيل جيتس، ومقدار الثروة التي ستؤول إلى زوجته؛ وتقدر بـ ١,٥ مليار دولار، وقبلها انشغل الناس بطلاق عملاق «أمازون» جيف بيزوس؛ ومقدار ثروة زوجته. وهكذا لكل عصر أغنيائه، وقصص حياتهم التي تشغل الناس. الكتاب الذي بين يدي هو مذكرات الآغا خان الثالث، زعيم الفرقة الإسماعيلية، الذي كان حديث المجتمع في الخمسينيات بسبب ثروته ودوره السياسي.

عاش ثمانين عامًا؛ وُلد في كراتشي عام ١٨٧٧، وتوفي عام ١٩٥٧. يحكي في الكتاب عن حياته. الهاجس المستمر في الكتاب؛ هو أوجه الاختلاف بين العالم الذي وُلد فيه، وقضى فيه شبابه؛ أي قبل الحرب العالمية الأولى، وبين حالة العالم في الخمسينيات من القرن العشرين حينما كتب مذكراته. كتب سيرته بسبب انتشار أخباره، وكثيرٌ منها غير صحيح؛ حتى إنه أصبح في زمنه في الأربعينيات والخمسينيات أسطورة، وحكاية عن رجل ثري يجوب العالم. وبسبب الأوهام الضخمة، والتقديرات المبالغ فيها لثروته الخاصة، وثروة عائلته، أراد أن يحكي روايته عما عايشه.

لقد كانت حياة آغا خان جسرًا يصل بين عهود مختلفة. عندما كان شابًا جلس إلى جانب الملكة فيكتوريا في حفلة عشاء، وتحدث إليها طيلة الحفلة، وفي آخر حياته عندما كان يكتب سيرته، جلس مع الملكة إليزابيث، وفي شبابه تعرّف إلى اللورد كليفن؛ أحد أهم الفيزيائيين في

العالم، وقال له الفيزيائي القدير بوقار وترو: «إن الطيران يُشكّل استحالة مادية بالنسبة للبشر»، وحتى هـ.ج. ويلز الكاتب البريطاني في كتابه المبكر توقعات؛ توقع أن الطيران، واكتشاف الطاقة الذرية سيتأخر قرنين أو ثلاثة، وقد خالف الواقع كل هذه التوقعات.

يبرع آغا خان في وصف التبدلات التي حدثت في عالمنا بين شبابه والشيخوخة؛ لقد زاد متوسط عمر الإنسان بنحو عشرين عامًا، وتأخرت شيخوخة النساء، وانتشر تحديد النسل في نهاية عمره؛ مقارنةً بتسعينيات القرن التاسع عشر، حين كانت الأسرة تتكون عادة من سبعة أولاد أو ثمانية. في شبابه كانت إنجلترا سيدة العالم، والإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وكانت أمريكا لا تزال في عزّلتها قبل أن يسمع العالم صوت قنابلها في الحرب العالمية الثانية التي افتتحت عصرًا جديدًا؛ تراجعت فيه هيمنة بريطانيا وحلّت بدلًا منها الولايات المتحدة، وفي شبابه كانت فرنسا العدو التقليدي لإنجلترا، بينما كانت ألمانيا الصديق الوحيد المحتمل في أوروبا.

الذكرى الأولى لطفولته هي صورة جدّه زعيم الطائفة الإسماعيلية، الرجل المسنّ، كليل البصر؛ ممطيًا صهوة جواد عربيّ أشهب؛ يُراقب صفًا من جيادٍ أخرى تعدو في تدريبها. ويحكّي عن طفولته في مومباي، لكن مومباي أواخر القرن التاسع عشر التي يجكي عنها في الكتاب، أصبحت مدينة مختلفة عن الوقت الذي كُتبت فيه المذكرات في نهاية الخمسينيات، وأكثر اختلافًا في زماننا. كانت مومباي التي وُلد فيها آغا خان جزءًا من الهند البريطانية، وكان لها تراث وثيق الصلة ببريطانيا،

وألحقت بممتلكات التاج البريطاني جزءاً من مهر زواج ماري أوف مودنيا من تشارلز الثاني.

كان آغا خان رقيقاً نحيفاً في طفولته، وقد تنبأ عددٌ من الأطباء الإنجليز، بإجماعٍ كثيب، بأنه لن يعيش حتى يبلغ الخامسة والعشرين. كانت سنوات طفولته كاتبنا عسيرة من نواحٍ عديدة؛ بل خشنة وقاسية؛ لأنه في طفولته تم تدريبه على أن يعي ميراث الزعامة الروحية التي لديه؛ لذلك خضع إلى تعليم مكثف طوال الوقت، وتدريبات بدنية؛ مثل ركوب الجياد، وتعلم الخط، ودراسة اللغة العربية والفارسية، وتعلُّم الإنجليزية على يد أساتذة يسوعيين. وحتى في غير أوقات الدراسة كان عليه أن يستقبل ضيوفاً أتوا لزيارته، وغالباً يأتون في وقت الفراغ القليل الممنوح له، وكانت أمه تحب الشعر، وتتلو أبياتاً لابن الرومي، وكانت ضليعة في الأدب الفارسي والعربي، وحتى عندما بلغت التسعين كانت لا تُخطئ في اختيار المقطوعات الشعرية، من أشعار الشعراء العظام؛ كحافظ، والفردوسي، وحتى الشعراء المغمورين.

يكتب آغا خان عن أوجه الاختلاف بين أواخر القرن التاسع عشر، وحياته في القرن العشرين. يصف حياته وهو شاب؛ حيث حل ضيفاً معظم الوقت على أسر ملكية في دول العالم، ويصف لنا انتشار حفلات المسرح، والأوبرا التي كانت تُقام بكثرة. ملاحظات آغا خان عن حالة العالم قبل الحرب العالمية الأولى، تذكرنا بمذكرات عالم الأمل، للأديب النمساوي ستيفان تسفايج؛ حينما وصف ازدهار الفنون في فيينا، وحالة الأمن التي نعمت بها أوروبا قبل الحرب.

عاش آغا خان عصر الاستقرار النسبي والأمان؛ ففي عام ١٩٠٠ كان نصف قرن قد انقضى على ثورات ١٨٤٨، وكانت البحار تخضع لسيادة بريطانيا، ووصلت الإمبراطورية البريطانية إلى أوج تألقها. في هذه الفترة ارتحل إلى أوروبا: إلى لندن وباريس وروما وبرلين، وأحياناً مونت كارلو ونيس، ذكريات اجتماعية، وليالي أنس انتهت مع بداية الحرب العالمية الأولى. في نيس، رأى الجالية الأرستقراطية الواسعة الثراء؛ مثل الإمبراطور فرانز جوزيف، وعشرات الأمراء الروس والأرشيذوقات النمساويون في فيلاتهم وقصورهم، والأمراء الإنجليز مع رجال الأعمال والصناعة، والطبقة الغنية في الإمبراطورية النمساوية-المجرية؛ مما أذهل الشاب القادم من مومباي، وألقى في قلبه الرّوع والرّهبة.

اهتم التاج البريطاني بآغا خان، وتواصلوا معه منذ طفولته؛ حتى يضمّنوا علاقة طيبة للطائفة الإسماعيلية بالحكم البريطاني، وفي الكتاب تفاصيل كثيرة عن رؤية آغا خان للاحتلال البريطاني؛ فهو رجل يميل إلى التسويات، وحديثه عن بريطانيا لن يروق للقارئ المؤمن بالاستقلال الوطني، لكنها شهادة من شخص عايش هذا العصر، وله رأي بخصوص تبدل معاملة بريطانيا للهنود؛ مما أدى إلى ظهور غاندي، ونزعة القومية الهندية. وفي الكتاب تفاصيل كثيرة عن الهند والاستقلال وظهور باكستان. تعود علاقة الإسماعيلية ببريطانيا إلى جده آغا خان الأول؛ إذ قدم مساعدات لبريطانيا في التوسع شمالاً وغرباً من البنجاب، وكذلك ساعدتهم في المراحل الأخيرة من حرب بريطانيا ضد الأفغان عام ١٨٤١.

يصحبك آغا خان في الكتاب؛ ليعرّفك بالأدباء الذين التقاهم؛ مثل الكاتب مارك توين الذي أمضى بصحبته أصيلاً كاملاً؛ انتهى بتناول

العشاء معه في فندق «واطسون» في مومباي حيث كان يقيم؛ يصفه آغا خان بقوله: «كان مارك توين ذا شخصية ساحرة مبهجة، وذا لطف بالغ أسرني أنا الولد ذو الذهنية الجدية»، ويكمل: «لقد بدا لي لطيفًا، عزيزًا وقدّيسًا، وحزينًا متواضعًا جدًا بالرغم من أنه كان ذلك العبقرى ذائع الصيت».

زار آغا خان مصر ووقع في سحرها، وظل طيلة حياته يحتفظ لمصر بزاوية خاصة في قلبه، وظل يعود إليها كلما وجد إلى ذلك سبيلًا، والتقى في زيارة لمصر اللورد كرومر، الذي كان في أوج سلطانه آنذاك، لم ينزعج آغا خان من الاحتلال البريطاني؛ بل لام النخبة المصرية على أن لديها هوى فرنسيًا، وأنها ترغب في خروج الاحتلال البريطاني، وعلى أنها محافظة ومغلقة. وتمنى وجود جامعة مثل عليكرة في القاهرة. وزار آغا خان سوريا للاطمئنان على أهل الطائفة الإسماعيلية في منطقة السلمية والخابي عام ١٩٣١، ودشن المدرسة المحمدية هناك، وفرح بمشاركة المرأة في المجتمع، وبخلع الحجاب، ونزولها إلى العمل، وأظهر عاطفة وعلاقة قوية مع الدروز.

كذلك زار آغا خان إسطنبول، واستضافه السلطان عبد الحميد الثاني في فندق «بيرابالاس»، وكانت له مقابلة طويلة معه في قصر يلدز. بدا للبعض أن هذا الاجتماع ينطوي على دراما غريبة؛ لأن عبد الحميد كان يعيش وقتئذٍ الخوف من الاغتيال؛ كان السلطان مدمنًا للتدخين، وكان آغا خان يعاني حساسية من التدخين، وكانت سُحب الدخان تطفو فوقهما، وأغلقت الغرفة، وحضر مترجم؛ لأن آغا خان لم يكن يعرف التركية، ورفض عبد الحميد أن يتحدث العربية أو الفارسية.

جلس آغا خان أمام السلطان الذي ارتدي ثوبًا فضفاضًا، وأدرك أن السلطان يُخفي تحت أثوابه سلاحًا ما، وأن أثوابه كانت من النوع الذي لا يخترقه الرصاص. انبهر آغا خان من عناية السلطان عبد الحميد بالمظهر؛ حيث صبغ لحيته بالصباغ الأسود، وكانت شفاته مصبوغتان باللون القرمزي، ووجنتاه باللون الأحمر، لم يكن هذا المكياج تعبيرًا عن تخنث؛ ذلك أنه كان كامل الرجولة إلى أبعد ما يكون. استمر الحديث الودي بين آغا خان وبين السلطان عبد الحميد الثاني، ويذكر آغا خان أن السلطان عبد الحميد تأثر لكون الآغا يملك عن طريق كاشغر معلومات حديثة موثوق بها عن مسلمي الصين الغربية. أراد السلطان عبد الحميد أن يطمئن على الطعام الذي يُقدَّم لآغا خان؛ فأمر بإرسال الطعام من القصر إلى الفندق، ويفسر آغا خان هذا التصرف بأن عبد الحميد كان مهجوسًا بالخوف من التسمم، ولعله خشي أن يُغتال الآغا في زيارته لتركيا.

تعرف آغا خان إلى مشاهير عصره؛ فتعرف على تشرشل، وعلى والدته؛ الليدي راندولف تشرشل في مناسبات عديدة. وعندما يصف آغا خان تشرشل يقول عنه: «يجمع السير تشرشل في شخصيته القوية بين خصلتين، هما في العادة متعارضتان؛ فهو الرومانسي ذو العاطفة العميقة والشعرية للتاريخ، وهو الإستراتيجي ذو الإحساس العام»، وفي أحد مرات النقاش حول الحرب العالمية الأولى، قال تشرشل لآغا خان بخشونة: «إن تركيا ستكون هدية المنتصر؛ فقد كانت رجل أوروبا المريض».

يصف آغا خان في سيرته حالة الصين عندما زارها في بداية القرن العشرين؛ حيث كانت الإمبراطورة العجوز تعيش في بكين في عزلة

داخل قصرها الصيفي الواسع؛ بينما كانت إمبراطوريتها تنهار وتختبط في الفوضى والانحلال؛ حيث كانت الجاليات التجارية الأجنبية الأوروبية تُفيد من الامتيازات، في مدن مثل شانغهاي. وكان حكام الصين الحقيقيون في تلك الأيام هم قناصل الدول الأوروبية، ليس هذا فحسب؛ بل إن الفنادق الممتازة ترفض قبول الصينيين؛ إلا في أجنحة أعدت خصيصاً لهم، وكذلك كان الحال في المطاعم.

يزخر الكتاب بأوصاف الدول والمدن التي زارها آغا خان؛ مثل نيويورك التي وجد الكثير من بيوتها أقرب إلى أن تكون متاحف، كما زار جزيرة هاواي، ورأى الحياة فيها قبل أن تكون مقصداً للسباح من دول العالم. وزار روسيا، وبطرسبرج التي قال عنها إن حياة الأرستقراطية الروسية فيها فاقت حياة أغنياء إنجلترا، والكثير من دول أوروبا، ورغم ذلك كانت روسيا من أكثر الدول التي شعر فيها بالهوة الساحقة بين الأغنياء والفقراء؛ بل إن عمال موسكو كانوا أفقر من عمال ممباي، ولعل هذه الهوة أسهمت في تسريع حدوث الثورة الروسية.

أسهم آغا خان في دعم المجهود الحربي البريطاني، وكان من أوائل من دعا إلى تجنيد الهنود في جيش الإمبراطورية، وعندما شاركت تركيا في الحرب العالمية الأولى، ودعت المسلمين لمساندتها ودعمها، وقف في وجه هذه الدعوات، وعدّ الدعاية للجهاد العثماني نوعاً من الاستغلال الألماني لهم. كان موقفه موالياً لبريطانيا، لكنه في الوقت نفسه لم يفصم عرى الود بينه وبين الأتراك؛ فقد التقى توفيق باشا المقرَّب من ضباط الاتحاد والترقي؛ محاولاً تجنيب تركيا دخول الحرب. هكذا ظل حاضراً في الملفات الدولية من خلال التسويات والدبلوماسية. ومن يقرأ

المذكرات سيرى أن شاغله الشاغل وهمّه الأكبر كان الحفاظ على مصالح الطائفة الإسماعيلية حول العالم؛ من خلال الارتباط بمصالح بريطانيا، والقوى الكبرى. وكل شيء فعله أو سعى إلى فعله كان ثانويًا بالضرورة، مقارنةً بهذا الهدف الذي يذكره صريحًا في المذكرات.

يذكر آغا خان في الكتاب طرفًا من الحكايات عن هوايته المفضلة؛ تربية الخيول، والمشاركة في المسابقات العالمية. ونجد في المذكرات ذكرًا للقاءاته مع مشاهير عصره؛ مثل الخديوي عباس حلمي الذي نُفي من مصر، وجمعيته صداقة به. وكذلك لقاءه مع الروائي مارسيل بروست، والممثل شارلي شابلن، والكاتب سومرست موم الذي كتب مقدمة المذكرات.

ظلّ آغا خان حديث الناس فترة طويلة؛ خصوصًا صورته التي اشتهرت، وأمامه وزنه ذهبًا في الهند، وقد كثر الفعل نفسه في إفريقيا؛ مما دفع أدينا أحمد حسن الزيات إلى كتابة مقال في ذمّ تصرفاته عام ١٩٤٥ في مجلة الرسالة، وذكر فيه القراء بثروة الآغا خان، وحالة الفقر التي وصل إليها الشاعر العراقي الرّصافي. كتب الزيات: «حظّك يا معروف الرصافي هو حظّ الأديب منذ كان في الناس أدباء، وفي الأرض أدب! يموت أمثالك شرقًا بالبؤس؛ كما يموت أمثال آغا خان غربًا في النعمة! فلو أن ربك حقق لك ما كان يرجوه شيخك الألو سي من رسوخ قدمك في الدين، وعلوّ منزلتك في التصوف؛ إذن لخلفته في الزعامة الدينية، وبلغت من (طريقتك) ما بلغ آغا خان في الدنيا، ونلت من (صوفيتك) ما نال معروف الكرخي في الآخرة». وكتب العقاد مقالةً عن سرّ اختيار آغا خان أسوان ليدفن فيها بعد أن توفّي في سويسرا عام

١٩٥٧؛ ففي أسوان لقي آغا خان الشفاء من علّة ألّمت به على يد رجل صوفيٍّ من النوبة؛ فقرر أن يبني لنفسه ضريحاً فيها. وهكذا شغل هذا الزعيم الديني، والرجل الثري، والسياسي، عقول الأدباء والصحفيين؛ بل تُرجمت مذكراته في وقتٍ مبكر، وظهرت مقالات عن زوجته أمّ حبيبة، وتُرجمت مذكراتها إلى العربية.

كانت حياة آغا خان عريضة وملينة بالترحال والمشاريع والسياسة؛ فقد وصل إلى منصب رئيس عصبة الأمم في نهاية الثلاثينيات، وكما يعبر عن نفسه: «يمكنني القول صادقاً كلّ الصدق: إن السّأم لم يتسرب إلى نفسي لحظةً واحدة طوال حياتي المديدة»؛ وسرُّ ذلك أن عقله كان دومًا مشغولاً بما هو خارج ذاته من مهام؛ مما جعل السّأم والاكتئاب لا يهتديان لنفسه سبيلاً.

(١٢) أنيس صايغ عن أنيس صايغ: حكايات كاتب مناضل

«لم يجد من يكتب عنه؛ فكتب عن نفسه».

يفتح أنيس صايغ سيرته الذاتية بهذه العبارة التي قد يطلقها بعض الساعرين منه. يكتب أنيس صايغ قصة حياته رغم أنه شخص عادي؛ هكذا ينظر لنفسه؛ فلقد سُخِّرَت الأقلام للكتابة عن العظماء والأبطال، ومحققى المعجزات، ونائلي الجوائز؛ في السياسة، والحكم، والثقافة، والعلم، والفن، وجمع الثروات. وهو ليس واحدًا من هؤلاء؛ إذ لم يقطع بحر المانش سباحةً، ولم يهبط على سطح القمر، ولم يتسلق قمة إفرست، ولم يحصل على أوسكار أو نوبل أو بوليتزر، ولم تتجاوز اهتماماته الحياتية دائرة الكتابة وعالم السياسة.

أحجم أنيس صايغ طيلة عقدٍ من الزمن عن الاستماع لنصائح أصدقائه وبعض القراء وتلبية مطلبهم بكتابة سيرته الذاتية. كان يقول عن حياته: «ربما كانوا مخدوعين ببريق في مظاهر حياتي يحاول أن يخفي عتمة هذه الحياة»، وكان يتهزّب من إلحاحهم بتحريض الآخرين من المؤلفين والساسّة على كتابة مذكراتهم، وتدوين سيرهم الذاتية. ويزهو بأن العشرات من كُتِب السير التي صدرت؛ إنما تدين له بالخصّ والتحريض.

سقط هذا التمتع فجأة حين سمع ابنة صديقه؛ طفلة في حوالي العاشرة، تسأل والديها عن يكون عمو أنيس وماذا عمل ويعمل؟ تلثم

الوالد، وأحال ابنته إلى أنيس، وسألت الفتاة: «هل أنت دكتور؟» فقال: «كلاً». قالت: «إذن معلّم؟» فهزّ رأسه بالنفي. قالت: «مهندس؟ ضابط؟ تاجر؟» والتبس الأمر عليها، وأخذ أنيس يمازحها حتى نسيت السؤال، وتخلّت عن حشريتها، وأخذ الموضوع يثير حشرية أنيس؛ هكذا ببساطة وعفوية قرر أن يسجل حياته، وقد لامس الخامسة والسبعين؛ فيعرّف الناس بنفسه، لعله يتعرّف على نفسه.

سيرة أنيس وادعة لا تنتهج طريقة تجريح الآخرين، وذكر المثالب بالأسماء والشخصيات؛ فهو لا يحب الدخول في المعارك، وهي على العكس من سيرة الكاتب عبد الرحمن بدوي الذي يقول فيها للأعور أنت أعور، أما أنيس؛ فيرى أن المطلوب هو تأريخ الأحداث، وليس مدّ أصابع الاتهام؛ ويفلسف ذلك بأن حياة الإنسان، كل إنسان، مليئة بالمجابهات السلبية مع غيره؛ ما دام هو قد صرف أيامه يعمل ويتنح ويتحرك. والإنسان الكبير هو الذي يستطيع أن ينظر إلى تلك الوقائع الماضية نظرات مُنصفة وعادلة، مُنزّهة عن الأهواء والضغائن والأحقاد.

يحكي لنا طفولته، وأجواء الأسرة، وقصة تعارف والدته ووالده، الفصل الأول المعنون: «في المنبت» عن حياة الطفولة، وطبيعة الأسرة، وقصص إخوانه، وطريقة عيشهم، وقد تحولت أسرة والدته من الكاثوليكية إلى البروتستانتية؛ التحول الذي يعدّه الكاثوليك ضلّالاً، ويعدّه الإنجيليون اهتداءً.

يقص علينا قصصاً عن قوة شخصية والدته عفيفة البتروني، وعن تدين والده القسيس عبد الله الصايغ الذي التحق بكلية اللاهوت الموجودة في

القدس؛ مفضلًا إياها عن كلية اللاهوت البيروتية لمواصلة دروسه؛ رغم أنها بعيدة نسبيًا؛ إلا أنها أكثر تمسكًا بالتفسير والقراءات والاجتهادات التقليدية، وكانت تلتزم بالآراء المحافظة. كان والده يأبى مجارة القُسس في وضع الياقة البيضاء حول العنق، والروب الأسود أثناء خدمة العبادة في الكنيسة، واحتفظ بملابسه العادية كأبي رجلٍ مدني في المجتمع، وكان لوالده موقفٌ نقديٌّ من تمجيد الصليب؛ إذ رآه رمزًا لا يجوز تبجيله، ولا التفتُّن في صنعه وترصيعه بالجواهر. وكان والده يسخر من الكنائس الأنجليكانية في بريطانيا؛ لأنها تستعمل لنوافذها زجاجًا ملونًا، أما كنيسة والده في طبريا؛ فكانت فارغة تمامًا إلا من المقاعد والمذبح وصليب صغير، وكانت جدرانها عارية من أي صورة، أو تمثال، أو أيقونة، أو زينة.

عندما كتب أنيس سيرته وأهدى نسخة إلى عزمي بشارة؛ تحدثنا بتوسع عنها، وتعهَّد بشارة أن يكتب عنها، وعن سيرة شفيق الحوت؛ لأنه وجد مشتركًا قيمًا وإنسانيًا واسعًا بين أكثر شخصين اختلفا في الطباع الشخصية. وقال له حينها عبارة هي موضع الشاهد؛ جملة فرح بها أنيس، لكن بشارة قصد فعلاً أن يطرح موضوعًا ما زال يشغله، وما زال يفكر به، كمعضلة فكرية للنقد الأدبي قال: «لماذا كتب الكبار عن طفولتهم يخرج من بين أيديهم أدبٌ من دون أن يدروا». (وأنيس كبير، ولكن بشارة يقصد هنا كبير السن تحديدًا). ونجد بشارة يوضح ذلك بالقول إنه يشعر أنه يقرأ أدبًا جميلًا كلما قرأ الفصول الأولى من مذكرات أمثال كمال الصليبي، وشفيق الحوت، وأنيس الصايغ، وأحمد الخطيب وغيرهم. وينصحنا بشارة بمراجعة تلك الفصول الأولى عن طفولتهم؛ «فهي ليست

كسائر أجزاء الكتاب؛ إنها أدب جميل، بكل تعريف للجمال في الأدب». (في ذكرى أنيس، عزمي بشارة).

وُلد والقلم بين أصابعه

وصف أحد الكتّاب أنيس بأنه وُلد والقلم بين أصابعه؛ ولعل في التعبير المجازي بعض الحقيقة؛ فأنيس لم يُقِم في حياته بأي نشاط، إلا وكان القلم أدواته الأولى، وكانت الكتابة هي الوسيلة، وهو يُعرِّف نفسه في سيرته بأنه كاتب، ولا يعترف بمهنة إلا مهنة الكتابة؛ حتى عندما درس في بعض الجامعات في فترات متقطعة بقي يحوم في سماء الكتابة، ويعوم في بحار الحبر والورق.

يعترف كاتبنا أنه كره الدرس من موقع الطالب، كما كره التدريس طيلة حياته؛ بل إنه يعترف أن أبشع ذكرياته هي تلك المتعلقة بالتلمذة والأستاذة في المدرسة والكلية والجامعة، وأن معاهد التعلم والتعليم كانت أبشع الأماكن التي اضطرَّ إلى التردُّد عليها، وأن انقضاء ساعات التدريس اليومية كانت أجمل لحظات النهار؛ فقد كان يلمس شعور الطلبة بالملل والشروود والنُعاس فيما هو يحدثهم عن تاريخ لبنان.

بعد التخرج في الجامعة ١٩٥٣، وحتى التحاق أنيس بجامعة كمبودج ١٩٥٩، أصبحت الكتابة شغله ومصدر رزقه، كان أعزب وقيم مع أسرته، وكانت نفقاته مخصّصة لبنود ثلاثة فقط: تذاكر السينما، واقتناء الكتب، وشراء ربطات العنق. وكانت هذه الثلاث هواياته الوحيدة تقريبًا. وفي صيف العام ١٩٥١ نال أول مكافأة في حياته عن عمل ثقافي قام به؛ بتكليف من الدكتور عزت طُئوس؛ المناضل الفلسطيني الذي أسس

«المكتب العربي الفلسطيني»، وطلب من أنيس أن يعدّ قائمةً شاملة بمصادر القضية الفلسطينية؛ مراجعها ووثائقها؛ فقام بالعمل، وهو يظن أن إسهامه مجاني؛ لكنه حصل على حوالة بمبلغ ألف ليرة لبنانية، وكان مبلغًا سخياً بحسابات ذلك الزمن.

يروى لنا أنيس قصة طريفة عن اضطراره لترجمة بعض الكتب التي لا تروق له بسبب الحاجة للمال، ثم بحثه عن حلٍّ يدرُّ عليه المال؛ فنصح أحد الناشرين في بيروت، بأن يكتب موسوعة جنسية بعنوان جذّاب ورصين، وأسمائها دائرة المعارف الجنسية، وإن اعترف بأن خبرته في هذا المجال ضعيفة، ولخجله من وضع اسمه على هكذا كتاب وضع عليه اسمًا مستعارًا.

في عام ١٩٥٩ تزوج من هيلدا، وسافر إلى كمبردج، ويصف هذه السنوات الخمس في كمبردج بأنها كانت أجمل سنوات حياته؛ ويُرجع الفضل في ذلك إلى المدينة وطبيعتها وناسها ومناظرها وتقاليدها وفنونها، وكان يُدرّس الطلاب الدراسات العربية؛ وهم من النوع الذي يطمح في العمل في مجالات تتطلب معرفة العرب والعربية؛ كالسلك الدبلوماسي والشركات العالمية؛ لذلك كان يمازح طلابه ويسمّيهم جواسيس المستقبل، وكان يذكرهم بقصة المستشرق بالمر؛ وهو من أوائل أساتذة الدراسات الشرقية في كمبردج؛ قتله الوطنيون في سيناء عام ١٨٨١، بينما كان يتجول في ديارهم؛ بحُجّة البحث عن الآثار، مُتهمين إِيَّاه بالتجسس.

بل إن الدبلوماسي الصهيوني أبا إيبان، الذي أصبح فيما بعد وزيراً لخارجية إسرائيل، قد شغل المنصب الذي شغله أنيس قبله بعشرين سنة؛

إذ كان أبا إيمان يتقن العربية، وهو الذي ترجم توفيق الحكيم إلى الإنجليزية. وتشاء الصدف أن يحصل أنيس على مكتب شغله قبله بسنوات طلاب الدراسات الشرق أوروبية، وكان منهم أربعة ثبت فيما بعد أنهم كان يتجسسون لصالح السوفييت ضد بريطانيا، واشتهر أحدهم؛ وهو كيم فيلبي، الذي فرّ من بريطانيا إلى لبنان، ومنها إلى موسكو، وهو ابن المستعرب البريطاني سانت جون فيلبي؛ الذي أسلم وعُرف باسم الحاج عبد الله فيلبي. ويحكى أنيس أنه التقى كيم عدة مرات، وأنه كان من أنصار هتلر، ويعارض سياسة بلاده الخارجية المحابية للصهيونيين.

كان الطلبة الذين درّسهم في كمبردج بريطانيين اللهم إلا واحداً؛ هو الأمير رعد بن زيد بن الحسين الهاشمي؛ الذي تولى منصباً في القصر الملكي في عمان. ومن خلال معرفته بالمستشرقين والمهتمين بالدراسات العربية في بريطانيا أخبرنا أنيس الصايغ أنه باستثناء دنس جونسون دافز، لا يعرف مستشرقاً بريطانياً واحداً يستطيع أن يقول عنه إنه يتقن العربية؛ كما يتقن أحدنا الإنجليزية، وديفز هو الذي ترجم العديد من روايات نجيب محفوظ إلى الإنجليزية.

يروي صايغ في الكتاب ملابسات تأليفه العديد من الكتب؛ مثل لبنان الطائفي، والأسطول البحري الأموي في البحر المتوسط، ويروي كذلك ظروف كتاباته عن الهاشميين، ومنع كتبه في الأردن، ومنعه من دخولها. ثم يأخذنا في جولة للتعرف على تجربته في العمل في «مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، حيث استلم العمل في مركز الأبحاث يوم ١٩٦٦/٨/٧، واستمر فيه مدة عشر سنين؛ ذاب المركز فيه مثلما ذاب فيه، وتحول لناسك في صومعة مركز الدراسات، وأصبح المركز في عيون الناس هو

أنيس صايغ، ويُقدّم لنا تجربته الثرية في العمل رئيسًا لتحرير لعدد من المجلات؛ فقد رأس تحرير عدد من المجلات الرائدة (شئون فلسطينية، وشئون عربية، والمستقبل العربي، وقضايا عربية وغيرها)؛ فضلًا عن دوره المهم في الموسوعة الفلسطينية.

هكذا نرى أنيس صايغ رجلًا لا يعرف إلا الكتب، والعمل الثقافي، والنضال؛ فقد يكتب الناس مذكراتهم، ويعبرون فيها عن بعض أشجانهم وخواطرهم النفسية، أو شيء من العاطفة، وأحيانًا اعترافات، أما هذا الرجل؛ فنراه من خلال سيرته يتعشّش بالعمل، والمشاريع الثقافية، وتحرير المجلات، وإصدار الكتب والموسوعات، والعمل من أجل فلسطين. وقد حبس كاتبنا نفسه في عالم الكتابة بكل صنوفه؛ بداية من المقالة الصحافية إلى تأليف الكتب والترجمة، وإعداد الموسوعات والقواميس، وتحرير المجلات والزوايا الصحافية، وإدارة مراكز البحوث، وتحرير ما يكتبه الآخرون؛ هذا عالمه الذي يعتزُّ به، والذي أزعج به إسرائيل؛ لترسل له طردًا بريديًا مفخخًا انفجر بيديه؛ مما أفقده جزءًا من سمعه وبصره، وفقد ثلاثة أصابع من يده اليسرى، كما تضررت يده. وفي ١٤/١٢/١٩٧٤ أطلقت ثلاثة صواريخ على مركز الأبحاث كادت تؤدي بحياته، وحياة من فيه، ولعل تجربته تستحق القراءة عنها باستمرار، ومراجعة إرثه في «مركز الدراسات الفلسطينية».

سخر إميل حبيبي من أنيس صايغ قائلًا إنه: «المثل الأعلى للمفكرين بلا فكر!»؛ وذلك أن أنيس كان يضع كلمة «إسرائيل» بين قوسين، وردّ صايغ قائلًا: «إن بصري مهما ضُغف يظل يرى (إسرائيل)؛ يراها في وحشيتها وجرائمها وألاعيبها وأكاذيبها ومؤامراتها. العينان المنطقتان

تريان (إسرائيل) أفضل مما تراها العيون السليمة المعافاة. ولأنني أرى
(إسرائيل) هكذا؛ أعدّ وجودها حالة غير طبيعية، وغير أصيلة وغير
صحيحة. القوسان ليسا عجزاً عن رؤيتها؛ بل رفض قاطع لوجودها؛
إنهما إعلان لموقف مبدئي معيّن، ثابت وحاسم، أنا - والكلام ما زال
لأنيس - لا أنكر وجود (إسرائيل) بهذين القوسين؛ بل أنكر حقّها في
الوجود؛ ولأنني أنكر حقّها في الوجود أدعو إلى إزالتها.

(١٣) صلاح الدين المنجد:

سندباد المخطوطات وعالم دمشق ومؤرخها

عندما رأيت غلاف كتاب بعنوان: لمحات من تجاربي الفكرية، للدكتور صلاح الدين المنجد (١٩١٩-٢٠١٠) صادر عن مركز تراث للبحوث والدراسات بالقاهرة؛ من تقديم د. محمد متولي، تحسّستُ لقراءته، والتعرف على عالم هذا المحقق الشهير. والكتاب في الأصل محاضرة ألقاها المنجد عام ١٩٦٢ في لبنان؛ يحكي فيها عن سيرته الفكرية.

يبدأ صلاح الدين المنجد الحديث عن تجربته بالتعليق على قول باسكال «الأنا مكروهة»؛ تلك العبارة التي يردها الناس نظراً أو تحذلقاً عندما يحلو لهم الحديث عن النفس، ويبدوون في ذمها، لكن المنجد، على العكس من ذلك، يرى أن الحديث عن النفس مُحبَّب لا بغيض؛ فالأحاديث الذاتية التي يسمعها من الناس تكشف الكثير عن أفكار النفس البشرية، ويجد فيها الإنسان مجالاً للفائدة والثراء العقلي؛ يستمدّهما من تتبُّع التجارب التي مرّت بها كل نفس.

وُلد صلاح الدين المنجد في منتصف عام ١٩٢٠، في حي القيصرية جنوب المسجد الأموي، لأسرة دمشقية أصيلة جمعت فروعها بين التجارة والعلم. وقد انحدر عالمنا من الفرع الذي مال إلى العلم، وكان والده عالماً في قراءات القرآن الأربعة عشر. تتلمذ الفتى على يد الشيخ

محمد بهجة البيطار، والشاعر الكبير خليل مردم بك، ولعل من أعمق ذكرياته، صورة قديمة في نفسه، يلمح فيها قاعة عريضة في داره، صُفَّت في جوانبها كتبٌ وكتب، وهو يرى شيوخًا يزورون دارهم؛ لا يكادون ينقطعون عنها ليل نهار، يدخلون بهدوء وصمت، ويتحدثون في العلم بأدب وأناة.

يحكي لنا كاتبنا أنه لما بلغ البكالوريا، بدأ في دراسة الأدب العربي الذي استهواه وشغله؛ فراح يحفظ الشعر، وكان لديه رُفقة يجتمع معها؛ فيتبارون في إنشاد الشعر، وهو ينهنا إلى أن الثقافة المصرية كانت هي الثقافة الطاغية على البلاد العربية قُبيل الحرب العالمية الثانية في الأربعينيات؛ حيث كانت أسماء: الراجحي، وطه حسين، والعقاد، والحكيم، والزيات، وأحمد أمين، وزكي مبارك تطلُّ وتملأ الدنيا، وكانت مجلات المقتطف، والرسالة، ثم الثقافة، ميادين رحبة لإنتاج هؤلاء، وغيرهم.

تطلع المنجد إلى أن يرى اسمه في مجلة الرسالة، وما كان أعظمها، إلى جانب أسماء الكبار، وكانت الرسالة تُصدر كل سنة عددًا ممتازًا في رأس السنة الهجرية؛ يكتب فيه الكبار في العالم العربي؛ فراح المنجد، قبل شهرين من موعد صدور العدد، يعدُّ مقاله، ويصنعه صناعة؛ كأنه حداد أو نجار؛ يكتب المقال عدة مرات، ويمزقه، ويعيده، ويعود إلى الكتب القديمة؛ ليلتقط لفظًا، أو يصطاد معنى، وبذل المنجد الكثير من الجهد؛ ليرضي ذوق رئيس تحرير الرسالة الزيات، وأرسل إليه المقالة ومرفق معها صورة له، لقد كان ناشئًا لم يُقدِّمه أحد إلى الزيات، ولم يأخذ بيده أحد، وبقي أسبوعين يتقلب على الجمر ينتظر ردَّ الزيات. وذات يوم حمل إليه البريد رسالة من الزيات، يُرَحِّب به في مجلة الرسالة،

ويعاتبه أنه أرسل صورة لنفسه في شبابه؛ فقد توقع الزيات من أسلوب المقال أنه كاتب أكبر في العمر.

كان صلاح الدين المنجد في دمشق في فترة الحرب العالمية الثانية، يرى شيوخ المجمع العلمي، الذين يسوءهم أن ينطلق شاب في الميدان الذي يجولون فيه، وبرغم أن مقالته في الرسالة كانت جواز مرور، لكنه أحس أن من يحتكرون الأدب لم يعترفوا بوجوده، وفي ثورة نفسية عارمة رأى أن ينقدهم جميعاً، وهكذا يكون النقد والهجوم عند المبتدئين وسيلة لإثبات الذات، ونشر نقدًا للجماعة الأدبية في دمشق في مجلة المكشوف اللبنانية، ونشر سلسلة مقالات بعنوان: «أعضاء مجمع لكنهم مفلسون».

في عشق دمشق

في عام ١٩٤٣ أصدر ثلاث مسرحيات صغيرة؛ بعنوان: إبليس يغني؛ وفي عام ١٩٤٤، اتخذ اتجاهًا جديدًا؛ حيث ترك الأدب إلى حين، وانصرف إلى التاريخ، فقد عُيِّن رئيسًا لديوان مديرية الآثار؛ استهوته الأعمدة، والأحجار، والنقوش، ونشأت بينه وبينها ألفة وصدقة؛ وهكذا أخذ يطوف على كل أثر في دمشق؛ في العشايا، عندما يخيم الليل، ثم يعود للكتب يبحث عن أصل هذا الأثر ومن صاحبه، وهكذا أخذ يُعمّق من قراءاته التاريخية، ويُعنى بالدقائق وبتفاصيل تاريخ دمشق.

كان يطوف بهذه الآثار ساعاتٍ بعد ظهر كل يوم؛ يستقرئ كل أثر ويحدق فيه، وينقل الكتابات القديمة التي تعلقه؛ فالماضي يضطرك في دمشق إلى أن تحسه وتعيش معه. في كل زقاق ودرب وشارع؛ تجد

مسجدًا، أو كنيسة، أو سبيل ماء، أو مثذنة ذاهبة في السماء، وهذه التجربة جعلته ينشر كتابين: خِطَط دِمَشق ومعجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق؛ وهما من أحب كتب المنجّد إلى نفسه؛ لأنه قضى في تأليفهما شهرًا طويلاً. ولقد اهتم بتاريخ دمشق، وتحقيق المخطوطات عنها؛ مثل: (فضائل الشام ودمشق، أمراء دمشق في الإسلام، مأساة سقوط دمشق وسقوط الأمويين، والمجلد الأول من كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر). ونشر سلسلة عن آثار دمشق؛ مثل (بیمارستان نور الدین، وقصر أسعد باشا).

التعرف إلى محمد كرد علي

اضطره عمله الجديد للرجوع إلى المخطوطات القديمة؛ فصار يختلف إلى دار الكتب الظاهرية؛ حيث آلاف المخطوطات، وكان يُديرها آنذاك يوسف العش، ثم تبعه عمر رضا كحّالة. وكان المنجّد يعرف رئيس المجمع العلمي الأستاذ محمد كرد علي؛ إذ سبق له انتقاده على صفحات مجلة الرسالة، بعد إلقاء كرد علي محاضرة في الجامعة السورية بعنوان مميزات بني أمية عام ١٩٤٠، وكان الزيات لا يحب كُرد علي؛ فسارع بنشر المقالة، وقد استقبل كرد علي النقد بصدر رحب، ودفعه إلى العمل دفعًا، والمنجّد يُسجّل شهادةً في حق كُرد علي عندما يقول عنه: «لم أعرف في شيوخ المجمع العلمي كلهم رجالًا؛ خلُق لي شجع، ويدفع إلى العلم والبحث، مثله؛ لقد كان أبا النهضة الفكرية في سوريا».

اجتمع كرد علي مع صلاح الدين المنجّد وهو شابٌّ، وقال له: «استفدتُ من نقدك لي في ثلاث نقاط؛ أما باقي الكلام في المقالة؛ فلا

معنى له، ثم قال له: قرأت محاولاتك الأدبية في مسرحية إبليس يغني، وأرى أن تترك هذا المجال إلى تخصص مختلف، ثم دفعه للاهتمام بدمشق وتاريخها، وقال له: «هذه مدينتك دمشق؛ يجب أن تهتم بتاريخها وعلمائها وكذا؛ إذا لم تبدؤوا أنتم؛ فمن يفعله؟ أنا ساموت؛ يجب أن تهتم أنت وغيرك بهذا الأمر، وأقول لك؛ كما قال لي الشيخ طاهر الجزائري: التراث العربي المخطوط مُهملٌ فاعتنوا به وأحيوه».

لا ينسى صلاح الدين المنجد تشجيع كُرد علي له، ودفعه إلى العمل على تحقيق كتاب رُسل الملوك لابن الفراء، وقد استعان المنجد بالأستاذ سليم الجندي وكُرد علي كلما اعترضته مشكلات في التحقيق، وعندما طُبِع الكتاب، واطلع عليه كُرد علي، أخذ يقبّل المنجد وهو فرحان، ويردّد عبارته المشهورة: «يا عيني عينك، يا عمري عمرك؛ أنت أحسن من الشيوخ»، واحتفى كُرد علي بهذا الكتاب، وكتب له رسالة رقيقة بدأها بقوله: «إلى ابني الروحي صلاح الدين المنجد». والرسالة مليئة بالمدح والتأثير بتتاج جهد صلاح الدين المنجد في تحقيق الكتاب؛ حتى إنه قال له: «لو كان في مؤلفينا الشباب كثيرون مثلك، لكانت الشام أرقى من مصر»، وظلت الصلة بينهما قائمي؛ حتى أن المنجد اعتاد زيارة كُرد علي في المجمع العلمي، أو في قريته جسرين بالغوطة.

في حدود ١٩٤٩، أخذ المجمع العلمي يفكر في تحقيق «تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، وهو أضخم تاريخ ألفه إنسانٌ في تراثنا العربي؛ حيث يصل إلى ثمانين مجلدًا، وحقّق المنجد المجلد الأول منه في ستين. ويحكي كيف كان يقضي اليوم كله والأسبوع كله في البحث عن كلمة أو جملة حرّفها الناسخ في المخطوطة.

هكذا اتصل صلاح الدين المنجّد بالمخطوطات، التي كانت خطرًا عليه؛ فالمخطوطات القديمة كالمخدرات إذا اعتادها الإنسان هيهات أن ينجو منها، وهو ينسب هذا القول لطله حسين، والمنجّد لم يدع فرصة منذ ذلك الحين إلا اغتتمها للاطلاع على المخطوطات.

الحصول على الدكتوراه والرحلة مع المخطوطات العربية

سافر المنجّد إلى باريس ليحصل على الدكتوراه وكانت رسالته عن النظم الدبلوماسية في الإسلام، إثر إصداره تاريخ ابن عساكر، وحرص على الاطلاع على المخطوطات المحفوظة في الناسيونال؛ رغم انشغاله بالتحضير للدكتوراه في الآداب والحقوق، وبعد أن عاد إلى سوريا أرسلته الحكومة في عام ١٩٥٤ إلى إسبانيا؛ ليكتشف مخطوطات الإسكوريال، والأديرة الأخرى، وطاف في الأندلس.

رُشّحت الحكومة في سوريا في عهد فارس خوري رئيس الوزراء ليكون مديرًا لـ «معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية»، وبقي فيه إلى عام ١٩٦١، ويقول عنه: «لم تصنع جامعة الدول العربية شيئًا أحسن من إنشاء هذا المعهد»، وكانت تريد من وراء إنشاءه جمع التراث العربي من المخطوطات القديمة، وحاول المعهد تصوير هذه المخطوطات المبعثرة في دول العالم، وعندما بدأ المنجّد عمله في المعهد كانت المخطوطات المصورة في حوزة المعهد قرابة ستة آلاف فيلم، وترك المعهد بعد ثماني سنوات، وعدد المخطوطات يقارب الثلاثين ألفًا، وأصدر مجلة المخطوطات العربية؛ التي تُعنى بشئون المخطوطات وأخبارها.

غرق صلاح الدين المنجّد في الماضي السحيق، وأصبح سندباد المخطوطات بحق؛ سافر إلى لينينغراد وموسكو، وطشقند وبخارى وسمرقند، وطهران ومشهد، ومكتبات باكستان والهند، ومكتبة الفاتيكان، وجلس في مكتبة (الأمبروزيانا) في ميلانو مدة شهر ونصف؛ يطلّع على المخطوطات العربية فيها، ويفهرس المخطوطات اليمينة بها.

عاش صلاح الدين المنجّد بين الموتى الأحياء، وكم خاطر ليصل إلى مخطوطة، وتكبّد المعاناة ليطلّع على هذه الكنوز، لقد غامر ليكتشف هذا العالم، وطاف الأديرة والكنائس والمكتبات والمساجد والزوايا، وهبط الأودية، وصعد في الجبال، وألقت كفاء الغبار، وأنفّه رائحة الرطوبة، ولم يدع بلدًا في أوروبا إلا زاره، حتى روسيا زارها في شتائها المخيف؛ حتى المخطوطات العربية في أمريكا اطلع عليها؛ عندما دُعي ليكون أستاذًا زائرًا في جامعة برنستن. ولقد أثار جمعه للتراث أسئلة كثيرة في رأسه، عن إهمالنا التراث واهتمام الغرب به، وما قيمة هذا التراث، وما موقفنا منه اليوم، وقد أسف لحالة بعض المكتبات في البلاد العربية؛ حيث رأى بعض المخطوطات مبعثرة وغير منظّمة، وأحيانًا ممزّقة؛ قد علاها الغبار، ورتعت فيها العثّ والديدان، ثم يدخل مكتبة في أوروبا وأمريكا؛ فيجد هذا التراث مُصانًا محفوظًا.

يقدر المنجّد حجم المخطوطات بـ ٣ ملايين كتاب، ويتساءل: «كيف استطاع العرب أن ينتجوا هذا العدد الضخم؟» وعن المعجزة العربية التي حدثت لهم بعد الإسلام، وكيف انتشرت المعارف في الحضارة الإسلامية من أقوام كانت ثقافتهم شعرية وشفهية؟ وهو يحترم المستشرقين الذين اهتموا بكتب التراث ونشروها ويعترف بفضلهم؛ مثل دي خوية ودوزي.

لقد قامت صلات بينه وبين المستشرقين منذ عام ١٩٤٤؛ من خلال رحلاته الطويلة مع المخطوطات، وهو يحترم جهودهم، ويشيد بها، وينزعج من شتم الشباب لهم، وينزعج عندما يرى أن الاستشراق يسير إلى نهايته، مع عدم وجود مؤسسات عربية تكون بديلاً عن دور الاستشراق التقليدي، وقد نشر كتاباً بعنوان: المُتَّقَى من دراسات المستشرقين.

ثقافة متنوعة وإنتاج غزير

ثقافة صلاح الدين المنجد متنوعة؛ حيث ضمت مكتبته ثلاثين ألف عنوان؛ قال في إحدى الندوات: إن الأقدمين يصفون الذي يحيط بجميع العلوم، ويأخذ بطرف من كل منها بأنه «عالمٌ مشارك»، وكان يعجبه الاسم؛ فقد بدأ حياته أديباً، ثم انتقل إلى تحقيق النصوص الأدبية، ثم اهتم بالكتابة السياسية للصحف. عندما انتهى من عمله في «معهد المخطوطات العربية»، وعاد إلى بيروت مع زوجته السيدة دنيا؛ شقيقة الصحفي اللبناني كامل مُروّة، مؤسس جريدة الحياة، وأصبح يكتب في جريدة الحياة عموداً صحفياً بعنوان: «زاويتي»، وفي بيروت عاش المنجد ليفتح دار نشر باسم «دار الكتاب الجديد»؛ اهتمت بنشر كتب التراث المحققة. كما اعتنى المنجد في بيروت بالتعبير عن آرائه السياسية ومواقفه من الأحداث العربية، ونشر عدة كتب في ذلك الشأن؛ مثل: أعمدة النكبة: بحث علمي في أسباب هزيمة ٥ حزيران، والتضليل الاشتراكي، وبلشفة الإسلام.

اهتم صلاح الدين المنجد بالكتابة عن النواحي الاجتماعية في التاريخ الإسلامي؛ مثل كتابه في قصور الخلفاء، وكتاب الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس، وكتاب الخلفاء والخلفاء؛ وكلها كتب تهتم بتفاصيل الحياة الاجتماعية، وكان لديه اهتمام بقصص الحب والغرام؛ مثل مقالاته وهو شاب في مجلة الرسالة؛ والتي جمعها في كتاب بعنوان: نساء عاشقات، أو كتابه الحياة الجنسية عند العرب. ومن يتصفح مقالاته في مجلة الرسالة وغيرها يجد هذا الشغف لديه، الذي انتقل إلى الاهتمام بالنصوص المحققة؛ مثل تحقيق كتاب نزهة الجلساء في أشعار النساء، وغيرها من العناوين اللافئة التي تدلُّ على شغفه الأدبي الذي لازمه طوال حياته بجانب عمله بالتحقيق والتراث.

نختم بقصة عن صلاح الدين المنجد تدلُّ على مروءته وطيب معدنه؛ عندما تواصل معه فخري البارودي الزعيم السوري، والذي نزل في فندق بسيط في بيروت، وفي أحد الليالي اتصل البارودي بالمنجد في الساعة الثانية صباحًا، وقال له: الحقني سأموت؛ إن لم تدركني، وعلى الفور توجه المنجد للفندق وهو متعجب أن ينزل البارودي بفندق بسيط كهذا، وطلب دكتور قلب ليكون معه، وعندما عرف الدكتور أن هذا هو فخري البارودي الزعيم السوري، وعضو الكتلة الوطنية، تم نقله إلى المستشفى الذي طلب مألًا؛ ليتم إيداع المريض به، واتصل المنجد بكامل مُروءة الصحفي اللبناني الذي تدخل، وسهَّل إجراءات الدخول، وتم إنقاذ حياة فخري البارودي الذي شعر أنه مدينٌ لصلاح الدين المنجد الذي وصل على الفور، وكتب البارودي ورقةً للمنجد، وقال له أقرأها لاحقًا، وكان فيها:

جزاك الله عني كل خير

صلاح الدين يا ابن الكرام

لقد أنقذت في الدنيا حياتي

أخا العلّيا من الموت الزؤام

سأدعو الله أن يبقيك دُخْرًا

لقومك في الصلاة وفي الصيام

تقبّل يا صلاح عميم شكري

وحمدي والتّحابا مع سلامي

(١٤) أسعد داغر: شاهد عيان على الانقلاب

على السلطان عبد الحميد ١٩٠٩

سهرتي الليلة مع كتاب مذكراتي على هامش القضية العربية لأسعد داغر، الذي حقّقه خالد زيادة. وترجع معرفة زيادة بالمذكرات إلى اطلاعه عليها عندما كان يعدُّ روايته حكاية فيصل. ساعتها تنبّه لمقدار تماهي صاحب المذكرات مع القضية العربية التي نذر حياته من أجلها، وكانت إعادة نشر المذكرات في طبعة موثقة فكرة راودته منذ ذلك الحين. وهكذا أُعيد نشر الكتاب بعد ستين عامًا على صدوره أول مرة.

نقف في هذه المذكرات عند لحظة مهمة وفريدة؛ عندما يصل أسعد داغر إلى إسطنبول لدراسة الحقوق. كان والده يفكر في إرساله إلى باريس للدراسة فيها، لكن أسعد لم يَرْتَحْ لهذه الفكرة؛ لا لسببٍ إلا لشعوره بأنه غير فرنسي؛ خاصةً بعد إعلان الدستور العثماني، وانتشار الروح الوطنية في البلاد.

استقلَّ أسعد الباخرة التي أقلتْ نواب سوريا في مجلس المبعوثان، وكان السيد عبد الحميد الزهراوي أول من عَرَفَه منهم؛ فقد شاءت المصادفة أن يجلس جواره على المائدة. رست الباخرة، ونزل في «فندق كروكر»، وكانت الطريق غائصةً بالجند؛ استعدادًا لمرور السلطان عبد الحميد من قصر يلدز إلى دار البرلمان الكائنة بجوار مسجد آيا صوفيا، وقد استأجر أسعد غرفة مطلّة على الشارع العام، وجلس ينتظر مرور

الموكب السلطاني؛ ليرى ذلك الرجل الذي كان اسمه يُلقب الرعب في النفوس.

وصل الموكب فهتفت الجماهير: «بادشاهم جوق باشا»؛ أي «ليطل عمر السلطان»، ورأى أسعد السلطان في عربته المكشوفة وهو يضع يده على قبضة السيف، وأمامه الصدر الأعظم، وكان كاتبنا يفكر في هذا السلطان الذي ظلّ في سُدّة الحكم أكثر من ثلث قرن؛ كان يتأمل: هل سيصبر السلطان على الحكم الدستوري، وينزل على رأي الأمة، ويسير على إرادتها؟

بعد أشهر قليلة جاءه الجواب، كما يقول، من خلال الثورة المضادة على الدستور؛ ففي ليلة ٣١ مارس / آذار ١٩٠٩، قامت حركة مضادة؛ يقول داغر: «إنها من تدير السلطان عبد الحميد لتقويض العمل بالدستور»، وقد ردّ السلطان عبد الحميد عن نفسه تهمة التورط فيها لاحقاً. افتُحِم البرلمان وحُطِّمت مقاعده. كان أسعد يقطن حي «بك أوغلو»؛ وهو حي السفارات، على مقربة من «مقهى توكتليان»؛ حيث كان يجتمع رجال السياسة من عرب وغيرهم، وقد علم منهم أن الاتحاديين وأحرار البلاد قرروا استرداد إسطنبول وإعادة الدستور بالقوة، وأن جيشاً كبيراً بقيادة محمود شوكت باشا زحف من سالونيك إلى العاصمة، وعسكر في بلدة سان ستيفانو على مقربة من إسطنبول. يدّعي داغر أن السلطان عبد الحميد أنذر بإطلاق المدافع من قصر يلدز على حي «بك أوغلو»، حيث تقع السفارات ويقطن أكثر الأجانب، إذا حاول جيش سالونيك مهاجمة العاصمة، تتبعث هذه المعلومة، ولم أجدها في المراجع التي عُدت لها، ولعلها من الشائعات التي راجت في تلك الفترة.

يستمر أسعد في شهادته على حالة دار الخلافة العثمانية في ذلك الوقت؛ حيث بقي جيش التحرير حول إسطنبول، وانتقل مجلس النواب إلى سان ستيفانو، وزار أسعد تلك المدينة؛ ليرى انعقاد البرلمان، ومحاولة عزل السلطان، وجلس مع عبد الحميد الزهراوي، وأسعد الشقيري، ثم انتظر خارج المقهى الكبير الذي عُقدت فيه جلسة البرلمان، حتى يطلع على نتائج تلك الاجتماعات، وخرج الزهراوي، وقال له: «عُد إلى إسطنبول، والزم غرفتك، واقضِ هذين اليومين في القراءة؛ الاتفاق على وشك أن يتم مع جلالة مولانا السلطان أبيه الله، وعليك أن تحفظ لسانك، ولا تتفوه بأي كلمة».

عاد أسعد إلى إسطنبول، وعمل بما أوصاه به الزهراوي، وفي اليوم الرابع من عودته سمع دوي الرصاص وقصف المدافع، وخرج إلى الشرفة ليرى ماذا يجري، وإذا الجند يملأون الشوارع على مدى النظر؛ فقد دخل جيش الاتحاديين إسطنبول لعزل السلطان عبد الحميد، واستمر دوي الرصاص وقصف المدافع إلى الساعة الحادية عشرة، ثم انقطع. وذهب مع جماعة من الناس إلى أقرب ثكنة دار فيها القتال؛ وهي «ثكنة تقسيم»، وكان القتال بين جيش الاتحاديين، وجيش السلطان عبد الحميد. وسقطت تلك الثكنة العسكرية، وضُرب حصارٌ حول «قصر يلدز» الذي يسكنه السلطان، وقُطعت عنه المياه والكهرباء، ثم وصل الاتحاديون إلى المقهى واحدًا تلو الآخر، وكان أحمد نيازي أول القادمين؛ وهو عضو في «جمعية الاتحاد والترقي»، وأحد شخصيات الانقلاب، ثم وصل أنور باشا الذي سيصبح وزيرًا الحربية في الدولة

العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، وجاء بعده عزيز علي المصري، وجلس على مقربة منهم لتناول الطعام.

اجتمع البرلمان في المساء، وانتدب ثلاثة من أعضائه لإبلاغ السلطان عبد الحميد بقرار الخلع، وبعد ذلك اليوم رأى أسعد، رفقة الجالسين في «مقهى توكتليان»، عشرات من عربات السراي تقلُّ مشاتٍ من الغانيات من «قصر يلدز» إلى جهة لم يعرفها، ثم يقول: «إن مظاهر الحيرة كانت بادية في ابتساماتهن ونظراتهن وحركاتهن، وكُنَّ في جهل تام بكل ما يجري». انتهت فتنة ٣١ مارس / آذار، وخُلع السلطان عبد الحميد الثاني، وحلَّ محله السلطان محمد الخامس.

يروى أسعد داغر خطة الحصار كما سمعها؛ فقد عُهد إلى أنور بمحاصرة «قصر يلدز»، ومنع السلطان من تنفيذ تهديده بضرب «حي بك أوغلو»، وعُهد إلى مختار بك باحتلال ثكنة تقسيم، وقد قُتل هذا القائد في المعركة، وكانت مهمة عزيز علي المصري احتلال «محطة سركجي»، والاستيلاء على «جسر غلطة»، والثكنات القائمة على جانبيه، والمنتشرة في طول الطريق إلى «قصر دولمه بهجه»، ثم يقول أسعد: «وُفق عزيز في احتلال المحطة والجسر والثكنات المجاورة له دون أن يُطلق رصاصة أو تُراق قطرة دم؛ إلا الثكنة التي كانت حول «قصر دولمه بهجه»، والتي اشتبك معها، ثم احتل تلك النقطة، وانضمَّ إلى أنور في القتال عند ثكنة تقسيم؛ هكذا نرى المشهد عشية الانقلاب؛ مشاركة من جندي عربي مع أتراك.

في تلك الأثناء زار أنطون فارس إسطنبول؛ قادمًا من مرسيليا، مؤفِّدًا

من بعض الأحزاب اللبنانية. وذات يوم دعاه الأستاذ فارس لزيارة أنور باشا، وكان في منتهى السعادة لرؤية أنور، لكن عاطفة داغر نحو أنور أخذت تتضاءل مع مرور الزمن. ويرى أسعد أن الحرج تصاعد بين العرب والأتراك بعد وصول زعماء تركستان إلى إسطنبول؛ مثل أحمد أغايف، ويوسف أقشورا؛ الذين أسهموا في نشر الدعوة إلى التريك.

أسس «المتدى الأدبي العربي»، وأصبح عبد الكريم الخليل معتمدًا للشبيبة العربية، وقد اهتم قادة الاتحاد والترقي؛ طبقًا لما يذكره داغر، بمجاملة العرب، وكثر ترددهم على «المتدى الأدبي»؛ فكان يزوره دائمًا أنور، وطلعت / وفتحي، ومدحت شكري، وغيرهم من قادة الاتحاد والترقي، ومع ظهور فكرة التريك انفصل عزيز علي المصري عن الاتحاد والترقي، ويشير داغر إلى أنه عقّد مرة في منزله اجتماعًا كبيرًا حضره أكثر قادة الترك، وناقش فيه فكرة تقوية السلطة العثمانية من خلال كل عنصر من عناصرها، وعدم تهيش العرب، لكن أحمد أغايف اعترض على هذه الفكرة. وقد حاول أسعد تقديم صورة عن شخصية عزيز المصري الذي سيصبح قائدًا للجيش المصري في حكومة علي ماهر، وشرح معالم شخصيته وطريقته. تعرّف أسعد داغر على الشاعر معروف الرصافي في إسطنبول؛ حيث انتخب عضوًا في مجلس المبعوثان، وعمل أسعد مراسلًا لصحيفة المقطم في إسطنبول، ويستمر في شرح تجربته في تلك المدينة، وتعرّفه على النخبة اليهودية التي كانت تؤدّ التعرف على العرب، وفتح النقاش حول فلسطين في ذلك الوقت المبكر. ثم تنتقل المذكرات إلى تجارب أسعد داغر في «المؤتمر العربي الأول» في باريس، ورأيه في الثورة العربية الأولى، وانتقاله إلى سوريا في

عهد فيصل، ثم بغداد، وقصته مع نوري السعيد، هكذا تكتمل فصول شهادته على عصره.

يقدّم أسعد داغر شهادته عن حالة إسطنبول في تلك الفترة، لكنها شهادة أقرب إلى الانطباع الشخصي والملحوظات، تخبرنا المصادر عن صراع كبير دار في أروقة الحكم العثماني، وهناك تجاهل لمعلومات تاريخية؛ مثل عدم سفك السلطان عبد الحميد الدماء، والسماح بتسليم «قصر يلدز» للانقلابيين رغم أنه كان يملك القوة الكافية لصدهم، ثم نهب القصر من قبل بعض العصابات، واستصدار فتوى لعزل السلطان، والضغط عليه ابتغاء أن يُنفى إلى سالونيك؛ رغم أنه طلب الإقامة في «قصر جراغان»، منصرفاً عن الشأن العام، مكتفياً بالدعاء، لكن الطلب قوبل بالرفض، ونُقل إلى محطة قطار سر كجي، وعُزل ونُفي. ولما تحرك القطار كانت صفارته بمثابة إعلان عن نهاية حقبة. بكى السلطان وهو يغادر قصره، وبعيداً عن تفاصيل العزل؛ كان خروج عبد الحميد يشبه النهايات الدرامية؛ فقد نُقل، رفقة بناته الثلاث وولديه وأربع جوارٍ. وانقلب الشعراء من مدح السلطان عبد الحميد إلى هجاء عهده والهجوم عليه، وتوافد على المدينة العديداً من العرب لزيارتها بعد عزل السلطان؛ مثل جورجى زيدان الذي سجّل تفاصيل زيارته لها، وكذلك رشيد رضا، وغيرهم.

(١٥) جمال الدين الأفغاني: سيرة سياسية لحكيم الشرق

امتطى جمال الدين الأفغاني في طفولته حصاناً خشبياً، وودّع والديه وشقيقاته، وقال إنه راحلٌ إلى الهند ومصر وتركيا وأفغانستان، ووعد أمه وأبوه بأنه سيقوم بتلك الرحلات؛ وفقاً لرواية لطف الله ابن شقيقته. كبر الفتى، وتحولت اللعبة إلى حقيقة، وأصبح الأفغاني واحداً من المفكرين الجوالين، الذين تجاوز تأثيرهم حدود بلد إسلامي بعينه.

لذلك ما إن رأيت غلاف كتاب بعنوان: جمال الدين الأفغاني: سيرة سياسية، حتى تحمّست لشرائه، وفرحت به، وشعرت أنه سيكون رفقة مؤنسة مع هذه الشخصية القلقة التي حيرت الكثير من الباحثين، واختلف عليها الناس. بدأت نيكبي ر. كيدي العمل على سيرة جمال الدين الأفغاني في صيف عام ١٩٦٤؛ حيث كانت تدرس الثورة الدستورية الإيرانية (١٩٠٥-١٩١١)، وعشرت في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية على ملف عن الأفغاني، وهكذا تحمست لدراسة تجربة الأفغاني، وتبعت أثره في أرشيفات الأماكن التي عاش فيها؛ مثل إسطنبول، وباريس، والهند، والقاهرة، وقدمت لنا عملاً تحقيقيًا واستقصائيًا مفيدًا ومثمرًا؛ ليصدر الكتاب عام ١٩٧٢، ويترجم للعربية في عام ٢٠٢١، بترجمة الأخوين: مُجاب ومعين الإمام، وبجهود مميز من منتدى العلاقات العربية والدولية، الذي قدم لجمهور القراء العديد من سير المفكرين؛ مثل شكيب أرسلان، ومرمدوك بكثال.

أثار جمال الدين الأفغاني الجدل بسبب الغموض والخلافات حول تفاصيل حياته؛ هل هو سني أم شيعي؟ وما هي جنسيته: أفغاني أم إيراني؟ وإلى أين يتجه هواه السياسي؟ وهل لديه ميل للروس مقابل كراهية الإنجليز؟ وما تفسير انضمامه للمحفل الماسوني؟ وكيف امتلك القدرة على الاقتراب من الدوائر الحاكمة في العديد من البلدان؛ مثل أفغانستان، ومصر، والدولة العثمانية؟ وكيف جمع بين تلاميذ متنوعين من الليبراليين المنفتحين، ومسيحيي بلاد الشام، إلى شيوخ معتمين من الأزهر؟ كلُّ هذه التفاصيل تتناولها الكاتبة بتفحص شديد، وبمحاولات للفهم والنظر التاريخي. وتُبْهِنَا في بداية الكتاب إلى الحذر من السيرة التي قدمها محمد عبده، وجورجي زيدان عن الأفغاني، وتمزج الروايات ببعضها؛ حتى تقدم تصورًا لكل مرحلة من حياته.

البدايات: السنوات الغامضة

تبدأ الكاتبة بدراسة السنوات السبع والعشرين الأولى من حياة الأفغاني بين عامي (١٨٣٨-١٨٦٦)، وهي السنوات التي لا تتوفر فيها وثائق كافية يمكن التعويل عليها. تميل كيدي إلى أن جمال الدين وُلد في إيران في قرية أسد أباد قُرب مدينة همذان، وأنه تجنَّب ذكر ذلك؛ حتى لا يتم ربطه بالمذهب الشيعي، وقد عُرف بالذكاء والنبوغ منذ الصغر، وكان لديه ولعٌ بالكتب. اصطحبه والده إلى التجف، وتعلم فيها بعض الوقت. وتُبْهِنَا المؤلفة إلى ولعه بدراسة الفلسفة منذ شبابه. وبعد ذلك غادر إلى الهند في أواخر سنوات المراهقة، وتوضَّح كيدي أن تجربة الهند تركت أثرًا في شخصيته؛ حيث رأى الاحتلال البريطاني. والأمر الثاني الذي

عرفه في الهند هو العلوم الحديثة والمعارف الغربية. وبعد الإقامة في الهند ذهب في رحلة إلى مكة، ومرّ بالعديد من البلدان مثل إيران، وفي هذه الزيارة التقى والده وغيره من الأقرباء، وطلبوا منه الاستقرار، وكان ردّه: «أنا مثل الصقر، طيار المسافات الطويلة؛ يرى فضاء الكون الشاسع يضيق عن طيرانه؛ فكيف تريدون إذن أن تقيدوا قدمي وتسجنوني في القفص الصغير؟ أنا مثل الصقر الملكي».

مستشار سياسي في أفغانستان: ١٨٦٦-١٨٦٨

وصل جمال الدين إلى هراة عام ١٨٦٨، وما أن استولى أعظم خان على قندهار، حتى ارتفعت وتيرة نشاط جمال الدين. هنا نرى الظهور الأول لجمال الدين الرومي في الوثائق الإنجليزية؛ الرومي كما لقب نفسه في هذه المرحلة، وأحياناً الإسطنبولي. يأتي ذكر اسم جمال الدين في تقرير المراسل الإخباري للحكومة البريطانية الذي يُبلغ حكومة الهند بالأحداث في أفغانستان. هنا نرى الوثائق تحكي لنا عن مستشار أجنبي لحاكم أفغانستان ينصّح الأمير أعظم خان باتخاذ مواقف عدائية من بريطانيا.

في الأرشيف الإنجليزي حكايات عن بدايات أسطورة الأفغاني؛ باعتباره مستشاراً يلتقي الأمير سراً، ويمنحه الأمير ٢٠٠ روبية في الشهر إعالة أو ضيافة، ومن الطريف أن الأفغاني كان يرى في الروس حليفاً مناسباً بخلاف الإنجليز. وتعرض كيدي وثيقة أخرى عن حوارٍ دار بين الأفغاني وعميل بريطاني، ويصفه البريطاني بأنه شابٌ في الخامسة والثلاثين؛ لديه القدرة على تحليل التحالفات الدولية سياسياً، وأوجه

الاختلاف بين روسيا وبريطانيا، ومستقبل أفغانستان. نلاحظ هنا غياب السؤال الديني، أو فكرة الجامعة الإسلامية في ذلك الوقت. يبدو لنا جمال الدين ناشطاً سياسياً، ورجلاً ثورياً؛ يتعش في ظلال بيوت الحكم، وفي صناعة المؤامرات، وتدير أمور السياسية، وإبصال رسائل إلى الحكام. تتساءل الكاتبة: «كيف وصل إلى هذه المكانة وهو في هذه السن الصغيرة؟» وكان الجواب هو النبوغ الفكري والكاريزما، وامتلاكه المعلومات السياسية، والاطلاع على الشأن الدولي؛ مما يؤهله ليكون قريباً من دوائر السلطة.

في هذه الفترة كان جمال الدين يرتدي زي تتر شرق القوقاز؛ يشرب الشاي باستمرار، ويدخن حسب الأسلوب الفارسي، ومُتضلع في الجغرافيا والتاريخ، ويتحدث العربية والتركية والفارسية بطلاقة، ولا يتبع مذهباً معيناً؛ كما لاحظ كاتب التقرير، ويُنَبِّهنا كاتب التقرير كذلك إلى أن أسلوبه في العيش أقرب شبهة بالآوروبي منه بالمسلم، ويرافقه خادم اسمه أبو تراب.

في صيف عام ١٨٦٨ تدهور الوضع العسكري لأعظم خان، ونجح شير علي في الوصول للسلطة. لم يستطع جمال الدين أن يُكمل دور المستشار في أفغانستان مع تغير الحكم، وطلب الإذن بمغادرة البلاد. إخفاق التجربة في أفغانستان جعله في أشد حالات شقاء الفكر وحزن القلب في كابول، وكتب ساعتها نصاً بالفارسية، لفت نظري فيه عبارة: «نُفِيتُ من المسجد، ورُفِضْتُ في المعبد»، ولعل هذه السنوات ساعدته لاحقاً على تصنيف كتابه عن تاريخ الأفغان، وتوظيف مرويَّات شدِّتهم في القتال؛ لإثارة حماسة المسلمين للقتال ضد بريطانيا.

في إسطنبول وفي القاهرة

حاول جمال الدين العودة إلى الهند بعد أفغانستان، لكن البريطانيين طلبوا منه مغادرة الهند. وصل إسطنبول عام ١٨٦٩، وفيها حصل على عضوية مجلس المعارف الرسمي. ألقى خطابًا في افتتاح الجامعة الجديدة في فبراير/ شباط ١٨٧٠؛ نظرًا لصلته مع تحسين أفندي مدير الجامعة، وتقف الكتابة عند تجربته الأولى في إسطنبول، وانزعاج المؤسسة الدينية منه بعد إلقائه محاضرة، تم تأويل بعض أفكارها ضده. وأصدر شيخ الإسلام فتوى بتكفيره وإبعاده عن إسطنبول. تصحبنا الكتابة لتوضيح الحالة الثقافية في إسطنبول في تلك الفترة، والصراع بين التغريب والمؤسسة الدينية، وتستعرض آراء المؤرخين الأتراك في سبب هذا الإبعاد.

الخروج من تركيا جعله يفكر في الاستقرار في مصر، وتلك كانت من أنضج سنوات عطائه الفكري وقوته الحركية. اتخذ الأفغاني من مصر مركزًا لنشاطاته بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٩، وكما تفعل المؤلفة، في كل فصل، تشرح لنا الجو العام في البلد التي يعيش فيها الأفغاني؛ لقد وصل في نهاية حكم إسماعيل، وبريطانيا تفكر في احتلال مصر. كانت مدرسة الأفغاني في بيته وفي المقهى؛ يقابل الطلبة والأعيان. اقترب منه في تلك الفترة يعقوب صنوع، ومحمد عبده الشاب، وكذلك تعرّف إليه سعد زغلول. أعجب به محمد عبده إعجابًا شديدًا، وتعامل معه على طريقة الشيخ والمريد كان عبده منبهراً بمعرفة الأفغاني في علوم التفسير والتصوف.

استطاع الأفغاني أن يمارس تأثيرًا كبيرًا في الرأي العام؛ من خلال توجيه تلاميذه لتأسيس الجرائد، وإلقائه المحاضرات العامة، وتثوير

المجتمع من خلال المقالات، والحديث المستمر عن الحكومة الدستورية، ومثالب الاستبداد. وهنا نرى جذور أفكار الكواكبي عند الأفغاني؛ حينما كتب: «أنت أيها الفلاح المسكين تشقُّ الأرض لتستنبت منها ما يسدُّ الرمق؛ فلماذا لا تشقُّ قلب ظالمك؟».

تفضّل كيدي الطرق السياسية التي استخدمها الأفغاني؛ بحيث نراه ناشطاً ثورياً، وفي هذه الفترة انضم للمحفل الماسوني، وأدخل وليّ العهد الأمير توفيق معه. ونفهم من الكتاب أن الانضمام كان لأغراض سياسية، ولم يرتبط بأي طقوس أو مؤامرات دينية. تصاعدت أحداث مسيرة الأفغاني في مصر؛ حتى إنه فكر في اغتيال الخديوي إسماعيل، وعرض الفكرة على محمد عبده.

ألّمت الكاتبة بكل الزوايا الممكنة لشخصية الأفغاني من خلال استنطاق مذكرات تلاميذه الذين تحلقوا حوله في القاهرة على «مقهى ماتاتيا»؛ مثل إبراهيم الهلباوي، وسليم العنجوري، وأديب إسحاق. وفيما يتصل بحياة الأفغاني الشخصية؛ لا نعرف أكثر من روابطه الوثيقة مع تلاميذه ومريديه، ولم يُعرف عنه في مصر علاقته بأي امرأة، ولديه موقف إيجابي من تعليم المرأة.

ملحمة الأفغاني

تستمر الكاتبة نيكي كيدي في تتبع مراحل حياة الأفغاني في باريس حينما أسس العروة الوثقى مع محمد عبده، ثم في إسطنبول حينما عاش فيها بأمر من السلطان. يغوص بنا الكتاب في عالم أواخر القرن التاسع عشر؛ حيث مؤامرات دول الاستعمار البريطاني، والأمة بين تخاذل

نخبتهما الحاكمة، وبين الأفكار القديمة، والأفغاني واحد من أوائل من حاول مواجهة مشكلة تكييف التقاليد التراثية الإسلامية للتصدي لمشكلات جديدة، دون أن يقنع بفصل الإصلاح عن الدين؛ بوصفهما مجالين متميزين.

تشير الكاتبة إلى امتلاك جمال الدين الأفغاني توليفة بصعُب حل لغزها؛ احتوت على التصوف، وميل إلى المزاج الباطني، ونزعة شكوكية في بعض الأحيان. وتنبهنا الكاتبة إلى أن القول إن جمال الدين لم يعبر دومًا عن حقيقته لا يعني لومه أخلاقيًا؛ حيث لم تكن اهتمامات جمال الدين تتعلق بالسيرة الحياتية؛ بل بتحرير المسلمين من التعذّيات الأوربية، وإصلاح حياتهم وسياستهم. قدّمت نيكي كيدي حياة الأفغاني من خلال العشرات من المصادر، والكثير من النظرات النقدية في الروايات المكتوبة حوله، وجاءت الترجمة سلسلة بديعة، واحتوت على أصول الاقتباسات العربية من بطون المجلات والصحف النادرة.

الكتاب قصة تشبه الروايات عن رجل جوّال مفكر عابر للحدود، وثوري مبكر، ومحزّض على التغيير، وكاتب سياسي وخطيب، استطاع من خلال بلاغته وذكائه وشخصيته الأسرة، بلوغ مكانة سريعة عند الشخصيات المهمة في كل مكان يصل إليه، وجمهور كبير من القراء والمثقفين.

ختامًا نضع كلمات الأفغاني التي تصف شعوره وفكره حينما كتب للدولة العثمانية العلية؛ يحاول أن يقنعه بتوظيفه مبعوثًا لها في الهند، واستخدامه لأغراض الجامعة الإسلامية؛ قال:

«حين تأملت أوضاع الملة الإسلامية، شَقَقْتُ قميص الصبر،
ودهمني مخوف الأفكار والرؤى من كل صوب، ورحتُ كَمَن
مئة من الهول مس، أتفكرُ في هذا الأمر آناء الليل وأطراف
النهار؛ جاعلاً من سبيل صلاح هذه الملة ونجاتها دعواي
وتعويذتي، واشتعل في صدري لهيب الحماس، ووجدتني
إزاء تنافسي الخراساني وحذقه، أحرّم على نفسي طيب العيش
ودعته، وعلمت أن استصعاب الصعب لا يتأتى إلا من خسة
النفس، ولؤم الطبع، وأن الصعب يستحيل سهلاً عند أولي
العزم».

حاول الأفغاني أن يكون من أولي العزم، وأن يستلهم تجربة أبي مسلم
الخراساني حماسةً منه، لكي يغير العالم، ويقلب التاريخ السياسي في
زمنه؛ كما فعل الخراساني في إسقاط حكم الأمويين، والإسهام في
صعود العباسيين. هذه دعوة لقراءة الكتاب، والعيش في ظلال هذه الفترة
التي عانت الاستعمار والاستبداد والأفكار الجامدة؛ وكأن الأمة تحاول
النجاة منذ أكثر من مئة سنة بجهود المصلحين؛ مثل الأفغاني؛ الرجل
اللغز الذي اختلف عليه الناس. أما المتفق عليه فهو أنه كان شوكة في
حلق البريطانيين، ومزعجاً للمستبدين في مختلف الحكومات. مات
الأفغاني في إسطنبول بعد إصابته بسرطان الفك، وعزا الأطباء السبب
إلى كثرة تدخين السجائر وشرب الشاي؛ وذلك بخلاف أسطورة تسميم
السلطان له.

(١٦) حياة غير آمنة: في رثاء جيل الأحلام والإخفاقات

فقدنا في الفترة الماضية الكاتب والمناضل د. شفيق الغبرا، الذي غادر عالمنا، وقد أجمع الناس على احترامه وتقدير مُنجزه النضالي وتجربته ككاتب ملتزم بقضايا الديمقراطية ومؤمن بعدالة قضية فلسطين.

بعد ثلاثين عامًا من تجربته الثورية، ومشاركته في المقاومة سجّل د. شفيق الغبرا تفاصيل هذه الفترة في مذكراته: حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات؛ والتي نقرأ فيها عن اللحظة الفارقة التي صاغته، وصاغت جيله في بداية مراهقته، وجعلت منه الشخص الذي عرفناه؛ تلك اللحظة هي هزيمة ١٩٦٧، التي أيقظت فيه عملاقًا مكبوتًا يبحث عن تحرّر، وإعادة اعتبار لما حصل في نكبة ١٩٤٨ عند قيام إسرائيل.

لقد جعلته تلك الحرب يكبر بسرعة، وحوّلت مراهقته إلى سنوات مليئة بالسياسة والفكر، وحملته عبء تحرير فلسطين. ستعرّف لحظة يونيو ١٩٦٧ من هم، وتساعدهم على النضج المبكر. هكذا سعى ورفاقه، بوصفهم شبابًا عربيًا يرتبط بالهوية العربية والفلسطينية، للردّ على الهزيمة التي حلّت بالعالم العربي، ونتج عنها تراجع الأمل في تحرير فلسطين؛ لقد بحث جيله عن طريق لإنصاج القدرة على استعادة الأرض والحقوق الفلسطينية، وإن أمكن عن أشكال من الوحدة العربية، وتحوّل هذا إلى حلمه الشخصي، وحلم جيل عربي.

لهذا جذبت جيله «حركة فتح» التي تأسست بقيادة ياسر عرفات ومجموعة من إخوانه عام ١٩٦٥؛ فهي التي خاضت «معركة الكرامة» عام ١٩٦٨، التي عُدَّت أول مواجهة ناجحة بين العرب وإسرائيل بعد هزيمة ١٩٦٧. ومن أجل مشروع تحرير الأرض واستعادة حقوق الفلسطينيين؛ انضوى مئات الشباب والشابات من ذوي الميول الوطنية اليسارية، القادمين من التنظيم الطلابي لحركة فتح تحت لواء ما سُمِّي بدايةً بـ «السَّرية الطلابية»؛ والتي تحولت فيما بعد إلى «كتيبة الجرمق».

على مرَّ أيام هذه التجربة الشاقة التي خاضها شفيق الغبرا في شبابه، غيَّب الموت المئات من رفاقه، وفقد أعزَّ أصدقائه؛ لكنهم عُدُّوا ذلك جزءاً من ضريبة صناعة عالمهم، وسقط الموت عليهم في البداية في أواسط السبعينيات مثل حبيبيات المطر الخفيف؛ فتقبَّلوه وحسبوا أن الضريبة لن تتجاوز هذه البدايات، ولكن الموت سرعان ما تحول إلى زخَّات من المطر الغزير، ومع انتشار حالات الموت في صفوفهم، لم يعودوا يشعروا بشيء؛ إلا بضرورة الاستمرار من أجل من سقطوا، ولحماية فكرتهم ومبادئهم.

تجربة شفيق الغبرا، كما عبَّرَ عنها في مذكراته؛ هي تحول من البراءة إلى الراديكالية، ومن الراديكالية والعنف إلى التساؤل؛ فحاله حال الكثير من الشباب العرب ممن تحولوا نحو طريق العنف المسلَّح في سبيل القضية الفلسطينية، قبل أن يكتشفوا ضرورة وجود طرق أخرى إلى جانب الثورة والعنف، أو بمعزل عنهما. وربما تكون سيرته الذاتية وتجربته هي قصة جيل كامل لم تفسده حياة العنف، ولم تحبطه حالة

الدمار التي أحاطت بالحياة في تلك الأيام الغابرة؛ بل جعلته أكثر إصراراً على الاستمرار في الانطلاق نحو آفاق مختلفة.

أسهم قائد السرية الطلابية معين الطاهر في تشجيع شفيق الغبرا على تدوين التجربة والتحدث عنها بموضوعية، ومن خلال الكتابة الشاقة والمُجهدَة استعاد جهاد (الاسم الحركي لشفيق الغبرا في السرية الطلابية) التجربة، واكتشف ذلك العالم الذي تركه وراءه؛ كأن السيرة هي إعادة فهم للذات؛ لأنها أحييت في روحه عالماً حسب أنه لن يغادره حياً؛ وإذ به يجد جهاد يعيش في أعماقه، وفي ذكرياته ومخاوفه. تحدث د. شفيق الغبرا مع زوجته تغريد؛ حتى يشارك قصته، وليحصل على موافقتها في مشاركة تلك الحكايات في سيرته الذاتية؛ وهي التي انتقلت معه إلى بيروت من الكويت بعد زواجهم لتعيش واقعاً صعباً؛ عبّر عنه بقوله: «شهداء يسقطون كل يوم، رجال يختفون في أعماق البحار وخلف الحدود، وزوج لا تعرف في كل مره تلاقاه إن كانت ستراه مرة ثانية».

يحكي شفيق الغبرا عن طفولته، وعن حالة الاغتراب التي شعر بها منذ الطفولة، وهو يتلمّس طريقه لفهم هويته المتعددة. وعند بلوغه عمر ثمانية سنوات حصل والده د. ناظم الغبرا على الجنسية الكويتية؛ وكان قد انتقل إلى الكويت عام ١٩٥٢ للعمل بها طبيباً. وقد تنقّل شفيق الطفل بين عدة بلدان؛ مثل لندن، وهناك شعر باختلافه عن أقرانه، ثم أتى القاهرة، وشعر بالاختلاف مرة ثانية؛ وساعتهَا اكتشف أنه عربي في الغرب، وأنه يبدو غير عربي في الشرق، لكنه مع الوقت اكتشف أنه الانسان معاً، وأن جانباً من الغرب قد صاغه، وأثّر في عقلته، وأن الكثير من الشرق جزء لا ينفصل عن تجربته وإنسانيته. ويحكي لنا موقفاً مع

الشيخ صباح السالم أمير الكويت عندما حضر لمنزل والده، وأبلغه أنه أصبح مواطنًا كويتيًا، لكن أمام الشيخ صباح أصرَّ الطفل شفيق على أنه فلسطيني ويحمل قضية، وردَّ الشيخ صباح عليه: «هذا حقك؛ لك الحق في أن تشعر كما تريد، لا تناقض بين أن تكون كويتيًا، وأن تكون عربيًا وفلسطينيًا؛ فأنا أشعر بالارتباط الذي تشعر به تجاه ما حصل في فلسطين»؛ ومن هذا الرد شعر شفيق بسكينة وارتياح، وسكنت في روحه هُويات متعددة.

تميزت تجربة شفيق الغبرا بالثراء، وامتزج فيها النضال مع العمل الأكاديمي، لقد رأى لبنان، وهو في بداية شبابه؛ لبنان الستينيات الذي فيه على كل شيء؛ إنه المكان الذي امتزجت فيه الحياة الفكرية بالثقافة، والسياسة، والموسيقى، والفن، وعاش في هذه التجربة القوميين العرب والفلسطينيين، وشاهد تداخل كل العوالم، قبل أن يهاجر إلى أمريكا للدراسة، وفي غرفة الدراسة بدلًا من أن يضع على الحائط صورة للفاتنة بريجيت باردو أو مارلين مونرو أو المغني إلفيس بريسلي، وضع صور الفدائيين واللاجئين، وعندما جاء الشاب الأمريكي زميله في الغرفة، ورأى تلك الصور فزع، ولم يعد للمبيت في الغرفة. وعندما انتهى من دراسته في جامعة جورجتاون ترك المستقبل المضمون إلى أفق النضال، وعاد إلى بيروت. وهكذا تستمر مذكرات شفيق الغبرا في وصف تجاربه حتى مشاركته في السرية الطلابية، وتعطينا شهادة حية وصادقة عن تلك السنوات، وعن هذا النضال. ومع رحيل د. شفيق الغبرا عن عالمنا يمكن أن تكون هذه فرصة لاستعادة دروس التجارب التاريخية التي مرّت بها هذه الأجيال، والتعلم منها؛ فقد دفعوا ثمن تلك الدروس من دمائهم - رحمه الله ورحم كل الشهداء.

(١٧) التغرية الإسطنبولية:

كامل مروّة ورفاقه في عام ١٩٤١

عاش الصحفي كامل مروّة في بيروت، وفي أحد الأيام أتت الأخبار بتقدم القوات البريطانية-الديجولية إلى الحدود اللبنانية الجنوبية، وقد قدّمت لمهاجمة القوات الفرنسية الفيشية التي دانت بالولاء لألمانيا النازية. خشي كامل أن يُنكّل به البريطانيون عند وصولهم إلى بيروت؛ إذ كان قد أيّد حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد بريطانيا، وكتب مقالات ضد بريطانيا، وعمل مراسلاً لوكالة «ترانس أوسيان» الألمانية. جَهّز كامل حقيبة سفره، وقرر الفرار من لبنان، واستعرض في ذهنه الأماكن التي تصلح للاختباء في زمن الحرب العالمية الثانية.

اختار كامل مروّة تركيا لتكون وجهته؛ حصل على تأشيرة لها، واتجه إلى حلب؛ التي كانت تعجّ بالرعايا من دول المحور على اختلاف أشكالهم، وهم يتأهبون للعودة إلى بلادهم؛ خشية أن يدركهم الحلفاء. وكان الوزير الألماني المفوض في بيروت «الهر روزر» قد اتخذ من فندق بارون مقرّاً له؛ يشرف منه على ترحيل مواطنيه في عربات خاصة وُضعت تحت تصرفهم.

عند الظهر اتجه كامل إلى القطار؛ وفي القطار رأى رهطاً من معارفه يتجهون إلى تركيا؛ من بينهم: عفاف الطيبي الذي سيعمل نقيباً للصحافيين اللبنانيين في الستينيات، والدكتور محمد حسن سلمان؛ وزير المعارف

في وزارة الكيلاني، والشريف محمد شرف نجل الوصي على العرش العراقي مع عائلة الوصي، وغيرهم من الهاربين من وجه الحلفاء، وتألفت حلقة عربية وسط القطار الحافل الذي يتجه من حلب إلى تركيا.

راح القطار ينهب الأرض نهباً، ودخل القطار منطقة إصلاحية أولى المحطات التركية، وأخذ يتسلق جبال طوروس. حينها هدأت نفس كامل من ملاحقة البريطانيين له، وفي لحظة ألقى كامل نظرة لبلاده، ولم يتمالك إلا أن تفر منه دمعة، وهاجس مجهول يهتف في أذنه: إنها نظرة وداع.. وبداية الغربة الطويلة!

يصل دُرُوءة أنقرة في يونيو/ حزيران ١٩٤١؛ حيث يجلس في فندق «جيهان بالاس»، لم يكن حديث عهد بالعاصمة التركية؛ إذ زارها أربع مرات قبل ذلك، ورغم انبهاره بالتحديث الذي أجراه أتاتورك في المدينة؛ فإنه شعر بالضجر منذ الأيام الأولى؛ فهي مدينة موظفين ودبلوماسيين ومدارس.

وصل كامل مُرُوءة إلى تركيا زمن الحرب العالمية الثانية، وبعد وصوله بعشرة أيام اضطربت أنقرة ذات يوم، ففي يونيو/ حزيران ١٩٤١، هاجم الجيش الألماني روسيا، وسقط النبأ كالصاعقة على أنقرة، وكانت تركيا تخشى من صراع ألمانيا وروسيا أن تفقد حيادها في الحرب، ويُرغمها المنتصر أن تكون من غنائم الحرب. وتاريخ تركيا مرتبط بروسيا؛ فهي بحكم الوضع الجغرافي تُعدُّ السد الوحيد الذي يمنع روسيا من التوسع نحو البحار الجنوبية. انطلق كامل مُرُوءة في شوارع أنقرة التي عَجَّت بالناس على وقع الخبر، ورأى مراسلي الصحف الألمانية والروسية

أصبحوا أعداء حتى الموت، رغم أنهم بالأمس كانوا مجتمعين حول مائدة واحدة في المقهى؛ يضحكون ويسمرون.

تجول كامل مُرَوَّة في حي السفارات، ورأى السفارة الألمانية بجانب السفارة الروسية. وبينما كان يفكر في غرابة الصدف في جعل العدوين جارين متلاصقين، لمح كامل سيارة البارون فرانز فون بابن؛ وهو سفير ألمانيا في تركيا، والمستشار الألماني الذي تنازل عن المستشارية لهتلر عام ١٩٣٣؛ انطلق البارون فون بابن متوجهاً إلى الرئيس التركي عصمت إينونو حاملاً رسالة تطمين من ألمانيا لتركيا، وتطور الأمر لعقد تركيا اتفاقاً مع ألمانيا بعدم الاعتداء. ويخبرنا كامل مُرَوَّة: «هل كان يحلم فون بابن وهو ذاهب إلى مهمته بأن صباح ذلك اليوم سيكون بداية السلسلة التي ستجعله متهماً في محكمة نورمبرغ لمحاكمة النازيين بعد الحرب العالمية الثانية؟» غير أن المحكمة برأته، وقد عاش حتى عام ١٩٦٩.

مع قدوم الصيف انتقل مُرَوَّة إلى إسطنبول، وشعر بوخزة في القلب؛ لأنه تمنى أن يكون اتجاه القطار جنوباً نحو لبنان. كانت هذه أول مرة يزور إسطنبول، أو دار السعادة، في الصيف، وينبهر بحياة المرح التي تنتشر على جانبي البوسفور، والسفن تطفو فوق مياهه في فصل الصيف. يتجول مُرَوَّة في أحياء إسطنبول، ويطوف في «حي باي أوغلو»؛ حيث تقطن الطبقات المنعمّة، والجاليات الأجنبية، ويرى منازل إسطنبول القديمة؛ التي بُني أكثرها من الخشب، وكان كلما ألقى أحدهم سيجارته المشتعلة على الأرض؛ هدد المدينة بحريق كبير. ولم تكن أخبار الحرب لتعكر صفو أهل إسطنبول؛ وفسر مُرَوَّة ذلك بأن أهل إسطنبول اعتادوا

مع الزمن على القلق؛ لأنهم يعيشون منذ أكثر من ألف سنة حياة الإمبراطورية والحروب.

بدأت تركيا تستقبل نخبة من العرب الهاربين من الحلفاء في الشرق؛ ها هو الأمير عادل أرسلان (شقيق شكيب أرسلان) يصل إلى أنقرة، وينتقل إلى إسطنبول، ثم يتبعه الناشطون العرب؛ مثل نبيه العظمة، وعادل العظمة، وهم من رجالات السياسة السورية. وسجل نبيه العظمة في إحدى أوراقه، ذكرياته عن تلك الفترة في تركيا؛ حيث ترك حلب عندما كانت طلائع الجيش الإنجليزي تدخلها، وبعد أن فهم أن رشيد الكيلاني، والحاج أمين الحسيني، وقادة الجيش العراقي تركوا بغداد، وتوجهوا إلى إيران، ثم إلى تركيا. ومن فلسطين وصل عزة دروزة، وأكرم زعير، وواصف كمال، وهو رجل أعمال فلسطيني تولى لاحقاً رئاسة البنك العربي في دمشق في الخمسينيات، ومن العراق طه باشا الهاشمي، والزعيم رشيد عالي الكيلاني.

كانت إسطنبول فرصة لهؤلاء الزعماء للتقاط الأنفاس، وللتفكير في الخطوة السياسية القادمة. وهكذا أصبحت المدينة في أقل من أسبوعين مجمعاً للناشطين العرب الذين آثروا الغربة على البقاء، وأصبح اللسان العربي في مقدمة اللغات التي يسمعونها المارة في شارع الاستقلال، ولم يخلُ مقهى أو مطعم أو فندق من العرب؛ حتى قال أحد الأتراك لكامل مروة: «كأننا في عهد مجلس المبعوثان؛ يوم كان النواب العرب يفدون إلى إسطنبول في مواسم معينة؛ فيملأون العاصمة على قلة عددهم عربوة وعرباً».

كان السؤال الذي يشغل بال مروة آنذاك: لماذا لم تقدّم ألمانيا المساعدة الجذبة لحركة الكيلاني ضد بريطانيا؟ والإجابة يشرحها في

كتابه: برلين بيروت برلين الذي سجّل فيه سيرة هذه المرحلة، وهو أنها كانت مشغولة بالإعداد لحربها مع روسيا. استطاع كامل مُروّة الاتصال بعدد كبير من السفراء؛ مثل السفير الألماني الذي دعاه إلى مقر القنصلية الألمانية.

وأهم ما كان يشغل بال المغتربين العرب في إسطنبول في تلك الأيام مصير المفتي الحاج أمين الحسيني ورفاقه، بعد الهجوم البريطاني الروسي على إيران، ورحلة هروب المفتي إلى ألمانيا. في تلك الأثناء، وصل رشيد عالي الكيلاني إلى تركيا بعد أن التجأ إلى طهران حين فشلت حركته، وطلب اللجوء السياسي في تركيا، ووافقت الحكومة في أنقرة، وطلبت منه أن يُوقّع كتابًا يتعهد فيه بالامتناع عن كل عمل سياسي؛ حتى تحافظ تركيا على حيادها؛ لكن الكيلاني فرّ إلى ألمانيا؛ حتى يجتمع بالقيادات العربية التي أخذت تجتمع هناك؛ مثل فوزي القاوقجي وغيرهم، وعلى إثر مغادرة الكيلاني بدأ العراقيون في التوجه إلى ألمانيا، وانتهى العمل السياسي العربي المنظم سرّياً.

لم يشعر كامل مُروّة بالغبرة في تركيا؛ كما يخبرنا في كتابه، لكنه كان تحت رقابة البوليس؛ خوفاً من أي تحركات سياسية تُخرج حياد تركيا، وكانت إسطنبول في تلك اللحظة من الحرب العالمية الثانية مركزاً للجاسوسية يجتمع فيها الصحفيون والمراسلون ورجال المخابرات؛ لأنها كانت السدّ الفاصل بين الطرفين المتحاربين.

يكمل كامل مُروّة حكاية تجاربه في إسطنبول، حتى أوقفته الشرطة؛ خوفاً من أي اتصالات بينه وبين سفارات أجنبية، ولكونه صحفياً يعشق الأخبار ومصادر المعلومات؛ أوقعه هذا الأمر في ربكة شك من الجهات

الرقابية، وفي أثناء الجلوس في قسم الشرطة قابل يهوديًا قادمًا من ألمانيا؛ دخل تركيا بلا جواز سفر، وهو ينتظر تأشيرة للدخول إلى سوريا، وجلس يحدثهم عن مغامراته من برلين إلى إسطنبول، وهز واصف صديق مُروّة رأسه وقال: «سبحان الله! هو ذا يهودي هارب من أوروبا إلى سوريا، ونحن عرب هاربون من سوريا إلى أوروبا؛ وكلاهما يلتقيان في هذه الحجرة، ما أغرب المصادفات وأقدار التاريخ!» انتهى التوقيف بأن يخرج كامل مُروّة من تركيا إلى ألمانيا؛ لينضم لنواة العرب الذين انتقلوا إلى هناك. خرج من تركيا وهو يشعر بأنه أدّى بمهمته في دعم القضية العربية، ولم يترك شخصية تركية أو محورية أو حليفة إلا اتصل بها.

على حدود بلغاريا في إدرنه، قابل مُروّة شابًا عربيًا يبيع الشاورما، وسأله مُروّة عن قصته؛ وكان من حمص، واسمه خالد الموسر؛ خدم في الجيش التركي في عهد سفر برلك، وحارب مع إخوانه الثلاثة في معركة إدرنه سنة ١٩١٢؛ فقتلوا جميعًا فيها، ولما كان إخوانه آخر من بقي على وجه الأرض من أحبائه وأهله، أقسم أن يقضي بقية أيامه في أدرنه، وأن يُدفن إلى جانبهم، وروى الرجل القصة لكامل مُروّة، ودموعه تنهمر من عينيه، والזبائن يَفْذُون إلى المحل، ويصرفهم بالإشارة.

عندما خرج كامل مُروّة من بيروت، توقّع غربة تدوم ثلاثة أشهر، وبعدها يعود إلى لبنان؛ لكن الغربة أصبحت بالسنوات؛ لأنه شتان بين حسابات مُروّة وحسابات القدر؛ فكّر وهو متكئ على حافة النافذة في القطار الذي يغادر تركيا في قول الشاعر:

مشيناها خُطى كُتبت علينا

ورغم أن الفترة التي قضاها في إسطنبول قصيرة نسبيًا؛ فقد كان في اجتماعه مع الناشطين العرب فرصة للهرب من ملاحقات بريطانيا لهم.

(١٨) زكي كرام: تاجر سلاح عثماني-ألماني بعد الحرب العظمى

أرسل لي صديقي صورة غلاف كتاب صادر عن دار الكتب والوثائق القومية المصرية بعنوان: وثائق تجارة السلاح في الجزيرة العربية: قراءة في أرشيف زكي كرام، تأليف د. عمر رياض، وفكّرت: من يكون زكي كرام، وما هي علاقته بتجارة الأسلحة في الجزيرة العربية؟ بحثت عن الكتاب، وجلست أطلعه حتى أفهم محتويات أرشيف هذا الرجل.

اكتشاف أرشيف زكي كرام

يحكي لنا د. عمر رياض قصة تعرّفه على زكي كرام؛ ففي عام ٢٠٠٤ كان يعد رسالته للدكتوراه عن مجلة المنار، وعندما عاد للأرشيف الخاص بالشيخ محمد رشيد رضا، الذي كان في حوزة أحد أحفاده، وقعت عيناه على بعض الخطابات الموقّعة بيد شخص غير معروف تحت اسم الدكتور زكي حشمت بك كرام في برلين. وفي الرسائل يُحدّث كرام الشيخ رشيد رضا عن حوادث وعلاقات مهمة له في برلين، ويطلب منه الشيخ رضا أن يترجم، ويلخص له أعمالاً استشراقية ألمانية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتخبرنا الرسائل عن طلب تقدّم به كرام للشيخ رشيد رضا أن يتوسّط له عند الملك عبد العزيز آل سعود وابنه الأمير فيصل في بعض الصفقات التجارية.

عاد الباحث د. عمر رياض إلى مكان عمله في كلية الأدبان في جامعة لايدن، وبدأ رحلة البحث عن هذا الشخص. بحث في دليل الهواتف الخاص بألمانيا على الإنترنت؛ لعله يجد أحدًا من عائلة كرام، أو أحفاده؛ وبالفعل وجد ثلاثة أشخاص يحملون نفس الاسم العائلي في ألمانيا كلها؛ تواصل مع أحدهم، وسمع صوتًا رخيماً لشخص قد بلغ من الكبر عتياً، وسأله بالألمانية: «هل هذه عائلة زكي حشمت كرام؟» فأجاب الشخص: «نعم أنا ابنه»، ومن هنا انتهالت المفاجآت التاريخية، وسافر الباحث لزيارة هارون الرشيد؛ ابن زكي كرام، البالغ من العمر ٨٨ عامًا، والذي يسكن قرب مدينة شتوتجارت؛ حيث يحتفظ بوثائق والده.

وُلد زكي حشمت في مايو/ أيار ١٨٨٦ في سوريا، وعاش فترةً شهد فيها العالم العربي حركة قومية قوية؛ وقفت في وجه الاستعمار. بدأ كرام دراسته العسكرية الأولى طالبًا عسكريًا في إحدى المدارس العسكرية في دمشق، ومنها انتقل إلى إسطنبول؛ حيث أكمل دراسته في الأكاديمية العسكرية العثمانية، وفي سنِّ الثامنة عشرة عُيِّن ملازمًا في الجيش العثماني؛ حيث أُرسل إلى البلقان لقيادة كتيبة مكونة من ٨٠٠ جندي مسلم لمحاربة الميليشيات الصربية هناك، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى عُيِّن قائدًا لقوات البدو في العريش في شبه جزيرة سيناء؛ حيث أصيب في أواخر عام ١٩١٦ بجروح خطيرة في ساقه اليسرى من شظية بالقرب من قناة السويس، وبعد عدة عمليات جراحية فاشلة في القدس، انتقل للعلاج في برلين في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧؛ حيث كان هناك تحالف بين الدولة العثمانية، وألمانيا في الحرب العظمى.

زكي كرام في برلين

يخبرنا د. عمر رياض أن كرام كان يقتل وقته، في أثناء علاجه في برلين، في كتابة مذكرات خاصة، وقد وجدها الدكتور عمر عند ابنه؛ وكان زكي يحكي فيها عن حياته وسط المرضى والأطباء، وانطباعاته عن مدينة برلين، في تلك الأثناء؛ حدثت نقطة تحول جذرية في حياته التي تكلم عنها بشكل موسّع في مذكراته؛ وهو طلب الطلاق الذي تقدمت به زوجته الأولى التركية جمنية؛ التي كانت تنتمي إلى عائلة ميسورة الحال في إسطنبول؛ لكنها طلبت الطلاق من كرام بعد ضغط من عائلتها؛ وذلك بسبب إعاقته وغيابه الطويل في برلين. كان زكي يكتشف مدينة برلين، ويزور القنصلية العثمانية؛ ليحصل على معاشه الشهري، وانضم إلى جمعية الطلاب العرب في برلين.

أكثر زكي من التردد على متجر كتب مقابل المستشفى، وكانت تعمل فيه جروتروند نيوندورف؛ وهي السيدة التي سيتزوجها عام ١٩٢٠. نستمر في قراءة المعلومات التي يقدمها د. عمر رياض من خلال أوراق زكي كرام وأرشيفه، معلومات تتكشف أمامنا؛ مثل الروايات التي تزداد فصولها إثارة كلما تقدمت فيها.

أخذت أنذكر الأرشيف الذي حصل عليه نوم ريس من ناشر كتب ليف نوسمباوم الذي أسلم، وأطلق على نفسه اسم قربان سعيد، وعاش في ألمانيا في فترة قريبة من فترة زكي كرام؛ وقد اعتمد نوم ريس على هذا الأرشيف في كتابة سيرة لقربان سعيد في كتابه المهم والممتع: المستشرق: في فض حياة غريبة وخطيرة.

الأرشيف يساعدنا على رؤية زوايا التاريخ الغامضة؛ كنت أمضي في قراءة هذه الأوراق، وأنا أحاول الربط بين تاريخ حياة زكي كرام وبين حياة رشيد رضا الذي اهتمت به وبرحلاته، وكتبْتُ عنه قبل ذلك؛ محاولاً الوصول لتواصل بين زكي كرام وشكيب أرسلان؛ والذي كشف وليم كليفلاند في كتابه المهم عن سيرة حياته خصوصاً نُشِرَت لأول مرة من الأرشيف الأممي البريطاني والفرنسي الذي تتبَّع حياة أرسلان، وراقبه عن كثب؛ بل إن الأمن السويسري كان حريصاً على مراقبة هاتف هذا الناشط الذي يعيش في جنيف.

جمعت كرام صداقة بالأمير شكيب أرسلان في أثناء إقامة الأخير في برلين، ويبدو أن شكيب أرسلان كان من الأسباب الرئيسة وراء الدور السياسي والعسكري الذي لعبه كرام منذُ هجرته إلى برلين. وألَّف كرام في سنوات إقامته في برلين أعمالاً باللغات: العربية والألمانية والتركية، لكن معظمها لم ير النور، وقد فشل في نشر هذه الأعمال بسبب عدم قدرته على الحصول على تصريح للنشر والطبع.

التقى الشيخ رشيد رضا بزكي كرام أول مرة في الثالث عشر من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢١ في برلين أثناء زيارته الوحيدة إلى ألمانيا، بعد حضور أعمال المؤتمر السوري / الفلسطيني أمام عصبة الأمم في جنيف، ونمت علاقة تواصل ومراسلة بين رشيد رضا وزكي كرام، واستمرت هذه المراسلات والنقاشات بينهما؛ وكان بعضها استفسارات من زكي عن أمورٍ في الدين الإسلامي.

كرام وبيع السلاح للإمام يحيى في اليمن

احتاج الإمام يحيى إلى تسليح قواته في اليمن؛ حيث كانت لا تملك إلا بعض البنادق التي تركها الأتراك وراءهم، واشترى الإمام من شخص يُدعى إسرائيل الصبيري؛ وهو من يهود اليمن، ووكيل لإحدى الشركات النمساوية - كميات من البنادق والرشاشات والمدافع، واشترى أسلحة خفيفة من زكي كرام، وقد حمل سلاح الماوزر/ بندقية الجرمل، اسم زكي كرام في اليمن إلى الآن، ونرى في الكتاب اقتباساً طريفاً لأحد الرُحالة الإنجليز في اليمن في رحلته عام ١٩٣٨ قائلاً: «إذا رأيت ألمانياً في الشرق الأدنى؛ فهو إما يسجل أغاني الجرامافون، أو يبيع الأسلحة إلى المتحاربين في تلك البلاد».

بناءً على دعوة من الإمام يحيى؛ سافر زكي كرام إلى صنعاء في عامي (١٩٣٠-١٩٣١)؛ من أجل التحضير لصفقات الأسلحة المستوردة من ألماني. وقد رُشح شكيب أرسلان زكي كرام للتعامل مع الإمام يحيى في رسالة إلى الإمام يحيى؛ ليثق به؛ لأنه مسلم صادق وخبير في مجال العسكرية.

في يوليو/ تموز ١٩٣٠ عقد كرام أول اتفاق مع الحكومة المتوكلية؛ ويُلزم هذا العقد زكي كرام باستيراد عشرة آلاف بندقية ماوزر ألمانية طويلة، وألف بندقية قصيرة لصالح الحكومة اليمنية، وفي زيارته عام ١٩٣٦ إلى اليمن طلبت الحكومة اليمنية من كرام توريد عشرة آلاف بندقية، وعشرة ملايين خرطوشة من الماوزر؛ مقابل ثلاثة جنيهاً فضية عن بندقية.

في عام ١٩٣٦ أرسل القاضي عبد الله العمري رسالة إلى كرام يُبلغه برغبة الإمام يحيى في التعاقد معه مرة أخرى على توريد عشرة آلاف قنبلة ماوزر جديد. كانت هذه الصفقات بعلم السلطات الألمانية التي يتواصل معها كرام. يشتكي كرام في أحد رسائله إلى الألمان من أن الكل أصبح يريد عمل صفقات؛ بل ومنهم من يريد أن يصبح مليونيرًا بسرعة كبيرة؛ ويضرب المثل في ذلك بالابن الأصغر للإمام. ويبدو أن السوق اليمني للسلاح كان واعدًا؛ حيث دخل تاجر آخر اسمه توماس ونافس زكي كرام؛ بل إنه احتال احتيالًا كبيرًا على الحكومة المتوكلية في اليمن؛ حيث حصل على دفعة كبيرة من المبلغ مقدمًا، ثم تعاقد على شحنة سلاح، وبذل وجهتها إلى الموالين الشيوعيين الأسبان. وكانت عملية احتيال على اليمن، جعلت حكومة الإمام لا تدفع أي مبالغ نقدية مقابل الأسلحة إلا عند وصولها إلى الموانئ. وفي إحدى الرسائل يطلب كرام من الإمام يحيى أن يدفع له ثمن السلاح شحنة بُن يمني لاختبار السوق في أوروبا.

زكي كرام وآل سعود

عمل كرام على الاتصال بمملكة الحجاز، وملحقاتها (المملكة العربية السعودية فيما بعد)؛ لإقناعهما بأهمية السلاح الألماني في تسليح الجيش العربي؛ تواصل كرام، كما يتضح من الكتاب، بالأمير (الملك لاحقًا) فيصل بن عبد العزيز، واتصل كرام أيضًا بفؤاد حمزة ويوسف ياسين؛ وهما من المستشارين والخبراء في حكومة الملك عبد العزيز، ولعبا دورًا في العلاقات الخارجية أثناء تأسيس المملكة.

أرسل زكي كرام رسالة إلى فؤاد حمزة في عام ١٩٢٩؛ يخبره فيها عن تفاصيل البنادق الألمانية، وطلب منه حمزة عشر بنادق لاختبارها. وفي أثناء زيارة الأمير فيصل بن عبد العزيز إلى برلين في مايو / أيار ١٩٣٢، كان كرام من مستقبليه الرسميين في المطار وأحد مرافقيه، وفي أغسطس / آب ١٩٣٤ أهدى كرام الملك عبد العزيز شخصيًا بندقية إنجليزية؛ بل إنه عرض فكرة بيع صوف الأغنام السعودي في السوق الألماني، وأرسلت له الحكومة السعودية اثنين كيلو من الصوف في طرد لعرضها على الشركات الراغبة في ذلك، وتعثرت صفقات السلاح بين الطرفين؛ على عكس تجربته الناجحة مع اليمن، وتواصلت معه الحكومة السعودية؛ ليحصل لها على عروض أسعار الماكينات، وبعض المنتجات الصناعية، لكن يبدو أن الحكومة كانت تتواصل مع أكثر من شخص للحصول على أسعار مختلفة، وانزعج زكي كرام من إسناد الأمر لشخص غيره، وطلب من رشيد رضا التوسط لدى الحكومة السعودية؛ لتعتمده وكيلاً لها.

كرام ومحاولاته لعقد الصفقات مع دول أخرى

في مارس / آذار ١٩٢٨ اتصل كرام بالديوان الملكي العراقي في بغداد؛ يستفسر عما إذا كانت لدى الحكومة العراقية رغبة في إبرام صفقات للتسلح عن طريقه في برلين، وبعد فترة اتصلت به وزارة الدفاع العراقية تطلب منه إرسال كتالوجات سلاح؛ لكنها اعتذرت له سريعاً بأن الجيش العراقي ليست لديه حاجة إلى جلب أي من هذه المعدات.

نرى في الكتاب محاولات زكي كرام التواصل مع الأمراء العرب؛ مثل تواصله مع أمير الكويت أحمد جابر الصباح؛ لعقد صفقات تسليح

مع بعض الشركات الألمانية؛ طلب الأمير نوع الماوزر عيار ٧/٩٢، وأرسل كرام ثلاث بندقيات، لكن الأمير لم تعجبه، وأرسل ثمنها عبر حوالة بريدية، وطلب زكي كرام جواز سفر كويتياً يمكنه من السفر في البلاد العربية، وقد اعتذر له الأمير عن هذا الطلب.

يوضح د. عمر رياض وجود وثيقة في أرشيف كرام العائلي تحت توقيع القنصل الأفغاني في برلين؛ تُفَوِّضُ كرام بالنيابة عن الحكومة الأفغانية بإنهاء صفقة شراء ٥٠٠٠ بندقية من نوع لي إنفيد، مع ألف خرطوشة، ويحق لكرام التفاوض باسم الحكومة الأفغانية في الاتفاقات.

بعد ذلك عمل زكي كرام مذيعة في إذاعة برلين، ونشأت علاقة صداقة بينه وبين يونس بحري، وطبقاً لرواية يونس بحري عن زكي كرام؛ فهو يراه عميلاً للبريطانيين، ويُخرج المعلومات عبر سفارة فيينا، وحكى قصة طويلة في مذكراته عن تشكُّك الألمان في ولائه، ويقول إنه بقى تحت المراقبة طيلة الحرب، لكن العجيب عدم اعتقال الألمان له؛ مع تيقنهم من عمالته للبريطانيين كما يقول بحري؛ ويسبب هذا الشك فصل من إذاعة برلين، ونكتشف من وصف يونس بحري لزكي كرام أنه كان شديد البخل، وأنه ما إن يسمع باسم زعيم عربي حتى يكتب له رسائل ويتواصل معه؛ ليعقد له الصفقات، ويقوم بعمليات السمسرة. ونرى في أحد حواشي الكتاب معلومةً طريفةً عن تسجيل صوتي لزكي كرام عبارة عن إعلان لشركة سيمنز الألمانية؛ بحث فيها الشرقيين على شراء منتجاتها؛ للجمع بين روحانية الشرق ومادية الغرب.

كانت نهاية حياة كرام درامية مثل محطات حياته؛ حيث تم اعتقاله من قبل القوات الأمريكية التي دخلت برلين، بعد نجاح قوات الحلفاء في هزيمة ألمانيا؛ ويوضح الكاتب أن سبب اعتقال كرام غير واضح، لكن يبدو أن عمله في تجارة الأسلحة، وعمله مترجمًا في إذاعة برلين، وعلاقته مع وزارة الشؤون الخارجية في الحكومة الألمانية جعلته من المطلوبين، وفي المستشفى أرسل بعض الرسائل لأصدقائه؛ مثل محب الدين الخطيب، والإمام يحيى في اليمن.

كانت قراءة هذه الأوراق مثيرة للحسن التاريخي، وشعرت بالجهود الذي بذله د. عمر رضا في تفسير ملابس كل وثيقة، وتوضيح سياقها التاريخي، والعودة إلى المصادر لفهم الأحداث؛ تكشف الوثائق عن بعض التحالفات من المفكرين العرب في ذلك الوقت؛ مثل: رشيد رضا، وشكيب أرسلان، وأمين الحسين؛ الذين كانت نشاطاتهم تتعدى الجانب الفكري، وإصدار المجلات، ونشر المقالات؛ بل تعدت إلى تكوين شبكة علاقات سياسية، ومصالح بين الدول والحكام في هذه الفترة، ولا شك أننا نشعر بأهمية قراءة أحداث وجدالات تاريخ المنطقة من خلال سيرة شخص وُلد في سوريا، وبدأ حياته جنديًا عثمانيًا، ثم أنهاها موظفًا في ألمانيا النازية، تلاحقه اتهامات بالعمالة لبريطانيا.

(١٩) مغامرات جبرائيل ورد: الجندي السوري في ثلاث حروب

سهرتي الليلة مع كتاب عجيب بعنوان: الجندي السوري في ثلاث حروب؛ وهو كتاب نادر حقًا؛ فهو سيرة لشخص يدعى جبرائيل إلياس ورد، من مواليد طرابلس في لبنان، إذا كتبت اسمه على جوجل، لن تجد له ذكرًا، ولن يظهر لك إلا عنوان هذا الكتاب، أما قصته وتجربته الطريفة؛ فلن نعرض عليها.

عاش جبرائيل شبابه في أمريكا، وسجّل مذكراته عام ١٩١٩، وطُبِعَ الكتابُ على نفقة سليم أفندي ملوك؛ أحد التجار السوريين في نيويورك، وحكى جبرائيل في الكتاب قصة تطوّعه في الجيش الأمريكي، واشترائه مع الأمريكان في ثلاث حروب؛ هي الحرب الإسبانية الأمريكية ١٨٩٦، وتدخل القوات الأمريكية في الفلبين ١٩٠٥، والحرب العالمية الأولى ١٩١٤.

يخبرنا جبرائيل في المقدمة أن هذا الكتاب لا يُعالج المواضيع الاجتماعية والفلسفية؛ بل الكتاب بمنزلة «اختبارات اختبارتها، وغرائب شاهدها، وأحوال صادمته» وصادمتها إبان ثلاث حروب كنتُ فيها محاربًا؛ دفعتني الرغبة لبسط حقائقها ووقائعها أمام قراء العربية». ويؤكد مرارًا أنه ليس بكاظم، ولا يحاول أن يعظ الناس؛ بل قصده أن يُدوّن

حوادث، وعوامل نفسية؛ لا يراها ولا يشعر بها إلا من خاض المعامع، وسمع دوي المدافع، وشهد لمعان الحراب؛ على حدّ وصفه.

يبدأ الكتاب بتحية للراية الأمريكية، والكتاب أقرب إلى الدعاية للجيش الأمريكي. لكن خلال الكتاب نرى الكثير من القصص عن حياة الجنود. وتميزت لغة جبرائيل إلياس بالفخامة والجزالة، ويشرح لنا جبرائيل سياق الحرب الأمريكية الإسبانية حول كوبا، وتدخل الحكومة الأمريكية في الحرب، وانضمام فرقة من أصدقائه للتطوع في الجيش، وعن مراحل التقدم والاختبارات؛ وصولاً إلى الانتقال لجبهة القتال.

في الثلاثين من شهر مايو/ أيار من عام ١٨٩٨، أقلت السفينة من مرفأ تامبا تحمل خمسة عشر ألف جندي، وكان منهم الكاتب جبرائيل، الذي يصف لنا وصولهم إلى جزيرة كوبا، وحالتهم البدنية عندما وصلوا إلى الجزيرة، وقد أنهكهم الجوع، فأخذوا يأكلون الفاكهة، ويشرح لنا طعام الفطور؛ حيث وُزعت عليهم فاصولياء محفوظة في علب، وعلبتان من البندورة المحفوظة، وعشرون قطعة من الخبز المُقَدَّد، وساعدته قدرته على التحدث بالإسبانية على التميّز في صفوف الجيش الأمريكي؛ حيث قدم خدماته في الترجمة. تعرف جبرائيل على القائد العسكري ثيودور روزفلت بسبب معرفته، أي جبرائيل، بالإسبانية، وروزفلت قائد هذه الحرب سيصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك (١٩٠١-١٩٠٩).

نجد في سرد الجندي لقصة أيامه في الجيش الأمريكي الكثير من المواقف؛ مثل ارتبائه من صوت الرصاص، وشعوره بالخوف والتردد،

ثم تعود على القتال؛ حتى أصبح صوت الرصاص أقرب إلى الضجة في مهرجان عُرس، وهو يحكي مواقف عجيبة؛ مثل موقف قتل إسباني لزميله في الجيش الأمريكي، وعندها طعن جبرائيل الإسباني في عنقه؛ مات على إثرها هذا الجندي، وهو يخبرنا بشعوره بعد هذا القتل بأنه: «طابت نفسه، ووجد في هذا الانتقام السريع لذة فائقة».

بعد إصابة جبرائيل في إحدى المعارك أغشي عليه، ثم استفاق ليجد نفسه في عناية الصليب الأحمر؛ وجبرائيل محبٌ للغزل والفتيات؛ لا يفوت فرصة؛ حتى وإن كانت نادرة لظهور سيدة أو فتاة التقى بها؛ إلا ويحكي عنها، ويتغزل في جمالها؛ يقول عن الممرضة: «كانت صبية أشبه بالملائكة منها بالبشر؛ يزين صدرها صليب أحمر، فتطلعت في نظرة ملئها الحنان والشفقة، وهي تبسم ابتسامة أنستني آلامى وأوجاعى؛ لأنها كانت ابتسامة بعيدة عن كل غش وخداع».

سرد جبرائيل يتميز بالصدق الفني في التعبير عما جرى له؛ نرى شخصية تشبه شخصية المغامرين والشطّار، وفيها شيء من أخلاق الفهلوة والنصب، نراه يدخن سيجارته وهو عائد من الحرب جالساً في القطار، وتحرق السيجارة القبة العسكرية دون أن ينتبه، وتحدث عدة ثقوب فيها؛ حتى يخيل للناظر فيها أن القبة خاضت غمار المعركة معه. وفي رتشمند في فيرجينيا، يرى حفاوة الجمهور بأبطال كوبا، وجاءه أحد الأثرياء، وسأله عن القبة: «هل شاركت في القتال معك؟ فإن أثر الرصاص ظاهر في جوانبها؟» فأجاب جبرائيل: «نعم! إن رصاص موقعة سان جون قد فعل ذلك»، وباعها جبرائيل بخمسة وعشرين دولاراً، وفي

رحلة العودة بالقطار اشترى جبرائيل قبعات بعض الجنود، وجلس يثقبها بنار السيجارة؛ لبيعها للأمريكان في المحطات التي يتوقفون فيها.

نتوقف في النص على نظرات الإعجاب من الفتيات له، وعندما قابلته صبية يصفها بأنها من حور الجنان، وتقدمت له وقالت له: أرى أن يدك مجروحة؛ فهل تسمح لي أن أقطع اللحم لك؟ وجلست تطعمه وهو يتعلل بأن اليد الأخرى مشلولة بالروماتيزم؛ فجلست إلى جانبه تُلقمه؛ كما تُلقم الأم الرؤوم رضيعها، ثم يخبرنا أن على القارئ أن يتصور كيف كان طعم ذلك الطعام في فمه، وأمنية جندينا أن يكون له بطن الحوت الذي بلع النبي يونس، وأن تتولى تلك الحساء ملته.

وصل القطار إلى واشنطن، واستقبلهم الرئيس الأمريكي ماكنلي، ووزعت على الجنود علب السجائر وصناديق الحلوى، وفي إحدى المرات اقترب منه أحد الأثرياء وسأله: «هل أنت من سكان كوبا؟» فردّ جبرائيل: «بل أنا سوري»، ورد الأمريكي: «يا مسكين، وما شأنك بالحرب؟»، ويردّ عليه جبرائيل بمرافعة عن شرف الراية الأمريكية الظافرة، وجلس الأمريكي يُردّد كلمة: «مسكين مسكين»، ثم سأله الرجل الثري عن أحد زملائه من الجنود؛ فقد كان هذا الرجل هو والد الجندي الأمريكي، وقد قُتل ابنه في الحرب، وكان جبرائيل يعرفه.

تتعجب من صدق جبرائيل وصراحته؛ فهذا الجندي الذي قُتل كان جبرائيل يلخّ عليه لكي يشاركه السجائر، ويخبرنا أنه عندما رفض هذا الجندي إعطاء جبرائيل السجائر دعا عليه قائلاً: «إن شاء الله؛ أنك تموت غداً»، ووقع المقدّر في اليوم التالي، ولا يخجل جبرائيل من حكاية أنه مدّ

يده إلى ملابس الجندي المقتول، وأخرج علبة الدخان وأشعل سيجارة، وهو يلتفت إلى جثة زميله المطروحة أمامه ويقول: «رحمك الله يا من فرّجت كربى، والله لا أبدل هذا الدخان بثقله ذهبًا!»

كان جبرائيل يردد في كل مكان أنه جندي سوري غريب في بلاد ليس له فيها أحد؛ حتى إن صحيفة كتبت خبرًا عنه، وأنه لا يوجد لديه مال، فاستلم تبرعات من بعض الأثرياء؛ لكي يسافر إلى نيويورك.

في حالة السلم نرى نشاطه السياسي؛ نرى مجتمعًا للسوريين العرب في نيويورك، وجمعية باسم «المتدى السوري الأمريكي» تقيم احتفالًا بعودة بعض الجنود المشاركين في الحرب، وعقب الاحتفال جلس بعض أعضاء الجمعية، وتناقشوا حول ظهور جمعية «تركيا الفتاة» ضد السلطان عبد الحميد الثاني، وقرر المجتمعون، ومنهم جبرائيل، إنشاء جمعية باسم «سوريا الفتاة» تعارض الدولة العثمانية من أمريكا، وتنشر المقالات في الصحف؛ بل تنظّم بعض المظاهرات ضدها. انزعج السفير العثماني في الولايات المتحدة من هذه الجمعية، ونشر في بعض الجرائد الموالية له مقالات تردّ على أفكار «سوريا الفتاة». من العجيب أن هذه المذكرات تنقل لنا صورة من النقاشات المحترمة بين أنصار الدولة العثمانية ومعارضيه في بلاد المهجر، وقد امتدّ نشاط الجمعية لاستقبال الكاتب سليم سرّكيس الذي سافر إلى أمريكا، بعد طلب الحكومة التركية من مصر تسليمها إياه.

اعتزل جبرائيل الجندية فترةً بعد عودته إلى أمريكا، وبعد مدة طلبت منه الحكومة مرافقة البعثة التي سترسلها لإحضار رُفات الجنود الذين

صُرعوا في الحرب الأمريكية الإسبانية، وعاد جبرائيل مع أول باخرة من كوبا إلى الولايات المتحدة تنقل ٧٠٠ جثة في التوايت، بعد أن مقتت نفسه تلك المناظر الرهيبة، والروائح القذرة؛ قرر التوقف عن العمل وعاد إلى نيويورك، وعندما عاد التقى أحد القادة الذي عرض عليه التطوع للذهاب لجزر الفلبين؛ وفي الفلبين لم تكن هناك معارك كبيرة؛ بل صراع أقرب إلى الحرب الخاطفة، أو حرب العصابات، ونراه يسرد بعضًا من مغامراته وحيله في الفلبين، وكيف تنكر كبائع يحمل المتجات على كتفه ليعتقل أحد المطلوبين، وقضى جبرائيل ثلاث سنوات في الفلبين، وعاد إلى واشنطن، وتعلم قيادة السيارات وتصليحها، وقضى في هذه المهنة ثماني سنوات؛ وليته حكى لنا عن سنواته خارج الجندية ورؤيته للمجتمع الأمريكي.

في سبتمبر/ أيلول عام ١٩١٤، سمع جبرائيل بالحرب العظمى؛ أي الحرب العالمية الأولى؛ وتزامن ذلك مع خسارته بضاعته في محل صغير التهمته النار، ورأى في خسارته المادية دليلًا على وجوب التطوع في الجيش، ويحكي لنا القلق الذي لازم الجنود فيما يعبرون المحيط الأطلنطي على إحدى السفن، يساورهم القلق من هجوم الغواصات الألمانية، وظلوا ستة أيام في عرض البحر وشبح الموت مُصَوِّرُ أمامهم، إلى أن بلغوا ميناء ليفربول بسلام، وفي إبريل/ نيسان ١٩١٦، سافر من إنجلترا إلى فرنسا، وشارك في معركة السوم الشهيرة.

تبدو قيمة الكتاب عندما يستغرق جبرائيل في وصف حياة الخنادق وطرق العيش فيها، ونشاطهم اليومي في الخنادق؛ وهنا نلتقط صورة جندي عادي بعيدًا عن الدعاية السياسية للدول؛ يصف لنا تاريخ الحرب

من أسفل، وهو يصف تلك المشاعر بقلم رفيف؛ يقول عن الجندي الذي يحتاج لنور الشمس بسبب رطوبة الخنادق. إن هذا الجندي الذي يخرج من الخندق ليتمسك الدفء والهواء النقي «يقي أليف الهواجس، وسمير القلق؛ إذ لا يعلم متى يهجم الأعداء مباغتتين؛ فتستعر نار المعركة، وقد يكون جسده أول الوقود لها».

يذكر جبرائيل أن أشهى ساعات الجنود في الخنادق في الساعة السابعة صباحاً؛ حينما يوزع عليهم شراب الرم، والذي يصف شعوره بعد شربه؛ إذ يتجرعه الجندي فيشعر بتولد الحرارة في جسمه، وبقوة في عضلاته، وتجدد في قواه؛ بل إن بعض الجنود يدخلون موجة ضحكٍ ومجون، وينسون أنهم في ساحة المنايا، ولا يعلمون متى تفارق أرواحهم أجسادهم، ويصف لنا فرحة الجنود بوصول الرسائل من أهلهم، وهو يصف وجوه الجنود في الخنادق بأنها أشبه بوجوه الرهبان الشرقيين منها إلى سخنات الغريبيين؛ فكلها مكسوة بالشعر والملابس؛ لا يتم تبديلها إلا كل فترة طويلة؛ حتى إنه كتب: «لو زرع الفجل على ملابسنا لوجد له تربة ليتأصل وينمو». ويحكي عن القمل المتشربين الجنود، وعن الخوف من سطوة الجرذان التي يخافون منها أكثر من الألمان؛ بسبب عضات أسنانها، ونجد في أحد سطور الكتاب حديثاً عن جنود عرب من سكان الجزائر التي كانت تابعة لفرنسا؛ لكنه يحكي عن شدة قتالهم في المعارك لدرجة قطعهم آذان الألمان، ونظم تلك الآذان في عقود.

هكذا نمضي مع المؤلف في رحلته وتجربته وما شاهده؛ تمنيتُ لو حكى أكثر عن سنواته في أمريكا، ومصادر ثقافته؛ لغته العربية جميلة، وهو يستشهد بالشعر كثيراً، وينقل شعر إيليا أبو ماضي فَرِحًا بسقوط

الخلافة، ويتابع الصحف العربية التي تصدر في أمريكا الجنوبية والبرازيل، وقد شعرتُ بئدرة هذه الشهادة من جندي مقاتل في بلاد بعيدة، وتذكرتُ ما دونه الجندي إحسان الترجمان في كتاب عام الجراد عن سنواته في الحرب العالمية الأولى في القدس، أو مذكرات الجندي عبد الله دبوس، الضابط البيروتي في الجيش العثماني، وغيرها من شهادات الجنود في المعارك الكبرى؛ لنرى نظرة مختلفة عن تنظيم القادة ورأيهم في الحروب؛ نظرة تصف الحياة اليومية للجنود ومتاعب الجندية.

(٢٠) زلماي خليل زاد: من فتى في مزار شريف إلى البيت الأبيض

طالعتُ على شاشة الهاتف خبرًا عاجلاً: «زلماي خليل زاد يؤكد تنحيه عن منصب المبعوث الأمريكي الخاص لأفغانستان. قرأتُ الخبر، وطاقفت في خاطري قصّة هذا السفير فوق العادة، وحكايته الطويلة مع الملف الأفغاني.

زلماي اسم بشتوني يعني فتى. وُلد زلماي في مزار شريف، ورأى القصر الرئاسي لأول مرة عندما كان لا يزال فتى يافعًا يزور كابل بعد مغادرته قريته؛ في ذلك الحين كان القصر لا يزال القصر الملكي للملك ظاهر شاه لم يكن زلماي يتصور أن يصبح ذلك القصر مقرًا لمفاوضات، ولقاءاته مع الساسة الأفغان لاحقًا.

كيف تحوّل هذا المواطن الأفغاني إلى سفير للولايات المتحدة في أفغانستان والعراق، ومبعوث خاص يمثلها في هذا الملف؟

تبدأ القصة عندما سافر زلماي إلى الولايات المتحدة للدراسة عام ١٩٦٦، وهناك التقى زميله في المنحة أشرف غني، الذي ينحدر من عائلة أفغانية بارزة؛ أصبح أشرف لاحقًا رئيسًا لأفغانستان قبل فراره منها مؤخرًا بعد سقوط كابل في يد طالبان.

حدث انقلاب على الملك ظاهر شاه عام ١٩٧٣، وحصل زلماي في

الفترة نفسها على منحة لدراسة الدكتوراه في جامعة شيكاغو؛ تلك المنحة التي ستكون طريقه ليصبح مواطنًا أمريكيًا؛ بل سفيرًا للولايات المتحدة في أفغانستان.

جاء اللقاء الذي غيّر حياة زلماي عندما سمع عن محاضرات للبروفيسور ألبرت ولستيتير؛ أثار الأستاذ انتباه زملاء زلماي؛ عندما كان يحكي عن وزير الخارجية هنري كيسنجر باسمه الأول هنري، وعندما ذكر الرئيس جون كينيدي وصفه بـ «جون»؛ ما يعني معرفته الشخصية والقريبة منهما، حضر زلماي بقية المحاضرات.

كان ولستيتير أستاذًا للعلوم السياسية، وكان يملك شركة اسمها «بان هبورستيكس» في كاليفورنيا تنفّذ مشاريع بحثية لصالح الحكومة الأمريكية. وقد وصفه زاد في مذكراته بقوله: «لم يكن تحليل مؤسسات ولستيتير السياسي يتأثر بمن يدفع الفواتير»، وكان ولستيتير يعقد حلقات بحثية لطلابه عن الانتشار النووي؛ انضمّ زلماي إليها.

أفاد زلماي من قُربه من هذا الأستاذ الذي أدخله قلب السياسة الأمريكية؛ حتى إن زلماي قدّم استشارة لوزير الدفاع جيمس شليسنجر في عهد الرئيس فورد. في هذا النقاش، عبّر زلماي عن توقعه مقاومة الأفغان للسوفييت، وقال للوزير: «أنت لا تعرف الأفغان»، وردّ وزير الدفاع: «لن يخرج السوفييت؛ أنت لا تعرف الروس!»

عيّن ولستيتير زلماي مساعد باحث في هذه الشركة التي تقدّم خدمات بحثية للحكومة الأمريكية؛ وللمفارقة لم يُسمح له بقراءة الأبحاث كاملة؛ لأن المعلومات صُنّفت على أنها سرية من الوكالة الحكومية للحدّ من

الأسلحة النووية، ولم يكن له من التراخيص الأمنية بصفته طالبًا أجنبيًا ما يسمح له بالاطلاع عليها.

تزوَّج زلماي من سيدة أمريكية مسيحية رغم أنه مسلم، وعُقد قرانهما في الكنيسة، وتزوَّج زميله أشرف غني من لبنانية مسيحية. وفي تلك الفترة ١٩٧٨، كتب زلماي عدة مقالات عن أفغانستان تحت اسم مستعار؛ خوفًا على عائلته؛ وكانت تلك المقالات السياسية تُحلَّل الوضع في أفغانستان بعد وصول حزب شيوعي للحكم.

اتصل أحد مساعدي بريجنسكي (مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر) بزلماي قائلاً: «لقد علمنا أن المقالات تعودُ إليك؛ هل تؤدُّ تقديم المساعدة للإدارة الأمريكية بتحليل الوضع في أفغانستان؟» فرحَّب زلماي بأن يكون مستشارًا بخصوص أفغانستان؛ وهو أستاذ مساعد في جامعة شيكاغو.

يبدو أن لعبة السياسة بدأت تغوي زلماي؛ ففي عام ١٩٧٨ بعد انقلاب أفغانستان، قرَّر وزوجته زيارة باريس؛ وفي باريس سمع عن التظاهرات ضدَّ الشاه، وهناك بحث عن شخص إيراني يُدعى إبراهيم يزدي؛ لينسَّق معه اللقاء بالخميني. كان الخميني يعيش في قرية اسمها «نوفل لوشاتو»؛ ذهب زلماي إلى تلك القرية بالقطار، ولم يكن يعرف البيت، لكنه سار بجانب الإيرانيين المتوجَّهين إلى إحدى الضواحي، وهناك التقى الخميني. طلب الخميني من أحد مساعديه أن يخبر البروفيسور الأمريكي أنهم يريدون الديمقراطية وحقوق المرأة؛ فهذا ما يؤدُّ الأمريكان سماعه؛ ابتسم زلماي لأنه يعرف الفارسية وفهم عبارة الخميني.

حاور زلماي الخميني عن شكل الحُكم المرجوَّ بعد الثورة، وانتهى اللقاء بشعور زلماي أن النظام القادم في طهران استبداديٌّ دينيٌّ، وعندما أخبر زملاءه الإيرانيين في شيكاغو بتحليله للوضع، أبوا القبول به بسبب الرومانسية الثورية الحالمة، لكن بعد عدة أشهر نجحت الثورة الإسلامية في إيران، وعاد الخميني إلى طهران.

خرجت عائلة زلماي إلى باكستان؛ وهنا قرر أن يدعو للمقاومة العلنية للغزو السوفييتي في مقالات باسمه، وهنا انتبعت له وكالة المخابرات الأمريكية التي رُتبت له جولة حول العالم؛ لإلقاء محاضرات حول الغزو السوفييتي، والردود الأمريكية المحتملة، وتلقَّى دعوات من مؤسسات بحثية في واشنطن، وشارك مع برنارد لويس في حلقة نقاشية في جامعة برنستون.

أصبح زلماي مع الوقت شخصية لها وزنها فيما يتعلق بالملف الأفغاني؛ قدّم شهادة أمام لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس؛ مفادها وجوب الموافقة على صفقة تُباع فيها طائرات (F16) إلى باكستان؛ مقابل تسهيلات من باكستان لوصول الأسلحة إلى الأفغان؛ وبسبب هذه الشهادة، دعا الجنرال إعجاز عظيم، سفير باكستان في الولايات المتحدة زلماي إلى زيارة باكستان؛ خصوصًا أن ضياء الحق رئيس باكستان أعجبه ذلك الرأي. وفي مذكرات زلماي حكايات عن حيرته من الذهاب إلى هناك بسبب اعتراضه على ملف حقوق الإنسان في باكستان، لكنه غلب المصالح السياسية، ورأى أن باكستان يجب دعمها حتى لا تقع فريسة للسوفييت أيضًا.

اعتمدت الإدارة الأمريكية على زلماي حينما لم تكتفِ تستطيع التعامل مع قادة الأفغان؛ تحدثت معه إدارة الأمن القومي، حينما زار حكمتيار نيويورك لحضور جلسة للأمم المتحدة عام ١٩٨٥؛ كانت المشكلة التي تواجههم أن حكمتيار يرفض مقابلة الرئيس ريجان؛ أتى زلماي ليقنعه وردّ حكمتيار: «تريدني أن ألتقط الصور مع ريجان، وتضئ سمعتي في العالم الإسلامي؟!» المرة الثانية استدعي عند زيارة يونس خالص، ولعدم وجود مترجم بين ريجان ويونس؛ جلس زلماي للترجمة، وكانت أول عبارة يترجمها دعوة يونس ريجان للدخول في الإسلام.

استمر زلماي بعد ذلك باحثًا في «مؤسسة راند»، واستمر في تقديم المشورة والافتراحات للإدارة الأمريكية بشأن الملف الأفغاني. انهيار النظام الشيوعي عام ١٩٩٢ في أفغانستان، وكان اقتراح زلماي انخراط أمريكي أكبر في أفغانستان، واستمر التواصل بينه وبين حامد كرزاي، وتحالف الشمال لتقويض حركة طالبان.

عندما وقعت أحداث ١١ سبتمبر / أيلول، كان زلماي يعمل ضمن الفريق الرئاسي مع جورج بوش؛ تذكر الناس أشياء كثيرة؛ لكن أقلها هي أصول زلماي الأفغانية؛ كان أمريكيًا في منصب كبير وقريب من الرئيس. شارك زلماي في كتابة خطاب بوش بعد هجمات سبتمبر / أيلول، والذي ورد فيه وصف للحياة في أفغانستان. هكذا عاد زلماي كدبلوماسي بعد هجمات ١١ سبتمبر / أيلول، واعتاد الوصول إلى أفغانستان بعد الغزو الأمريكي على طائرة (C17) الضخمة؛ بصحبة عربات مقاتلة تُشحن في طريقها إلى قاعدة باغرام الجوية، أو قندهار.

شارك زلماي في كل الخطوات الخاصة باحتلال أمريكا لأفغانستان. وكان موضع الخلاف بينه وبين الرئيس بوش ووزير الدفاع رامسفيلد حول مسألة المشاركة في خطة بناء مؤسسات الدولة في أفغانستان؛ كان ردُّ بوش: «لسنا هناك من أجل حلِّ مشاكلهم»، لكن زلماي ردَّ بقوله: «لا يمكننا حل مشاكلنا دون مساعدتهم على حل مشاكلهم».

كانت سنوات زلماي في أفغانستان محاولةً لجعله بلدًا طبيعيًا؛ لقد رأى وطنه منهكًا من الحروب والصراع بالوكالة بين القوى الإقليمية، وتنامي تجارة الأفيون، وأعداد ضخمة من اللاجئين في دول مجاورة؛ لذلك كانت سنوات عمله محاولةً لمساعدة القادة الأفغان على مساندة الحكومة الهشة، والتوسط في النزاعات مع أمراء الحرب؛ فكَّر كرزاي في اعتقال دوستم أكثر من مرة بسبب تجاوزات ميليشياته، لكن زلماي طلب منه تأخير هذا القرار؛ حتى لا يؤثر على تحالف الشمال.

لا نلمس في شهادة زلماي ندماً على معالجة الإدارة الأمريكية للملف الأفغاني، أو كشف الأخطاء والسياسات التزقة، أو عدم وجود رؤية إستراتيجية، ونرى في قصته نفسها القدرة العالية لدولة مثل أمريكا على إدماج المهاجرين، وإمكان وصولهم إلى مناصب مهمة وحساسة في الدولة.

شارك زلماي في اتفاقيات السلام بين الولايات المتحدة وطالبان، ثم أعلن الاستقالة من منصب المبعوث الأمريكي الخاص إلى أفغانستان؛ تلك المهمة التي عمل فيها منذ وصل إلى الولايات المتحدة، واستفيد فيها من معرفته اللغة وشبكة العلاقات مع القادة الأفغان.

(٢١) دار العودة: حياة ناشر بين الشعر والشعراء

لفتني العنوان: عباقرة النغم: حياتي بين الشعر والشعراء، فسارعتُ إلى اقتناء الكتاب؛ حتى أعيش في رحاب حكايات القصائد. أسّس المؤلّف محمد سعيد محمديّة «دار العودة للنشر»؛ التي اهتمت بنشر الشعر، واشتهرت كدار نشر، وكانت جواز مرور لمن ينشر فيها من الأدباء. نشر فيها نزار قباني، ومحمد الفيتوري، ومحمود درويش. وصعدت الدار زمناً، ثم أفل نجمها مع تغير الحال، ورحيل صاحبها إلى أمريكا، وركود سوق الشعر. وصل محمديّة إلى سنّ الخامسة والسبعين، وفكر أن يكتب قصة حياته مع الشعراء، وعلى الرغم من أنه يعلم كثرة ما كتب عنهم؛ فإنه أراد أن يحكي عن الحياة الشخصية لبعضهم؛ بحكم قربه منهم.

بدأت فكرة الدار مع سام محمديّة من العمل الصحفي؛ فقرر أن يبدأ مشروع دار نشر، وعرض الفكرة على الرئيس السوداني محمد أحمد محجوب، وتحمّس لها الرئيس المثقف، وأعطاه أول كتاب ليُنشر في الدار، وهو مطولة شعرية بعنوان: الأندلس المفقود. وفكّر محمديّة أن يطلق على الدار اسم دار فلسطين، لكن محجوب اقترح عليه اسم «دار العودة»؛ لأن العودة مليئة بالمعاني، وهذا يُبعد عنه الشبهة السياسية، دون أن يحرمه ظلال ما يفكر فيه. كان ذلك عام ١٩٦٨؛ فأسس محمديّة دار النشر في بيروت في السبعينيات، حينما كانت في ذروة زهوها بين المدن العربية، وقد اجتمع فيها المثقفون والشعراء.

جمع محمدية دواوين كثير من الشعراء؛ فقد سافر إلى تونس ليحصل على قصائد أبي القاسم الشابي، وإلى مصر ليحصل على موافقة بنات الشاعر الرومانتيكي إبراهيم ناجي. وقد جمع كل شعره رفقة صالح جودت، وطلب من الشاعر أحمد رامي أن يصدر ديوانه كاملاً في مجلد واحد، وعندما ناقش محمدية تفاصيل العقد مع الشاعر أحمد رامي؛ قال رامي: «اكتب في العقد ما تشاء، وادفع ما تيسر لك»، فألحَّ محمدية على رامي أن يحدّد مبلغاً فأبى. وعندما رجاه محمدية أن يفعل، ردَّ رامي بأبوة وحنان وقال له: «يكفي أن تأتي من بعيد لتفكر فيّ». وهذا من نبل رامي، رغم أنه لم يكن ثرياً؛ فقد تعيش رامي على ما يأتيه من الوظيفة، وكان يتقاضى جنيهين عن كل أغنية يكتبها أو ينظمها لمحمد عبد الوهاب أو غيره، ولكنه كان يرفض أن يتقاضى فلساً من أم كلثوم، وتلحَّ عليه فيرفض بكبرياء.

نشر محمدية الكثير من الكتب دون دفع حقوق للمؤلفين، لكنه لا يحكي عن هذه التجاوزات في سيرته؛ بل يحكي عن الصلح والإذن من المؤلفين بعد اللقاء؛ كما فعل مع الطبيب صالح، ومحمود درويش، ويعتبر أن ذبوع الكاتب، وانتشاره عن طريق داره هو أكبر مكسب للمؤلف.

تخبرنا رنا قباني في أحد مقالاتها عن اللقب الذي أطلقه محمود درويش على محمدية؛ وهو النصاب الظريف. وعندما زار درويش بيت محمدية قال له بتهكم لاذع: «أظن أن هذا الكرسي المذهب (المنسوب إلى لويس الخامس عشر) الذي أجلس عليه هو يدي اليميني، وهذه الشرا الكريستال التي تنور الغرفة بشكل مبالغ فيه - وأنا مثل أكثر أهل بيروت

أعيش في العتمة - هي لحمٌ كئفي!». لكن محمديّة عرف كيف ينتقم من محمود درويش بحكاية تفاصيل حياة درويش الشخصية، وقصة طلاقه من رنا، والعبارات الشنيعة التي تلفّظ بها درويش في لحظة الخلاف. ولعل أخبار النسيمة التي حشا بها محمديّة كتابه جعلته يقدم لنا صورة واقعية، بعيدًا عن رومانسية حياة الشعراء.

بدوي الجبل يطلب المخبرات من أجل ديوان شعر

من القصص التي جذبت انتباهي في الكتاب، حكاية الشاعر بدوي الجبل مع محمديّة. تبدأ القصة عندما حضر محمديّة مهرجان الشاعر أبي تمام الذي أقيم في الموصل عام ١٩٧١، والتقى محمديّة الأديب أحمد الجندي، وتحدثا عن الأدب والنشر والطباعة، وقادهما الحديث إلى شعر بدوي الجبل؛ فاقترح محمديّة على الجندي كتابة شيء من الآراء التي يعرفها عن بدوي الجبل، ووافق الجندي، وأرسل الكتاب إلى دار العودة. لم يكن محمديّة يعرف أن هذا الكتاب سيُجلب له المشاكل!

ففي صباح أحد الأيام، دخل ثلاثة من عناصر المخبرات السورية إلى بناية الريفييرا في كورنيش المزرعة في بيروت، وبلا سلام أو تحية، قالوا: «أحمد سعيد، تفضّل معنا إلى شتورة». وشتورة هي مركز مخبرات الجيش السوري، وهي المكان الذي أصبح ذكره يصيب القلب برجفة، والعقل باضطراب في التفكير. وقد سأل محمديّة العناصر أن يُسمح له باستخدام الهاتف ليخبر أهله، فرفض الضباط وزجروه. دلف إلى السيارة في حالة رعب وفزع. وكان الناس إذا أرادوا أن يذكروا الحكم السوري

بكلمة سوء، يتلفَّتون يمنةً ويسرةً؛ وكأنهم يحسُّون أن الجدران لها آذان، ويهمسون بكلمتهم همساً خفيضاً.

الطريق إلى شتورة ساعةً وبضع دقائق، لكن الطريق طال أكثر من ذلك، ووصل محمديّة إلى فيلا، ودخل إليها، ووقف محمديّة أمام ضابط المخابرات، وناشِرُنا يرتجف من الخوف؛ لا يدري ما الجرم الذي ارتكبه لتحقيق معه المخابرات السورية، وتأخذه من بيروت. مضت دقائق؛ ظلَّها محمديّة ساعات طويلاً، حتى سُئل: «أنت صاحب دار العودة؟»، فردَّ بالإيجاب، فردَّ المحقق: «ولا حفيّر؛ كيف تجرّو على طباعة ديوان الأستاذ بدوي الجبل؟» وأراد محمديّة أن يقول إنه ليس حفيّراً، لكن الخوف ألجمه، ثم قال بصوت متلعثم: «لم أطبع الديوان». وردَّ المحقق: «مَن طبع هذا الكتاب لبدوي الجبل، وأخرج كتاب أحمد الجندي عنه؟» فشرح محمديّة للضابط أن هذا الكتاب دراسة في شعر بدوي الجبل وليس الديوان، وأراد محمديّة أن يكمل بلغة شبه أدبية تعريفاً بالكتاب، ولكن المحقِّق نهره قائلاً: «حاج فزلكة، ولا شوفاكر نفسك أستاذ؟ خذوه للأستاذ البدوي، ودعوه يقرر ماذا يفعل به، وإن شاء الأستاذ لا يكون راضي عليك حتى تعلم ماذا نفعل بك!» انصرف محمديّة مرعوباً، وهو يبصق في داخله على المحقق الأُمّي.

نقلت قوات الأمن السوري الناشر محمد سعيد محمديّة من شتورة إلى حيّ أبي رمانة في دمشق، ووقفوا أمام بوابة بيت الشاعر بدوي الجبل، وإذا بالشاعر بدوي الجبل يقترب من محمديّة، وهو ينظر إليه قائلاً: «كيف تطبع ديواني؟! فقال محمديّة: «لم أطبع الديوان»، وحكى قصة دراسة الجندي عن شعر بدوي الجبل، التي صنعت كل هذا اللغط، فافتنع

بدوي الجبل، وأمر جنود المخابرات بالانصراف، فقال الجنود: «لا بد من الاتصال بالعقيد»؛ فرفع بدوي الجبل عقيرته بالنداء على ابنه منير، ودخل منير، ومعه زوج أخته العقيد محمد معروف، وقال بدوي: «يبدو أننا ظلمنا الرجل، اتصل يا محمد بابن أختك، قائد المخابرات في لبنان، وأخبره أن يعتق الرجل، وأنه بريء». وطلب بدوي الجبل من محمدية أن يزوره مرة أخرى بلا قوات أمن، ولا استدعاء. وفي الزيارة الثانية أخبره أنه يريد أن يطبع ديوانه معه؛ رغم أن الفريق عبد الغني طلاس عرض على بدوي الجبل أن يطبع له الديوان بالكمية التي يريد. كانت خطوة بدوي الجبل كبيرة لدى الدولة في سوريا؛ فعندما علم بموضوع نشر ديوانه اتصل بإلياس سركيس رئيس لبنان، وبحافظ الأسد الذي حرّك أجهزة المخابرات، وكانت تجمعه بحافظ علاقة.

في صحبة شاعرة الرجال لميعة عباس

ومن الفصول الجميلة في الكتاب حكايات محمدية عن الشاعرة العراقية لميعة عباس؛ التي عرفها عن قرب في أثناء إقامتها في بيروت، وحاول أن يصف حياتها الشخصية ونوازعها النفسية، وحكى عن تودد الشاعر عمر أبو ريشة لها؛ إذ كان يغازلها، ويدي شوقاً كي يراها، ويشحذ نفسه بالكلام الجميل ليقوله لها. وفي إحدى الليالي دارت النشوة برأس أبي ريشة، وعرض على لميعة سيجارة؛ فردّت بأنها لا تدخن، فعرض عليها كأساً من الخمر فتحمّست وقالت: «لا أشرب»، وعرض عليها مازحاً أن تغني فقالت إنها لا تحسن الغناء، فكتب لها على ورقة بعد كل مغازلاته: «لا تأكلين، لا تشربين، لا تدخين، لا تصاحبين أو تحبين، ولا تغنين، فلماذا إذن تعيشين؟!»

فرَدَّت عليه لميعة بعد يومين بقصيدة؛ دلَّلت له فيها على أنها ليست
كغيرها من النساء، وأنها رفيعة الشأن، فقالت:

«تدخين؟»

لا

أتشربين؟

لا

أترقصين؟

لا

يا أنت

جمعُ لا

أنا التي تراني

كل عطور الشرق في أرداني

فما الذي يشدُّ رجلك إلى مكاني؟

يا سيدي الخبيرَ بالنسوان

إنَّ عطاء اليوم شيء ثانٍ

حلقُ !

فلو طأطأت...

لا تراني».

هكذا تنقلنا سيرة محمدية إلى أجواء الشعراء؛ فترى لميعة عباس، التي كان أحبَّ شيء إليها - بعد الثناء - أن يُطلب منها إلقاء قصيدة من اختيارها على مسامع الحاضرين، وكانت تتمنّع تمنّع القبول، حتى تجد صوتاً ملحاحاً؛ فتتفرّد وتشرح وتبدأ بإلقاء قصيدة تنقر فيها بإيقاع جميل سمع الناس العاديين، بصوتها الغنوج الهامس الملتاع كما سمعه محمدية، ووصفه لنا في جلساتها، وهي تغشى دار العودة. وفي إحدى المرات انصرفت من سهرة في بيت الشاعر العراقي بلند الحيدري، عندما وجدت من في السهرة يُبدون إعجاباً بزوجة بلند؛ فغارت أن ينصرف المديح إلى غيرها. وطلبت لميعة من محمدية أن ينشر ديوانها الكامل مقابل عشرين ألف ليرة لبنانية في فترة الحرب الأهلية اللبنانية؛ أي ما يعادل نحو عشرة آلاف دولار، فاعتذر محمدية؛ لأنه لا يملك هذا المبلغ. ومن قصص الاتفاقات المالية أيضاً اتفاق محمدية مع ممدوح عدوان على نشر أعماله الكاملة قائلًا له: «تذكر أنها تسعة عشر عملاً وليست سبعة عشر»، فعرض محمدية ثلاثة آلاف دولار، وفاوضه ممدوح عدوان قائلًا: «ظروفي تسمح بأن آخذ منك خمسة آلاف دولار». وعن اضطرار ممدوح عدوان إلى العمل بالترجمة؛ ليسدَّ حاجات حياته، رغم أن الترجمة تسلبه الكثير، وهذه قصة مكررة عن البؤس الذي يعيشه المثقف العربي في البحث عن لقمة العيش، وبيع كتبه بثمن بخس، والدول تلاحقه بدلاً من أن تدعمه. وهذا يذكرني بسيرة عابدة الشريفة التي كتبت فصلاً بعنوان: «هؤلاء الكتاب وأجورهم المتواضعة».

تجعلك سيرة محمدية تعيش أجواء جلسات الشعراء والأدباء؛ تتعرف فيها على ظرف كامل الشناوي، وخفة ظله مع ثقل وزنه، وتتعرف إلى

محمود درويش وهو شاب؛ يزوره محمديّة في موسكو قبل أن يسافر درويش إلى القاهرة، وتري درويش في شقته البيروتية ينهار زواجه من رنا قباني، وينفر درويش من معين بسيسو لأسباب يحكيها محمديّة. ثم تسير في الكتاب وتتعرف على تناقضات الشعراء وغيوبهم، وبعض من النميّة الأدبية؛ مثل عداوة المهنة، وأولاد الكار الواحد بين محمديّة ودار العودة، وسهيل إدريس ودار الآداب، ثم الصلح والتوافق بينهما. ونرى في الكتاب مغامرات الشاعر حسن عبد الله القرشي، التي فضحه بها محمديّة، وحكى عن علاقاته مع الغواني والممثلات، وتلك الحكايات ذكرّني بـ كتاب النميّة، للكاتب سليمان فياض؛ الذي قرر فيه حكاية آرائه عن الأدباء بصراحة ودون مجاملة. ولعل الكتاب من صنف نادر دوّن فيه ناشر حكايته مع المؤلّفين، وهي فكرة أرجو أن تنتشر؛ بأن يكتب الناشرون قصصهم مع الحكومات، والرقابة، وسقف الحرية، ونفسيات المؤلّفين وأمزجتهم، وحكاية قصة النشر وصعوباته؛ لأنها جزء من تاريخنا الثقافي. وأذكر من هذا النوع النادر من التدوين مذكرات قاسم الرجب؛ صاحب «مكتبة المثني» في بغداد، الذي حكى قصته مع الكتب.

(٢٢) حمدي قنديل يروي قصته بقلم رصاص

كنتُ أرتّب كتب دار الشروق، وأسترق النظر للعناوين التي تُؤرّخ لمصر، وللشّير الذاتية التي أصدرتها الدار؛ مثل مذكرات نوبار باشا، ورحلة المسيري الفكرية، ورحيق عمر جلال أمين، وحياة والده أحمد أمين. وصلت لغلاف كتاب: عشّتُ مرتين لحمدي قنديل، وشعرت بالزهد في الكتاب، هذا إعلامي مشهور؛ فماذا سيكتب عن حياته؟ لم أفكر في شراء الكتاب لكي ينضم لأصحاب السّير الذين أصبحهم في رحلة الحياة، إلى أن حكى صديقي عن الكتاب ومدحه، وكعادة القارئ الذي يكتشف قيمة كتاب عند مدح الناس له، عُدتُ واشتريته وسهرت معه.

جلست أقرأ، وأقطع أشواطاً في الكتاب، وأنا أشعر بالاندماج في حكايات قنديل؛ لقد أمسك بقلمه الذي تربى في حرم الصحافة، وجلس يكتب للقارئ حكاية حياته، وهو بصارحه أنه طيلة حياته لم ينظر إلى الوراء، وأنه دائماً ما كان يتطلع إلى المستقبل، ويجد في غموض المستقبل بريقاً يحفزه على الاقتحام. جعل اسم سيرته عشّتُ مرتين، وعندما علم أن الفنان يوسف وهبي له مذكرات بعنوان: عشّتُ ألف عام، حمد الله أنه لا تزال لديه بقية من تواضع؛ ليحسب حياته بحياتين لا أكثر، وعندما اشتريت الكتاب قال زميلي البائع: «بالطبع هو محظوظ؛ عاش مرتين لأنه تزوج الممثلة نجلاء فتحي».

فكر قنديل وهو مقبلٌ على كتابة سيرته في عيوب كتابة السير الذاتية والمذكرات؛ يقول: «قرأتُ ما قرأت من مذكرات الآخرين بشك كبير دائماً؛ ذلك أن أصحابها - وهم عادة من المتقاعدين - غالباً ما يضخمون من أدوارهم، وينزلون مثل كل كبار السن إلى تفاصيل يضيع فيها الخيط الأساسي.. وجدتُ العديد منهم يزيفون التاريخ، أو يصفون حسابهم معه، أو يحدثوننا عن بطولاتهم، ويتأففون من التلميح إلى سقطاتهم، أو يفعلون مثلما فعل المفكر الكبير عبد الرحمن بدوي عندما نصحت مذكراته بكل مراراته بعد ما لاقاه في حياته من تجاهل وظلم، أو ينتزعون من قاع الذاكرة بعض ما رسب فيها من وقائع سمجة يظنونها طريفة، أو يسهبون في حوارات يقولون إنهم أجروها مع كبار القوم وصناع القرار؛ لا شيء إلا ليوهمونا بأنهم كانوا شركاء في صناعة سياسات؛ أغلب الظن أن الكثير منها أودى بنا إلى المجهول».

لذلك قرر قنديل كتابة سيرته وهو يحاول ألا ينزلق إلى إعطاء الدروس، وإن كان له دور في الحياة يمكن أن يزهو به؛ فهو دور الصحفي لا دور السياسي. يبدأ الكتاب بحكايات عن بيته الذي يعرف ربنا، وعن طفولته في طنطا، وصادقته في المدرسة مع الصحفي جمال بدوي، وعمرو موسى الذي أصبح وزيراً للخارجية، وأميناً عاماً للجامعة العربية، وعن سنواته الأولى الجامعية في القاهرة، وتعرفه إلى شلّة بريئة؛ دعوه ذات مرة وصارحه صديقه أنهم سيدخون أجدع حشيش في مصر، ولم يمانع قنديل؛ لكي يثبت أن الأفندي لا يهزه الحشيش؛ فدخن بدلاً من السجارة ثلاثاً، ولكنه عندما غادرهم مبكراً ضاع في مسالك القلعة وحواريها؛ وهو يبحث عن محطة الأتوبيس.

كانت بداية تعرّف قنديل على العالم خارج مصر عن طريق اتحاد الطلبة العالمي في براغ؛ حيث تلقى دعوة من أحد الأصدقاء للسفر لحضور المؤتمر عام ١٩٥٥، وطلب منه زميله أن ينسق مع الشاب ياسر عرفات الذي سيحضر المؤتمر هو الآخر، ولم يكن ياسر عرفات شخصية معروفة عندئذ؛ كان مجرد طالب يدرس في كلية الهندسة بجامعة القاهرة، ولم تكن الحكومة في مصر تشجع على تلك الصّلات بين المنظمة الطلابية؛ بسبب خوفها من تسلل الخطر الشيوعي إلى مصر في ذلك الحين؛ لذلك سافر قنديل دون إخطار الحكومة، وسافر معهم صلاح خلف الذي اشتهر فيما بعد باسم أبو إياد، ورافق عرفات في مسيرته في «حركة فتح»، وزهير العلمي الذي أصبح رجل أعمال.

وصل قنديل إلى براغ، وحضر المؤتمر الطلابي، وفيه تلقى دعوة لزيارة الاتحاد السوفيتي، وهناك التقى مع الشاب يفجينى بريماكوف؛ شاب روسي يعمل في القسم العربي في الإذاعة الروسية، وبعد ذلك سيصبح هذا الشاب، بعد سنوات، وزيراً لخارجية روسيا، ثم رئيساً لحكومتها في عهد يلتسين. وفي روسيا حصل على فرصة عمل في الإذاعة العربية، وتردد في قبولها، وتوجه للسفارة المصرية ليسأل السفارة عن رأيها في عمله في الاتحاد السوفيتي، وطلبوا منه عدة أيام لسؤال القاهرة، وجاء الرد سريعاً في برقية صغيرة تقول: «خالك بيقولك عُد فوراً إلى القاهرة»، وكان خال حمدي قنديل المقدّم صادق حلاوة يشغل المنصب المناسب للرد على هذا السؤال؛ إذ كان رئيس قسم مكافحة الشيوعية في وزارة الداخلية.

من الفصول الجميلة في الكتاب ذكريات حمدي قنديل مع الصحافة

وهو شاب وتجربته فيها، وعن سنوات دراسته للصحافة، وعدم حضوره للمحاضرات، واللف على الصحف، حتى إن الدكتور خليل صابات أستاذ الصحافة كان يمازح قنديل بعد ما ذاعت شهرته قائلاً له: «هذا حمدي قنديل.. فلح لأنه لم يحضر محاضرة واحدة لي».

الكتاب مُقسَّم على طريقة الموضوعات، ولا يلتزم الترتيب الزمني؛ هناك فصل عن ذكريات قنديل مع سوريا، وسفره الدائم لها، وعمله مع الصحفي نصح باييل في دمشق. بعدها يصبحنا في رحلة عن ذكرياته في التلفزيون المصري في الستينيات، وبدايته مع برنامج أقوال الصحف؛ الذي توقف أول مرة بسبب إذاعة خبر عن الرئيس عبد الناصر في نهاية الحلقة، والمعتاد إذاعة الأخبار المتعلقة بالرئيس في البداية، وذهب قنديل إلى سامي شرف سكرتير الرئيس، وعرض عليه الأمر، وجاء الرد منه قائلاً: «الرئيس يقولك خذ الجرايد، وروح على الاستوديو بتاعك على طول من غير ما تكلم حد». وهنا نكتشف هذا القرب بين مؤسسة الرئاسة في عهد عبد الناصر، والعديد من الموظفين عبر تقديمهم شكاوى للرئيس؛ للتدخل في مشاكل من قبيل تعيين معيد؛ مثلما فعل جابر عصفور عندما حُرِم من التعيين، وطلب تدخل الرئاسة، وحصل على الوظيفة.

من هذه القصة نكتشف حب قنديل للنظام الناصري؛ قدّم في أحد فصول الكتاب مرافعة دفاعية عن العهد الناصري؛ ليرز محاسنه والمباهج التي تمتع بها في زمن الستينيات، وهو يحكي عن غلبة السعادة عليه في هذه السنوات، وأن الراتب المتواضع كان يكفي، وأنه اشترى سيارة نصر من راتب التلفزيون، وعن فرحته بالعمل كمذيع. لكنه ارتبك ذات مرة

عندما غاب زميله، وتقرر أن يقدم حفل أم كلثوم الذي يحضره عبد الناصر؛ هنا وقف على المسرح، وقال أيها السادة: «إليكم أم كلثوم»، وغادر منصة المسرح، ورأى أم كلثوم وهي تتقدم، وقالت له: «ده كل اللي رينا فتح بيه عليك؟»، ولم يتمالك قنديل نفسه، وبكى وهو يذيع جنازة عبد الناصر، ومعه المذيع جلال معوض؛ ومن أجل مواكبة الحدث، وروح النكتة أطلق عليهما زملاؤهم في التلفزيون لقبين للتندر: حمدي منديل، وجلال معيط.

يعترف قنديل بأن لثورة يوليو أخطاء بلا شك؛ وفي مقدمتها مصادرة الحريات، وسيطرتها على الإعلام، ويقدم في سيرته اعتذارًا للإخوان المسلمين عن الأحاديث التي أجراها مع معتقلين منهم في السجن الحربي عام ١٩٦٥؛ خصوصًا بعد ذهاب عفوان الشباب، وفي لحظة حساب مع النفس، أيقن قنديل أنه ارتكب خطأ مهينًا وأخلاقيًا باستجواب معتقلين قيدت حريتهم فاعتذر. ليس هذا هو الاعتذار الوحيد في الكتاب؛ هناك مراجعة لحديث صحفي أجراه قنديل بعد حرب ١٩٧٣ مع الكولونيل عساف ياجوري صاحب أعلى رتبة بين الضباط الإسرائيليين الذين أسرهم الجيش المصري، كان قائد اللواء ١٩٠ مدرع؛ أجرى قنديل الحوار، وعاد للمنزل، ورأى قنديل والدته التي عاتبته، ونظرت له بوجه عابس، وقال لها: «لماذا العتاب؟» قالت: «كيف تحاور أسيرًا؟» وهنا أفحمته بإجابتها وقالت له: «ماذا تتوقع لو أسر الإسرائيليون أخوك ماجد قنديل، وخرج في حوار مع التلفزيون وهو أسير؟» وهنا ندم قنديل على إجراء هذا الحوار.

يستمر قنديل في حكاية ذكرياته في الكويت؛ خصوصًا زيارته المبكرة

لها بعد حرب الخليج، ودخول قوات صدام، ويصف المشهد، ويحكي عن صداقاته مع الكويتيين، ثم يسرد ذكرياته عن الجزائر، ونرى ولعه بالسبق الصحفي منذ شبابه، وتسجيله لحظة دخول بن بله إلى الجزائر، وعن تسجيله حوارًا طويلًا مع بوتفليقة لمدة ٣ ساعات؛ أذاع التلفزيون المصري النصف الأول منه فقط، وعندما استفسر قنديل من وزير الإعلام صفوت الشريف قال له: «ده الرئيس مبارك عمره ما طلع يتكلم في التلفزيون ٣ ساعات».

تستمر سيرة قنديل في حكاية كواليس تغطياته الصحفية في اليمن والعراق وغيرها من الدول، ثم شعوره بالضيق من مصر في عهد السادات، وانتقاله للعيش في باريس؛ حيث عمل في اليونسكو، ويحكي لنا عن حياته الباريسية، وعن تفاصيل العمل في هذه المؤسسات، وعن زيجاته الثلاث في ثنايا الحديث، وعن دخوله مجال العمل بالأقمار الصناعية، ومحاولاته المتكررة ليصبح رجل أعمال، والتي باءت جميعها بالفشل؛ حتى إنه عمل على أكثر من مشروع تلفزيوني مع الشيخ صالح كامل، لكن الملك فهد اعترض على ظهور قنديل في إحدى القنوات؛ لأنه هاجم الملك فيصل في التلفزيون في الستينيات.

تصل السيرة إلى حكايات برنامج رئيس التحرير، وقلم رصاص؛ عندما ظهر على شاشة التلفزيون، وهو في عمر الستين، بعد انقطاع لمدة عشرين عامًا عن الشاشة، ويحكي لنا عن حالات التضيق التي تعرض لها من التلفزيون المصري، ويُقدّم صورة قريبة لشخصية وزير الإعلام صفوت الشريف، ويسمّيه المعلم، ويشرح المزايا والمواهب التي تمتع بها صفوت الشريف؛ ليدبر وزارة الإعلام، ويقدم إعلاميًا يرضي نظام

مبارك، ويصف مقابله مع مبارك وولعه بالمقالب، وحب مبارك لحكايات النيمة بين صفوت الشريف وفاروق حسني، وحبه لرؤية الصراعات بين وزرائه، والتي كان يراها مادة للتسلية، وعن انزعاج مبارك حينما وصف قنديل الإسرائيليين بالسفلة.

الكتاب يتميز بالسلاسة، والتجربة الثرية في عالم الإعلام؛ خصوصاً لأن قنديل كثيراً ما شعر بأنه رجل محظوظ على الرغم أنه لم يُرزَق بولد، ولم تخل حياته من مفاجآت مقبلة؛ لكنه يخبرنا أن الله رزقه الرضا وهبة النسيان، ومكانة مرموقة بين أقرانه، وحب كثير من الناس، ومنحه الله الفرصة للتجول في العالم، وفي إحدى المرات جمع عدد مفاتيح الغرف الخاصة بالفنادق التي زارها، ووجدها ١٦٣ مفتاحاً موزعة على خريطة العالم. هذه دعوة لقراءة تفاصيل تلك التجربة الإعلامية الثرية، وعلاقاته الكثيرة مع السياسيين والمشاهير، وقد تجذبتك تفاصيل قصة زواجه من الممثلة نجلاء فتحي كما حكاها في الكتاب، والكتاب مادة ثرية للحديث عن تمويلات القنوات التلفزيونية وسقفها السياسي، وتدخلات السلطة عند تجاوز الخطوط الحمراء.

(٢٣) خيارات هيلاري كلينتون الصعبة

نقرأ مذكرات الساسة الأجانب فيما يخص قضايانا العربية؛ لأن السياسي والمسئول العربي لا يكتب عن تجربته؛ فهو لا يبالي بأن يوضح للناس ما فعل وبماذا قام؛ لأن المحاسبة السياسية مفقودة؛ فلا داعي لكتابة قصته للناس.

هيلاري وفلسطين

زارت هيلاري كلينتون إسرائيل للمرة الأولى في ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٨١، في رحلة كنسية برفقة زوجها بيل كلينتون؛ أمضت عشرة أيام في إسرائيل، وتقول أن الشعب الإسرائيلي نال إعجابها بمقدرته وبمثابرته. تردّد هيلاري الحديث المكروور عن إسرائيل واحة الديمقراطية، وتمدح بطولات الشعب الإسرائيلي المزعومة. كوّنت صداقة متينة مع إسحاق رابين وزوجته ليا؛ على الرغم من أن إسحاق رابين لم يسامحها على طردها إياه إلى شرفة البيت الأبيض للتدخين، لكنه احتجّ ذات مرة قائلاً: «إن عدم السماح له بالتدخين في البيت الأبيض يُعطّل مسار السلام»، وساعتها سمحت له. تصف هيلاري شخصية نتنياهو وأفكاره التي تعرفها عنه؛ مثل تشكيكه في فكرة الأرض مقابل السلام، أو حلّ الدولتين؛ فضلاً عن عدم قبوله اتفاقية أوسلو، وتركيزه المطلق على التهديد الإيراني لإسرائيل. تُرجع هيلاري شخصية نتنياهو إلى أنها تشكّلت في أثناء عمله في الجيش الإسرائيلي، وكذلك مقتل

شقيقه يوناتان، الضابط في القوات الخاصة عام ٧٦، وتأثير والده بنزيون المؤرخ المتطرف الذي يحبذ إقامة دولة يهودية تشمل الضفة وغزة كاملتين منذ ما قبل ولادة إسرائيل.

تري هيلاري أن عرفات ارتكب خطأ فادحاً عام ٢٠٠١؛ برفضه الانضمام إلى رئيس الوزراء إيهود باراك في قبوله اقتراحات كليتون، وتكبل الاتهامات لحماس، واصفةً إياها بالإرهابية، وتمدح السلطة تارةً في مقابل ذمّ قطاع غزة، وتشرح تفاصيل تدهور العلاقة بين أوباما ونتنياهو، وخلافهما المستمر حول قضية وقف بناء المستوطنات التي يصرّ عليها أوباما، ويعترض عليها نتنياهو ويتجاهلها. أحياناً، لعبت هيلاري دور الشرطي لتأنيب إسرائيل، لكن الكتاب طافح بالتفهم المزعج لمخاوف إسرائيل، والتزام هيلاري بأمن إسرائيل، وقناعتها بكلّ حُججها. وتحكي لنا عن اتصال إيهود باراك عند مهاجمة الإسرائيليين السفينة التركية؛ قال لها: «لسنا مسرورين بالنتائج؛ ولكن توجب علينا اتخاذ خيارات صعبة، لم نستطع تفادي ذلك». أتى داود أوغلو لزيارة هيلاري كليتون، وتحدث لمدة ساعتين، وكان منفعلاً أشدّ الانفعال، وهدد بأن تركيا قد تعلن الحرب، وأن الهجوم على السفينة يشبه هجوم ١١ سبتمبر / أيلول، وقال لهيلاري: «كيف يمكنك ألا تهتمي؟ أحد القتلى مواطن أمريكي!»، وطالب أوغلو بتعويض الضحايا والاعتذار لتركيا، ورفض نتنياهو الاعتذار، وطلبت هيلاري من هنري كسينجر الضغط على نتنياهو للتواصل مع تركيا والاعتذار، وفعلها أخيراً بمكالمة مع أردوغان للاعتذار عن الإجراءات المتخذة في أثناء العملية.

في المذكرات وصف لعملية السلام المتعثرة في الشرق الأوسط، واجتماعات محمود عباس والإسرائيليين، ودعوة مبارك للجنة الرباعية لشرم الشيخ، وتوقف قليلاً عند وصف متجع شرم الشيخ، وتقول إنه في عملها الدبلوماسي كثيراً ما تكون الاجتماعات في أماكن تتميز بالرفاهية؛ مثل جزيرة بالي وهاواي، لكنها تكون في هذه الأماكن السياحية أسيرة بين الغرفة، وقاعة الاجتماعات، ولا يُتاح لها الوقت للتمتع بالمياه الجميلة أو رفاهية المكان، ثم تلمز مبارك في سطر، وتقول: «على الرغم من أن مبارك كان مستبدًا؛ إلا أنه كان حريصًا على حل الدولتين والسلام في الشرق الأوسط».

مصر والربيع العربي

نجد في مذكرات هيلاري كلينتون حديثاً عن لقاءها بعلي عبد الله صالح الرئيس اليمني؛ الذي تصف علاقة الأمريكيان به بأنها رمز للخيار المحيّر الذي تعانیه السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط؛ لقد كان فاسداً ومستبدًا، لكنه التزم بمحاربة تنظيم القاعدة؛ لذلك قررت إدارة أوباما أن تتغاضى عما يزعجها في سياسة صالح مقابل خدماته الأمنية، وعندما ألحّت هيلاري على صالح للحديث عن ملف حقوق الإنسان في زيارتها لليمن، تشاغل بعرض بندقية أثرية قدّمها إليه الجنرال نورمان شوارزكوف قائد حرب الخليج. الأمن مقابل الديمقراطية حجة تدافع عنها هيلاري كثيراً، وتحاول أن تقول للقارئ الشكّاك أنهم ليسوا براجماتيين إلى هذا الحدّ، والدفاع المبالغ فيه عن النفس يشكّك القارئ في جميع تلك الحجج، ويوضّح له أن السياسة براجماتية؛ وإن تزيّنت ظاهرياً بالقيم.

تشرح هيلاري أحداث الثورة المصرية من وجهة نظرها، وتصف مبارك بأنه حكم مصر مثل فرعون بسلطة شبه مطلقة طوال ثلاثة عقود، وأنه قمع الإسلاميين والمعارضين الآخرين قمعًا صارمًا، ثم توضح أن الاحتجاجات في مصر وضعت إدارة أوباما في موقف دقيق؛ لأن مبارك حليف إستراتيجي للولايات المتحدة، وتحكي عن محاولتها التهرب من الإجابة عند سؤالها عن موقفها من الأحداث في مصر، والتي أجابت عنها بأن النظام مستقر، ثم تحكي عن مشاركة أوباما في اجتماع جرى في ٢٨ يناير/ كانون الثاني ٢٠١١؛ ضمّ فريق الأمن القومي للحديث عن الوضع في مصر، وأعيد النقاش في الأسئلة التي حيّرت صنّاع السياسة الأمريكية عبر عدة أجيال: كيف يمكن تحقيق التوازن بين المصالح الإستراتيجية للولايات المتحدة، وبين دعمها للمبادئ والقيم والحريات؟ هل يمكن عندما يتم تغذية الديمقراطية ودعمها تحمّل فاتورة ذلك، وتكبّد عواقب سلبية غير مقصودة؟

انجرف مساعدو أوباما في البيت الأبيض، في جمال لحظة الثورة ودراميتها، مع تدفق الصور القادمة من ميدان التحرير في تأييد الثورة، ثم توضح هيلاري أنها شاطرتهم الانبهار باللحظة ثم قلقت؛ لأنها شعرت أن الأمريكيان يتخلون عن شريك قديم، وأنهم بقبول اللحظة الثورية يسلمون مصر وإسرائيل والأردن والمنطقة ككل إلى مصير مجهول وخطر! ثم تُعَدّد مزايا مبارك، ودوره في تكريس العداء مع إيران، والتضييق على القاعدة، أو فتح خطوط الملاحة في قناة السويس؛ فضلًا عن الحفاظ على أمن إسرائيل؛ رجلهم في المنطقة لم يقصّر في أي من الطلبات؛ فلماذا تتخلي عنه بعد ثلاثين عامًا من التعاون؟!

كانت هيلاري مع التمهّل ووجوب التزام الحذر وعدم الاندفاع في تأييد الاحتجاجات، وظهرت على التلفزيون، وتحدثت عن الانتقال السلمي والمنظم إلى النظام الديمقراطي، وقالت: «استعملتُ كلمة منظم بدلاً من فوري عمدًا»، وطالب البعض في فريق الرئيس أن تلمح إلى تنحّي مبارك لكنها رفضت، ثم أوصت هيلاري الرئيس أوباما بإرسال مبعوث خاص للتحدّث مع مبارك، وعرض خطوات للإصلاح، واقتُرحت عليه فرانك ويزنر؛ أحد الدبلوماسيين المتقاعدين، وكان سفيرًا للولايات المتحدة في مصر بين عامي ١٩٨٦ - ١٩٩١، وجمعته بمبارك علاقة صداقة قوية. سافر ويزنر إلى القاهرة، والتقى مبارك في ٣١ يناير/ كانون الثاني، ونقل إليه رسالة الأمريكيّان، استمع إليه مبارك؛ لكنه لم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة كما تعبر الوزيرة. شاهدوا خطاب مبارك الذي خرج فيه وهو يقول إنه لن يترشح ثانية، لكنه لم يرفع قانون الطوارئ، أو يعدّ أن ابنه لن يكون من المترشحين، وكان خطابًا مخيبًا لآمال الحشود في الساحات، وحتى للأمريكان. قال أوباما: «لن يكفي هذا لوقف الاحتجاجات». اتصل أوباما بمبارك ليُعبّر عن الأمر بنفسه، ثم خرج بيان من أوباما يدعو للانتقال السلمي للسلطة، وأن يبدأ ذلك الانتقال فورًا.

تواصلت هيلاري كليتون مع وزير الخارجية أحمد أبو الغيط؛ الذي بدأ أقل تفاؤلاً من المرات السابقة، وكان واضحًا شعوره بخيبة الأمل، واشتكى لها من دفع الولايات المتحدة مبارك خارج الحكم بشكل غير رسمي، ثم لَوْح بورقة الإيرانيين وسرورهم بسقوط مبارك، وكذلك قال إنه يتخوَّف من وصول الإسلاميين إلى الحكم، وقال لها في تدلّل وسُخف: «لديّ حفيدتان، وأريدُهما أن تترعرعا لتكونا مثل جدّتهما

ومثلك، وليس لترتديا النقاب مثل السعودية، وأن هذا هو كفاح حياته؛
العجيب هو لجوء رجال النظام المصري لهذه الحُجج لمغازلة الدعم
الأمريكي. يوضح الكاتب بلال فضل في برنامجه عصير الكتب أن
هيلاري كلينتون في مذكراتها السابقة تاريخٌ مُعاش، والتي لم تُترجم إلى
العربية، قد عبّرت في وصلة مديح عن إعجابها بمبارك وزوجته سوزان،
ووصفتها بالثنائي المبهّر، وأن مبارك يحمل ملامح فرعون عتيق، وأنها
دافعت عن مواقفه السياسية.

خرج مبارك من الحكم، وزارت هيلاري القاهرة بعد نحو شهر،
وسارت في ميدان التحرير، وصاح بعض المتظاهرين: «أهلاً بكم في
مصر الجديدة»، ثم تحكي عن لقاءها بعض الطلاب والناشطين الذين
أدّوا أدوارًا قيادية في التظاهرات، وأخذت تسألهم عن خططهم للانتقال
من الاحتجاج إلى العمل السياسي، واقتراحاتهم بخصوص الدستور. لم
ترقها الإجابات، ووصفت الناشطين بأنهم مجموعة غير منظمة، وغير
مستعدة لخوض الانتخابات أو التأثير في أي شيء، وأنهم لا يملكون
الخبرة السياسية، ولا يعرفون طريقة تنظيم الأحزاب، وإدارة الحملات؛
تجادلوا فيما بينهم في الاجتماع، وألقوا اللوم على الولايات المتحدة.
خرجت من الاجتماع، وقد ساورها القلق من تسليمهم البلاد للإخوان
المسلمين أو الجيش نتيجة تقصيرهم، ثم تُردف: «وهو بالضبط ما
حدث». وعندما طالعتُ هذه الفقرة تعجبتُ من استئساد هذه الدبلوماسية
الأمريكية على مجموعة من الناشطين حُرّموا العمل السياسي مدة ثلاثين
عامًا في عهد مبارك، وقد ضُيق في عهده على كلِّ محاولة لممارسة
السياسة، ومُنعت الصحافة الحرة؛ فمن أين سيأتي هؤلاء بخبرة سياسية؟!

تحكي هيلاري عن مقابلتها مجموعة من الأقباط المسيحيين، وسؤالهم حول ما يتردد عن مساعدتها «هوما عابدين»، وكونها تنتمي للإخوان المسلمين، وتضايقت هيلاري من انتشار تلك المعلومة المغلوطة التي روّج لها بعض أعضاء الكونجرس، وتكمل هيلاري حديثها بنقد تجربة مرسى، واتهامه بأنه تصادم مع القضاء، وسعى إلى تهميش خصومه السياسيين، لكنه فاجأ بعض المشككين بالإبقاء على معاهدة السلام مع إسرائيل، ومساعدة هيلاري على التفاوض على وقف إطلاق النار في غزة في نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٢.

لا نجد في المذكرات أي شيء عن التعاون مع الإخوان لإخراج داعش وغيرها من الشائعات التي نُسبت إلى هيلاري كليتون. تُواصل هيلاري شرح مواقفها مما حدث في احتجاجات البحرين، وأن الملحق العسكري في الرياض أبلغها بتحرك القوات السعودية للمشاركة في عملية عسكرية في البحرين. تواصلت مع وزراء الخارجية، ولم تردول الخليج ضرورةً لإبلاغ الولايات المتحدة، أو سؤالها، أو سماع رأي الإدارة الأمريكية في ذلك.

تبدأ هيلاري كليتون، وزيرة الخارجية الأمريكية حديثها عن سوريا في مذكراتها خيارات صعبة باقتباس عبارة كوفي عنان الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة في جنيف؛ إذ يقول: «التاريخ قاضٍ ماهر، وسيحاكمنا جميعًا في قسوة؛ إذا ثبت أننا عاجزون اليوم عن السير في الدرب الصحيح»، قالها في نهاية يونيو/ حزيران ٢٠١٢، في اجتماع من أجل إيجاد حل للقضية في سوريا.

تروي هيلاري قصة الثورة، وخروج المتظاهرين للتظاهر ضد نظام بشار الأسد الاستبدادي، ومواجهة قوى الأمن لهم، ولجوء السلطة إلى الاعتقالات الجماعية. وتحكي أيضًا عن علاقتها بالملف السوري، والتي بدأت باقتراحها الدبلوماسي المتمرس روبرت فورد؛ ليكون سفيرًا للولايات المتحدة في سوريا. وصل فورد إلى سوريا، وبأشر أعماله سفيرًا، وأكمل الأسد منهجه المتعمد في القتل، والاعتداء على المدنيين، ونشر الدبابات في كل مكان. أدانت الولايات المتحدة ما يحدث، وفي يوليو / تموز ٢٠١١، أقدم محتجون موالون للنظام على اقتحام مجمع السفارة، وتحطيم النوافذ، والكتابة على الجدران.

في هذه الظروف توجه السفير الأمريكي إلى حُماة؛ حيث كانت وقعت أحداث دامية عام ١٩٨٢، والتقى بالمتظاهرين؛ مؤكدًا تضامن الولايات المتحدة، وتعاطفها مع المحتجين. قُدِّر تصرف روبرت تقديرًا كبيرًا داخل الإدارة الأمريكية، وثُبت في وظيفته سفيرًا من قبل مجلس الشيوخ؛ لأنه ذهب خارج جدران السفارة لينفذ مهامه.

تذكر هيلاري كذب وعود الأسد المتكررة، كما تذكر نداءات جامعة الدول العربية؛ وصولًا إلى اجتماعات الأمم المتحدة، وتشرح رفض الروس القاطع لكل ما يمكن أن يشكل عامل ضغط على الأسد، وأنهم عزموا على عدم تكرار تجربة ليبيا، التي أفضت إلى تدخل حلف الناتو. كما تصف هيلاري الدعاوى الروسية المتعلقة التمسك بالسيادة، ومعارضة التدخل الأجنبي في سوريا بالكاذبة؛ ففيما بين عامي ٢٠٠٨ و ٢٠١٤ لم يتوان بوتين عن إرسال قوات إلى جورجيا وأوكرانيا؛ مغتصبًا سيادة هاتين الدولتين؛ فقط لأن الأمر يخدم مصالحه.

ما تنقله هيلاري عن أحاديثها مع سيرجي لافروف؛ وزير الخارجية الروسي يدل على حالة من المراوغة الروسية؛ ففي ميونخ رفض الحديث عن تدخل عسكري في سوريا، ثم سألها: «ولكن، ما هي نهاية اللعبة؟»، وتكرّر استخدام روسيا والصين حق النقض في مجلس الأمن، ومنعتا العالم من إدانة العنف؛ تقول هيلاري: «إنهم بهذا التصرف يتحملون مسئولية الفظاعات المرتكبة في سوريا؛ الأمر الذي وصفته بالحقير».

تروي بعد ذلك ملابسات تشكيل ما عُرف بأصدقاء الشعب السوري، وظهور أحاديث خلف الكواليس عن تسليح الثوار؛ تنسب هيلاري هذه الفكرة لدول الخليج، وتبرر السبب بأن الخليج كان يشاهد جرائم ذبح الثوار السنة والمدنيين عبر قناة الجزيرة، وبدأ صبرهم ينفد؛ رأى وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل أن تزويد الثوار بالأسلحة فكرة ممتازة، وكانت هيلاري تخشى وصول هذه الأسلحة للمتطرفين. بعد ذلك توجّهت لمقابلة الأمير سعود الفيصل والملك عبد الله، وتكرّر الحديث عن خطر إيران وضرورة التدخل في سوريا، وكان ردّ الأمير سعود الفيصل أن الأسد لن يتراجع عن نهجه في القمع وممارسة العنف، وأن والدته لن تسمح له بالتراجع، وأن الأسد سيتبع نهج والده في قمع الثورات. كان الأمير يشير إلى ما حدث في حماة عام ١٩٨٢. ثم توجّهت هيلاري إلى إسطنبول، والتقت مع ممثلين من تركيا والسعودية والإمارات وقطر، واستمعت الرسائل نفسها عن ضرورة تسليح الثوار.

حاول كوفي عنان، كما تشرح هيلاري كليتون، اقتراح حلول، لكن الأسد لم يتخذ أي خطوة صادقة لتطبيق ما اتفق عليه من خطة عنان، ووقعت في أثناء ذلك مجزرة الحولة، وكان الضحايا نصفهم من الأطفال،

واضطر العنف المتراكمي، والمستمر في سوريا الأمم المتحدة إلى تعليق عمل المراقبين الأممين.

توجهت هيلاري، رفقة أوباما، إلى لوس كابوس في المكسيك؛ حيث التقيا بوتين، وجلسوا نحو ساعتين. استحوذت سوريا على مجمل المحادثات؛ ادّعى بوتين أنه لا يحب الأسد شخصيًا؛ لأنه كان يسبب الصداق لموسكو؛ زاعمًا أنه لا يملك نفوذًا حقيقيًا عليه، ثم حذّره بوتين من المتطرفين؛ مشيرًا إلى الفوضى التي أعقبت سقوط القذافي. واستفاضة هيلاري في شرح كل تلاعبات لافروف في المفاوضات، ولعبه بالكلمات، واختلاف أحاديثه أمام الكاميرا عما يقوله في الاجتماعات المغلقة، واستخدامه الثغرات؛ لتثبيت وضع الأسد ما أمكنه ذلك، ورفضه خروج الأسد من المشهد السياسي، ورفض الروس ممارسة ضغوط على نظام الأسد؛ بل لقد شاركوا نظام الأسد في جرائم الحرب المرتكبة بحق السوريين.

قدّم كوفي عنان استقالته في اشمزاز تام، وقال لهيلاري: «فعلتُ ما في وسعي، وفي بعض الأحيان لا يأتي الأفضل على المستوى المطلوب»، فأجابته هيلاري: «لا أعلم ماذا كنت لتفعل أكثر وسط عناد الروس في مجلس الأمن؛ لا أستطيع تصور عمل يفوق ما قمنا به؛ أقله عملنا في جنيف على هيكليّة، لكنهم كانوا ثابتين في آرائهم».

بدأت هيلاري تطلق على سوريا صفة المعضلة الشريرة؛ وهي عبارة يلجأ إليها خبراء التخطيط، لوصف التحديات المستعصية. توضح هيلاري موقفها من قضية تسليح الثوار، وتحكي عن القلق من انفجار

صندوق الشرور الذي يمكن أن يتج عنه متطرفون، وعن القلق من خيارات ما بعد رحيل الأسد، وتردد كلمة لويس الخامس عشر: «من بعدي الطوفان»؛ دلالة على تفكير نظام الأسد. فكرت أيضًا في دعم قوى ثورية غير متطرفة؛ تمدها بالسلاح، وتسهم في طرد الأسد، واختارت الجنرال ديفيد بتريوس مدير وكالة الاستخبارات لمناقشة هذا الخيار. كانت قصة المجاهدين الأفغان ماثلة دائمًا في أذهان الإدارة الأمريكية؛ تخوفًا من تكرار التجربة، وتبذل اتجاه البندقية ناحية الغرب وأمريكا بعد سقوط الأسد. وانتهى النقاش برفض أوباما اقتراح تسليح الثوار، ثم تصل إلى نهاية فترة ولايتها، وخروجها من العمل الدبلوماسي، وتحكي عن تحركات جون كيري، وأوباما مع الروس لنزع الأسلحة الكيماوية، وتنهي حديثها عن سوريا بالقول: «يستحيل على المرء أن يكتفي بالفُرجة على المعاناة في سوريا، وإن كان مواطنًا عاديًا، من دون أن يسأل ما إذا كان يمكنه القيام بأكثر».

(٢٤) سوريا في مذكرات وزير الخارجية الأمريكي جون كيري

حصلتُ على مذكرات جون كيري وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية المعنونة: كل يوم هو إضافة. يخصّص كيري أكثر من موضع في المذكرات للحديث عن ملف سوريا؛ ففي عام ٢٠٠٩ تولى كيري مسئولية رئاسة لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. أصبح رئيسًا للجنة نفسها التي أدلى فيها بشهادته عن حرب فيتنام في عام ١٩٧١؛ وهي اللجنة التي شارك فيها من أصبحوا رؤساء فيما بعد؛ من جاك كينيدي إلى باراك أوباما، ومن أصبحوا نواب رؤساء من هيوبرت همفري إلى جو بايدن.

في أثناء تولّيه هذا المنصب شارك في نقاشات كثيرة من بغداد إلى كابول، لكنه يأتي على ذكر الأسد عندما تحدّث عن زيارته لسوريا لكي يلتقي به في أثناء تولّيه منصبه؛ ففي سنوات إدارة جورج بوش الابن أمّدت سوريا العراق بالمقاتلين؛ لذلك عدّتها إدارة بوش من الدول الراحية للإرهاب. وفي بداية عهد أوباما أراد كيري أن تكون الزيارة محاولة لمعرفة نوايا سوريا فيما يخصّ قضية السلام مع إسرائيل. رأى كيري أن سوريا بمنزلة «برميل بارود ديموغرافي ستصعب إعادة تجميع أجزائه إذا انفجر»؛ لذلك شجّع أوباما كيري على التعرف على نوايا الأسد. كان كيري قد التقى حافظ الأسد قبل ذلك، لكنه كان اللقاء الأول

مع بشار الأسد؛ باستثناء وقفة قصيرة في دمشق عام ٢٠٠٥. لم يكن أحدٌ في البيت الأبيض يثق في بشار، حتى كيري؛ لكنه أراد المحاولة، وكان الهدف الرئيس من ذلك إخراج سوريا من زواج المصلحة مع إيران، والبدء في مفاوضات مع إسرائيل.

التقى كيري بشار في عام ٢٠٠٩، ونوقشت في اللقاء مسألة محطة الطاقة النووية السورية التي قصفتها إسرائيل، وطلب كيري من بشار أن تتفقد الوكالة الدولية للطاقة الذرية المحطة النووية. نظر الأسد في عين كيري قائلاً: «إنها ليست منشأة نووية». عدّ كيري كلام الأسد كذبةً تافهةً لا أكثر. في الزيارة الثانية كان البيت الأبيض قد أطلع كيري على مسألة تهريب السلاح عبر الحدود إلى حزب الله. ذهب كيري، وأطلع الأسد على هذا الموضوع، وكان الردُّ هي الإنكار. لذلك طلب كيري من المساعدين الخروج ليتسنى لها الانفراد ببشار، ثم بدأ كيري بالقول: «هذا ليس جدالاً، لقد رأيت الأدلة؛ الأمر يحدث، ونعلم أنه يحدث»، فأجاب الأسد: «كل شيء قابل للتفاوض»، وأشاح بوجهه عن كيري. ثم يكمل كيري وصف شخصية بشار: «إن التناقض في الكلام تصدر عن حاكم مستبدٍّ يفتقر إلى النضج، وهو يتفوه بكذبة واضحة، وكانت لحظة كاشفة أفادتني بعد سنوات في المعضلة السورية؛ فالرجل الذي يكذب في وجهك مباشرة، وهو على بُعد أقدام منك، لن يصعب عليه أن يكذب على العالم بعد أن قتل شعبه بالغاز المسموم».

سأل الأسد كيري عن إمكانية الانخراط في مفاوضات لاستعادة الجولان، ونصحه كيري أنه لو كان جاداً فعليه أن يقدم اقتراحاً خاصاً على هيئة رسالة من الأسد إلى أوباما يطلب فيها الدعم الأمريكي

لمحادثات السلام مع إسرائيل. في اليوم التالي سافر جون كيري إلى إسرائيل، والتقى مع بنيامين نتنياهو، وأطلععه على رسالة الأسد؛ فوجيء نتنياهو من الرسالة، ومن استعداد الأسد للذهاب إلى ذلك الحد، نقل كيري الرسالة إلى وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون.

بعد ذلك اختبرت الولايات المتحدة الأسد؛ من خلال توجيه عدة طلبات إليه؛ بعضها بسيط يمكن تنفيذه؛ مثل طلب فتح مركز ثقافي أمريكي، أو تعيين سفير في لبنان؛ لإرسال رسالة عن عدم نية سوريا التدخل في الانتخابات اللبنانية، وبعضها كان متابعة لتصرفات الأسد على الحدود، وكانت النتيجة أنه لم يكف عن التعاون مع حزب الله. ثم يحكي كيري عن نقاشات خاضها مع الأسد؛ وعد فيها بتنفيذ الطلبات الأمريكية، وعن شعوره بالضغط بسبب مئات الآلاف من الخريجين الذين لا يجد لهم وظائف، وأوضح لكيري أن البديل سيكون الحركات الإسلامية، ثم تحدث معه عن الحنين لعصر كان أكثر علمانية، وأطلع بشار كيري على صورة لوالدته في المسجد الأموي مرتدية تنورة متوسطة الطول، ومن دون حجاب، ثم علّق وزير الخارجية السوري: «إذا لم نجد سبيلاً لتأمين المزيد من الوظائف لشعبنا، فسوف تعود بعد عشر سنوات، وتجده الملا أسد»، وضحك الأسد قائلاً: «سأكون بشار الملتحي». كان التلويح بخطر الحركات الإسلامية ورقة الأسد مع الأمريكان، لكن المفارقة كانت في تلويحه بالاستعانة بإيران من أجل الوظائف للشعب، لكنه استعان بإيران فعلاً لتأتي بالمليشيات لتحصد أرواح شعبه، وليس لجلب الوظائف!

سوريا الجرح المفتوح

يأتي جون كيري للحدث عن سوريا التي يسميها «الجرح المفتوح»، بعد أن أصبح وزير خارجية، وبعد قتل الأسد أكثر من مئة ألف في تلك الفترة، وفي ٢٠١١ قال باراك أوباما: «إن على الأسد التنازل عن السلطة». بعد ذلك رسم خطأ أحمر شهيرًا؛ وهو استخدام الأسلحة الكيميائية، لكن الأسد تجاوز ذلك الخط الأحمر. ويصف كيري في المذكرات مشهد أطفال سوريين تعرضوا للغازات السامة، وقال إن بعض هؤلاء الأطفال من عمر أحفاده، ومع وصول الأخبار إلى كيري شعر بالغثيان والحقن على الأسد.

برغم أن كيري توجه إلى روسيا للقاء بوتين قبل ذلك؛ عندما وصلت معلومات إلى الحكومة الأمريكية عن نية الأسد استخدام غاز السارين في بعض المناطق، التقى كيري بوتين، ويهمن أن نرى وجهة نظر بوتين التي ذكرها لكيري؛ والتي عبّر فيها بوتين عن أسفه عن تخلي أمريكا عن الأحكام في مصر وليبيا؛ يقصد مبارك والقذافي؛ فهؤلاء، برأي بوتين، يمكن التعويل عليهم، وهناك موجة تطرف برزت في ليبيا بعد سقوط القذافي. هكذا أخبر بوتين وزير الخارجية الأمريكي، وأوضح له هذا ما يحدث عندما يسقط الأحكام الأقوياء دون إعداد بديل، ثم يوضح كيري أنه «وجد بوتين متلونا، ويتهرب من النقاش حول مسألة انتقال السلطة في سوريا؛ بحجة أن هذا ليس وقت إجراء هندسة اجتماعية في البلدان ذات السيادة، وأنه يخشى من انهيار سوريا، وسوء تصرفات الأسد».

ذهب كيري إلى أن توجيه ضربات عسكرية للنظام ردّ مناسب وضروري على استخدام الأسلحة الكيميائية، وقد تفاعل كيري بتصور أن هذه الضربات قد تفتح مسارًا للتفاوض مع النظام، وتشكّل حكومة انتقالية تتكون من عناصر النظام الأكثر قبولًا إلى جانب ممثلي المعارضة العلمانية. نقل كيري هذه الأفكار للبيت الأبيض في ثلاث ساعات ونصف في أحد الاجتماعات، واتفق الحضور على أن الضربات العسكرية هي من الضرورة بمكان للردّ على تجاوزات الأسد، وقد دعم مارتن ديمبسي رئيس هيئة الأركان المشتركة، وتشاك هاغل، وزير الدفاع، هذه المقترحات. كانت ثمة حُجج لبعض المعارضين؛ منها أن في ذلك تكرار نموذج ليبيا الذي لم تكن نتيجته مرضية، أو أن هناك قلقًا من تدفق اللاجئين للبلدان المجاورة.

لم يتوقع كيري ردّة فعل أوباما، ويشرح كيف أن أوباما كان يطلب تحليلات شاملة للعواقب المحتملة على أي قرار سياسي، ثم يذكر كيري كيف انزعج أحد الموظفين في البيت الأبيض عندما قال كيري في أحد الاجتماعات: «إن إعلاننا دعم المعارضة وضرورة رحيل الأسد، مع عدم تقديم دعم حقيقي لهذه المعارضة هو عجز لا أكثر». لكن العبارة لم تنجح في جعل الإدارة الأمريكية أكثر حماسة في ملف سوريا؛ وذلك بسبب أن الأمريكيين كثيرًا ما تدخلوا في الدول؛ لكي لا يظهروا بمظهر العاجز والضعيف، وأتت إدارة أوباما عازمةً على ألا تجعل لهذه الحُجّة تأثيرًا على أيّ قرار من قراراتها.

في الاجتماعات التالية اقترح مارتن ديمبسي إطلاق صواريخ توماهوك من المدمرات المنتشرة في البحر المتوسط على أهداف للنظام؛

علمًا بأن البتاغون كان قد جمع بالفعل قائمة بالأهداف المحتملة قبل أسابيع، تضمنت منشآت عسكرية. وكان الاجتماع التالي بحضور أوباما، وتعرضت المناقشات في هذا الاجتماع بسبب الذريعة القانونية للتدخل العسكري؛ كان الاستدلال بتجربة تدخل كليتون في كوسوفو سابقة يمكن الاعتماد عليها؛ فأمريكا التي تعلم أن روسيا ستمارس حق الفيتو للاعتراض على أي قرار من مجلس الأمن؛ قد وجدت في مشروعية العمل الإنساني مهربًا من سؤال مجلس الأمن.

بدأ أوباما باقتراح إشراك الكونغرس في قضية سوريا، وأوضح كيري أنه لا يطلب تدخلًا عسكريًا، وقصفاً مستمراً لشهور؛ بل فقط ردًا سريعًا ومباغتًا يجعل الأسد يدرك عاقبة فعلته. ومما يذكره كيري أنه عندما تواصل مع الحكومات لحشد قرار بالضرب، فقد دعم الأردن قرار التدخل، وكذلك السعودية. ثم كانت محادثة روسيا التي يصفها كيري بالمحادثة العجيبة؛ إذ اعترض سيرغي لافروف وزير الخارجية الروسي، وادعى أن الشوار هم من قاموا بتجميع المواد الكيميائية، واستخدامها لحشد التعاطف الدولي، ورد كيري بطلب السماح بلجنة دولية للتفتيش في تلك المناطق التي تعرضت للقصف، ورد الروس بالرفض.

كانت المكالمات مستمرة بين كيري ووزير الخارجية البريطاني وليام هيج، الذي وعد أن ديفيد كامرون رئيس الوزراء ملتزم بالخطوات الأمريكية؛ لكن المفاجأة كانت طلب كامرون من البرلمان البريطاني الموافقة على عمل عسكري، والذي توقع أن يحصل على الموافقة بسهولة، لكن أحداث التدخل البريطاني في العراق كانت ماثلة في أذهان البرلمان، ورفض المقترح بسبب تعاون بلير السابق مع بوش إبان حرب

العراق؛ وهو ما ألقى بظلاله على قرارات البرلمان، وأبلغ كامرون الأمريكيان عن التزامه بقرار البرلمان.

مرت ثمانية أيام على الهجمات الكيماوية التي شنها النظام دون ردٍّ من المجتمع الدولي. شعر كيري بالقلق من تضييع الروس الوقت، وطلب الإفصاح عن تقرير سري يتعلق بدور النظام في الهجوم؛ ليطلع الرأي العام على ما اقترفته يدا النظام السوري، لكن خطاب كولن باول القديم الذي يصفه كيري بالمخزي في مجلس الأمن بشأن وجود أسلحة دمار شامل في العراق - كان ماثلاً في الأذهان، واستخدمت الدعاية الروسية هذه الأحداث للقول إن معلومات الأمريكيان خاطئة مثلما كانت خاطئة في العراق.

أجرى أوباما اتصالاً مع كيري؛ ليخبره عن نيته طلب قرار من الكونجرس، لم يكن كيري يتوقع ذلك، وعندها شعر بشخصية أوباما المترددة في الملف السوري، وعن تغييره قناعاته فيها. توقعت سوزان ريس، مستشارة الأمن القومي، أن الكونجرس لن يوافق، ولن يمنح الجمهوريون أوباما أي تفويض للقيام بأي شيء، وكانت أحداث التدخل العسكري الأمريكي في العراق ماثلة في الأذهان، وجعلت الكونجرس يخشى التصويت على التدخل العسكري، كما أن هناك بعض الأعضاء تبلدت أحاسيسهم تجاه ما يحدث في سوريا؛ كما يقول كيري.

العجيب أن بعض المتظاهرين من منظمة كود بينك المناهضة للحرب كانوا يرفعون لافتات في جلسات الاستماع تحمل شعار «لا تقصفوا سوريا»، و«لا تلطخوا أيديكم بالدماء»، ويعلق كيري أن هذا ذكره بسنوات

قضاها كناشط سياسي، لكنه تساءل: «أين اللافتات التي تحمل صور الأطفال الذين ماتوا بسبب أسلحة الأسد؟ ألا يشعرون بالغضب من الأسد؟!»

تزامن ذلك مع وجود أوباما في سان بطرسبرج لحضور قمة مجموعة العشرين مع بوتين؛ أقنع الأخير أوباما أنه يمكن ضمان تأمين مخزون الأسلحة الكيميائية الموجودة لدى النظام، ونقلها للخارج. وتواصل كيري مع لافروف لمناقشة التفاصيل التقنية بخصوص إخراج الأسلحة الكيميائية، ونجد في الكتاب وصفًا لشخصية وزير الخارجية الروسي؛ فهو «يتمتع بالذكاء والحذر واستخدام الحيل الذهنية، أو أساليب يحصل بها على نقاط على طاولة المفاوضات»؛ من ضمن هذه التصرفات التي عدّها كيري فظةً هو تجهيز الوفد الروسي حقائب سفره عند باب الفندق للإيهام أنهم يتجهزون للرحيل دون الوصول إلى اتفاق، وردّ كيري: «هل نضيع وقتنا هنا يا سيرغي، أم نحن بصدد اتفاق؟» وفشلت لعبة لافروف، وأشعل سيجارته، واستكملوا النقاش.

ومن المضحك أن النظام حاول أن يطلب بعض المعدات العسكرية؛ بحجة استخدامها في نقل الأسلحة الكيميائية؛ مثل مركبات لنقل الدبابات، وكانت المشكلة هي الحصول على دولة للقيام فيها بتدمير الأسلحة؛ رفضت تركيا والأردن المشاركة في العملية، ووافقت ألبانيا، ثم مع ضغط المتظاهرين تراجعت، ورفضت روسيا أن يتم ذلك على أرضها؛ وكان الحل هو التخلص منها في البحر عن طريق خبراء الأسلحة الكيميائية، وهكذا تم التخلص من ١٣٠٠ طن من الأسلحة الكيميائية. لم ينجح كيري في إقناع أوباما بتوجيه ضربات للنظام السوري. ويستكمل

الكتاب الحديث عن ظهور داعش، ويرغم قول كيري: «إن الأسد هو مغناطيس جاذب للإرهاب»، لاحقت الإدارة الأمريكية داعش دون معالجة سبب ظهور داعش نفسها؛ ذلك بعد حادثة مقتل الصحفي الأمريكي جيمس فولي؛ والتي وجّه أوباما بعدها ضربات لداعش، ونسّق كيري مع الحكومات العربية للمشاركة في تحالف لضرب داعش. يذكر كيري غضب السعودية من عدم توجيه أوباما ضربات لنظام الأسد، لكنها شاركت مع الدول العربية الأخرى في التحالف الدولي ضد داعش. يشرح كيري كل محاولاته التوصل إلى اتفاق مع روسيا للهدنة، وتواصله المستمر مع سيرغي لافروف، ومدى كذبه هو وبوتين، ويذكر رده على لافروف في اجتماعات الأمم المتحدة بالقول: «كيف يمكن للناس أن يجلسوا إلى طاولة المفاوضات مع النظام الذي يقصف المستشفيات، ويُلقي بغاز الكلورين مرارًا، وتكرارًا، ومرارًا وتكرارًا؛ ويتصرف وكأنه سيفلت من العقاب؟!».

ثم ينتهي حديث كيري بذكر اجتماع جنيف الذي تضمن مناقشة إخلاء حلب ويقول: «لم أشعر يومًا بالعبثية قدر شعوري ذلك اليوم». تنتهي شهادة كيري بأن الجهود الدبلوماسية الأمريكية لإنقاذ سوريا قد ماتت، وأن الجرح ما زال مفتوحًا.

أخيرًا، نحن في حاجة إلى قراءة جميع شهادات من شارك في تلك الفترة من زعماء أو مسئولين دوليين؛ للوقوف على كواليس المجتمع الدولي، وعن عدم تحميله مسؤولية الوضع في سوريا بشكل جاد.

(٢٥) القدس الانتدابية في المذكرات الجوهريّة

تُضفي المذكرات والسّير الذاتية روحًا على الفترات التاريخية التي تتناولها؛ هكذا شعرت وأنا أطلع كتابًا بعنوان: القدس الانتدابية في المذكرات الجوهريّة: الكتاب الثاني من مذكرات الموسيقي واصف جوهريّة ١٩١٨-١٩٤٨؛ تحرير وتقديم: عصام نصار وسليم تمّاري، عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

في هذه المذكرات يصف واصف جوهريّة حالة القدس بعد سقوط العثمانيين، وابتداء فرض الانتداب البريطاني على فلسطين. ما يميز هذه المذكرات هو أنها تكشف وتهزأ وتحتفل في الوقت نفسه بمجموعة من الممارسات الاجتماعية، لكن سليم تمّاري يلفت نظرنا إلى أن الأهم هو البوح؛ فهو السّرّ الكامن وراء قيمة هذه المذكرات. لقد ركّزت هذه المذكرات على الجانب الخفي من الحياة الخاصّة لوجهاء القدس وأعيانها، وعلى سلوكيات النخبتين العثمانية والبريطانية من عسكري وسياسيين، وعلى فضائح وبطولات الناس العاديين الذين وُلد بينهم واصف جوهريّة وكبّر. تسهم المذكرات في إزالة الغمّة عن طبيعة تلك الحقبة؛ خصوصًا الفترة التي يسميها سليم تمّاري «السنوات العتبية»؛ تلك التي تلت سقوط العثمانيين في شتاء ١٩١٧، وبداية الانتداب البريطاني ١٩٢١.

كانت الأعوام الثلاثة التي سبقت سقوط القدس من أحلك وأقسى الحقب التي مرت على المدينة؛ إذ اجتمعت عليها قسوة الحرب

والمجاعات، وأصبح الافتقار للمواد الغذائية هاجس الناس. ويحكي واصف جوهرية بأسلوبه الساخر كيف تحولت الأغاني الشعبية للحديث عن الأطباق الشعبية التي خلت حياة الناس منها. وقد ساهم هو بإحدى هذه الأغاني، وانتشرت أنشودة المجاعة في القدس، وشرع الناس ينشدونها في الشوارع، وهم يستحضرون الأكلات الشهية التي حُرِّموا بسبب الحرب:

كرشات كرشات كرشات محشية

بيضات بيضات بيضات مشوية

يا سمك يا سمك يا سمك مقلي

واسكب، واشرب، وغني، واطرب

يحكي واصف حياته الشخصية، ويصف سنوات عزوبته التي كانت قبل دخول الإنجليز فلسطين، وهو يصف نفسه ويقول: «تارةً أكون في سهرة في محلة بيت حطة، وعند الصباح أكون في شطحة ضُمَّت أرقى العائلات وأعيان القدس، ثم جلسة خاصة في بيت من زوايا القدس مع القبضيات والزعران».

مع دخول الإنجليز انهار النظام العثماني عسكريًا وسياسيًا، وكان الحكم الكولونيالي البريطاني يحاول أن يوطد مؤسساته. يقول الكولونيل ستورز حاكم القدس العسكري: «عشنا في دولة من الجهل، وكلمتي كانت القانون». وتم تعليق العمل بجميع القوانين المدنية لصالح الأحكام العرفية التي أصدرها الحاكم العسكري، ومَرَّت فلسطين بفترة لم يكن

فيها محامون ولا قضاة ولا محاكم ولا صحف؛ كما تقول بيان نويهض الحوت.

من التفاصيل التي يذكرها واصف جهورية نستطيع أن نرى أثر السلطات الانتدابية على التخطيط المدني على أيدي المهندسين المعماريين ماكليين وريتشموند وآشبي، وعلى أيدي جورج البشر؛ خصوصًا في تخطيط الجناثن الذي تبناه آشبي؛ لوضع الحد الفاصل بين البلدة القديمة والأحياء الجديدة. لقد أراد آشبي تقسيم المدينة إلى نطاقين؛ أولهما: البلدة القديمة؛ بتحويلها لمعلم تاريخي مخصص للمحافظ الأثرية؛ وكأنه متحف ضخم، وجدّد سور المدينة، مع وجود مسارات للسير حول منطقة البلدة القديمة؛ لتستحضر في أذهان الزائر شعورًا دينيًا وعاطفيًا، وتم وضع المقاعد الخشبية في مواقع إستراتيجية حول تلك المزارات، والنطاق الثاني البلدة الحديثة في شمال المدينة وغربها، وقد تم تطبيعها للنمو.

هناك أحد السمات لتلك الفترة العتبية؛ وهي الحالة الرخوة للحدود السياسية؛ لقد بقيت الحدود بين فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسوريا في وضعها العثماني المنفتح؛ ففي صيف عام ١٩٢٢ قرر واصف أن يمضي إجازته مع أخيه خليل في ربوع سوريا ولبنان؛ مرورًا بالحدود في شمال فلسطين. يُدوّن واصف جهورية ذكرياته عن عبوره للحدود من منطقة رأس الناقورة من دون أي التفاتة، وكأنه يمر من منطقة إلى أخرى داخل البلد نفسه، ويمر مرة أخرى بعد ثلاثة أعوام مع عروسته فيكتوريا بالسهولة، والانسياوية نفسه؛ هذه النقطة الحدودية التي ستحول إلى نقطة عبور دولية شديدة الإحكام بعد عشرة أعوام من هذه الواقعة.

نبأ واصف مركزًا حساسًا في سلك الموظفين الانتدابي؛ وبالتحديد في دائرة الأراضي، وكان من مهمات الطاقم الذي عمل معه تقنين وتخصيص نظام ملكية الأراضي الفلسطيني، ولقد سجل لنا التفاصيل القانونية التي أدخلها الإنجليز على نظام تملك الأراضي؛ مما أدى إلى تسهيل نقل حيازة الأراضي المدنية والزراعية إلى اليهود؛ إذ شمل إلغاء ضريبتَي العُشر والويركو؛ وهي ضرائب كانت تُفرض في حال نقل ملكية الأراضي.

تسجل المذكرات كذلك انتهاء شهر العسل بين المواطنين والسلطات البريطانية، وظهور مواجهات؛ يذكر منها مسيرة احتفالات النبي موسى التي أقام الجيش فيها قوات دفاعية هائلة، وعندما وصل الموكب المندفِع والهائج إلى باب الخليل المغلق والمليء بالعساكر - قرر الحاكم العسكري رونالد ستورز الانسحاب بالقوات البريطانية؛ تجنبًا للمواجهات مع جموع الشباب، وأشاوس جبل الخليل أو جبل النار؛ كما يحكي واصف.

تساعدنا المذكرات على تصور مرحلة التحديث في مدينة القدس، وظهور المقاهي والنوادي الاجتماعية والأدبية، وبروز ثقافة الترفيه في المدينة. وانتشرت أغنية «الفؤاد مخلوق لحبك»؛ رغم أنها كانت موجهة في الأصل للملك فؤاد، ثم أخذت الأغنية تدل على انتصارات مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، وكان الطلب على أسطوانات هذه الأغنية كثيرًا في تلك الفترة.

يحكي واصف قصة حبه لفيكثوريا، ووقوعه في الغرام ثم خطوبته

وزواجه بها، وقصة مغامراته في شهر العسل في القاهرة، وتعود هذه المصارحات الشخصية للظهور مرة أخرى قرب نهاية الكتاب عند وفاة زوجته، ونراه كاتبًا ساخرًا؛ حيث يحكي لنا، وهو يستقبل المعزين في بيت ابنته يسرى في بيروت؛ فقد ظهر رجل لم يلحظه واصف من قبل، ورآه يتلو خطاب رثاء طويل؛ يعدد فيه مناقب المرحومة بعاطفة قوية، وأخذ واصف يبكي ويتحجب، ثم انتقل هذا الشخص إلى وصف عائلة واصف جوهرية ومدحها، ثم يقترب منه ويعرف واصف أن هذا الرجل من فئة ممتهني حضور الجنائز؛ الذين يتقلون من مناحة إلى أخرى بهدف الارتزاق، ويصحو واصف من أحزانه مؤقتًا، ويضع في يد الرجل بعض الليرات، وهو يقول له: «يكفي أرجوك، مزعت قلبي... فهذا يكفي»، أما الرجل فيرتبك، ويعطي واصف الورقة التي يقرأ منها؛ فيرد عليه: «لا يا أخي، دعها لك؛ فقد تلزمك أكثر مني، وتقرأها لغيري».

(٢٦) نجيب المانع: ذكريات عمر أكلته الحروف

وُلد نجيب المانع في قرية الزبير القريبة من البصرة. يحكي عن طفولته بطريقة مشوقة؛ إذ رأى عالمين من عوالم الطفولة في قريته؛ عالم الأطفال الذين يتعلمون العلوم الشرعية، ويحفظون القرآن، ويفهمون أدق قضايا النحو العربي، ويتبحرون في الشعر وأوزانه وتفعيلاته، ويمارسون المحاسبة، ويدرسون الفقه والتفسير، وهناك الأطفال الذين يذهبون للمدرسة الابتدائية في البصرة، ويلتزمون بدروس وزارة المعارف؛ تلك الدروس التي يصفها بأنها «تلمس جرف الماء دون العوم فيه». وبينهما إلى أن رؤيته لهؤلاء الأطفال في الزبير الذين يدرسون تلك العلوم الصعبة جعلته يُكذِّب ما يتداوله علماء التربية من ترهات حول ضرورة التعليم المناسب للسنّ. حتى في الغرب كانوا قبل حتمى الشهادات يحفظون الإلياذة والأوديسة في عمر مبكر، والسّير القديمة ملأى بأناسٍ مثل هؤلاء.

غادر نجيب البصرة لدراسة الحقوق في بغداد، وفي بغداد اكتشف أثر الحرب العالمية الثانية على نفوس العديد من شعرائها، والذي أُنبت في العراق أوراداً أخذت الشكل، والتلوينات ذات أشواك لذيدة فاخرة. يلاحظ نجيب المانع أن هؤلاء الشعراء احتضنوا الأسى والمعاناة، وكتبوا -وهم شباب في العشرينات من أعمارهم- كتباً ودواوين تُشي بأنهم شيوخ أثقل كواهلهم الهمُّ الأكبر؛ همُّ الوجود الثقيل، ومن عناوين دواوينهم المنبئة عن شعورهم بالغثيان، أو استيائهم، أو اسوداد دنياهم:

أزهار ذابلة لبدر شاكر السياب، وخفقة الطين لبلند الحيدري، وأغاني المدينة الميتة وأباريق مهشمة لعبد الوهاب البياتي. وفي العراق ظهرت موجة رومنتيقية ثانية بعد الموجة الأولى لجماعة أبولو خلال الثلاثينيات في مصر، ويصفها بأنها ترى الصحة في المرض، وترى الاضطراب النفسي هو الطريق المؤدي لمتانة الروح وبهائها، وكان من بين رافعي راية هذا التشويش الشاعر حسين مردان.

سيرة نجيب المانع مختلفة وشيقة؛ ليست سيرة ثرثرة أو مملّة؛ فهو لا يسجل فيها إلاّ اللآفت والمشوّق؛ يقلّل كاتبها من الحكي عبر خط مستقيم من الولادة والطفولة إلى الشباب والشيخوخة؛ يقفز بين فترة وفترة بخفة ورشاقة؛ يسجل ما يفكر فيه دون أن يهتم بالتتابع الزمني؛ يقف وقفة مع قلّة تعني الشعراء بجمال نهر دجلة، وقلّة اللوحات التي صورت النهر، وينتقل بعدها إلى عدم تلذّذه بالمقام العراقي في الموسيقى؛ فهو عسير على مشاعره، ولا يستجيب له، على عكس أنواع الموسيقى الأخرى، ثم يحكي عن فشله في المحاماة.

السيرة الذاتية مخاطرة في منطقتنا؛ فالكاتب يشعر بالحساسية، ويتعذر عليه الحديث عن الأحياء، ومطلوب منه أن يسكت عن الأموات؛ فتأتي السيرة باهتة، ويبقى للكاتب استعراض الذات؛ مما يجعل القارئ يسأم منه. من هذا التخوف ينطلق نجيب المانع محاولاً كسر حاجز الخوف من الصراحة في تدوين السيرة الذاتية.

صداقة مع السياب

إذا كان نجيب المانع نشأ في الجانب الصحراوي من البصرة؛ فقد نشأ بدر شاكر السياب في الجانب المائي منها؛ هناك قرب نهر شطّ العرب

العريض. لذلك يفسر نجيب جريان الماء في شعر السياب مثل جريان
المجد في شعر المتنبي. وفي بغداد توطدت العلاقة بينهما؛ يحكي لنا
نجيب المانع عن قدرة السياب على حكاية النواذر الخاصة بأسرته وقرينته
جيكور التابعة لقضاء أبي الخصيب؛ وهي قدرة يصفها بأنها نادرة عند
نظرائه من الكتاب والشعراء؛ لا سيما في العراق. وكان السياب مهما كُرِّرَ
حكايته؛ فهي تُروى رواية جديدة كل مرة، ويتفنن السياب في وصف
ديوانية جدّه وزوّاره، ويعرّفنا المانع على وجه آخر للسياب الشاعر
الحزين الذي كان يمتلك قدرة فكاهية بديعة لا تكشف عنها أشعاره.
عمل المانع والسياب بعد نيلهما الشهادة العالية في شركة نفط البصرة،
وكانا يعملان في أدنى درجات الوظيفة الكتابية؛ إذ لم يأبه الإنجليز
بشهادتهما، وعدّوهما مجرد ساعين للحصول على مورد شهري. كانوا
يطلبون منهما أن ينتظرا اللوريات التي تقلهما للشركة في الفجر، والشمس
لم تشرق بعد، وكانا في الطريق يريان لوريات أخرى تحمل خرافاً؛ فكان
المانع يقول: «إن الخراف على الأقل تُذبح مرة واحدة؛ أما نحن فنُذبح
كل يوم»، كان عملهما يتركز في قسم المخازن، ويتّسم بالملل الشديد.
ولتصور شاعرًا مثل السياب ثري الإحساس، مُفَعَّمًا بالحياة يعمل في
مهنة متعبة، وفي الردهة شخص إنجليزي يُشرف عليه. في تلك الردهة
الصامتة؛ إلا من وشوشة البطاقات، وطرقعة الطابعات، كان السياب يعثر
على الصوت الذي لا يسمعه إلا الشعراء. وفي المذكرات فصل بديع
يصف فيه المانع عبد اللطيف الشواف، ويمدحه مدحًا رائعًا في كرم
أخلاقه ومروءته، وقد سعى الشواف إلى مساعدة السياب في أثناء مرضه؛
فهو الذي جعل عبد الكريم قاسم يمنحه نفقات السفر، والعلاج في

إنجلترا، لكن السياب لمّا سمع بمقتل قاسم كتب قصيدة شامتة؛ ليست من شعره الجيد، ويعلق المانع: «المشاعر الرديئة لا تنتج فنّاً جيّداً».

بين العقاد وطه حسين

تعرف نجيب المانع على كتابات العقاد وطه حسين، ومع الوقت، وجد عيوباً وثغرات لديهما؛ كلا الزعيمين الفكريين ينقصه أمران؛ الأول أن كلاّ منهما بعيد عن المدرسة الأخرى؛ فطه حسين مثلاً لم تهطل على أراضيه أمطار شكسبيرية، والعقاد لم يغترف كثيراً من عطايا فرنسا؛ الأمر الثاني أن طه حسين نقل لنا شك ديكارت، وسار على منوال الناقد الفرنسي إميل فاجيه الذي كان شعاره: «ما ليس واضحاً ليس فرنسياً»؛ لذلك أكثر الأدب الفرنسي المعروف عن طريق طه حسين ينحدر من الواضحين؛ أمثال ديكارت وموليير وفولتير، أما المزاج الباسكالي وأدب الظلال والزوايا المعتمة؛ مثل لغة رامبو وبروست - فلم يذكرهم طه حسين؛ لذلك لم يكن سفيراً وافي السفارة، أما التيار الأنجلوساكسوني؛ والذي يمثله العقاد؛ فيأخذ عليه المانع أنه محصور داخل أسوار كارلايل، وكتاب النثر الإنجليز في القرن التاسع عشر بالدرجة الأولى؛ قرن الثقة بالنفس؛ الثقة بدوام الأشياء والحرص على تحسين الأمور. والعقاد حذا حذو الوثائقين المتعاليين؛ هكذا يحلله المانع في لمحات نقدية مميزة، ويصفه بأنه لا يحاور القارئ. ثم يقول نجيب المانع: «إذا كان طه حسين ديكارتياً؛ فهو لأنه يعطي القارئ فسحة في كتابته: كان يدعو القارئ إلى مائدته الفكرية، أما العقاد فيأكل طعامه الفاخر وحده؛ تاركاً القارئ يشم الرائحة. إنني أتصور العقاد ملاكاً قديراً لا يرضى أن ينزله أحد؛ لكي

يظل ملاكمًا قديرًا وحده». وفي الكتاب مساحة لأخطاء العقاد لمن أراد التوسع فيها، وهذا لا يقلل من كون العقاد ناقدًا فذاً مثلما يظهر في كتابه عن ابن الرومي. وينتقد المانع لغة الزيات التي يراها باردة، ويرى نفسه يتعد عنها؛ كما يتعد المرء عن انهيار ثلجي إن استطاع.

في الكتاب آراء للمانع في شعر الرصافي، وحديث عن رواية الحرب والسلم لتولستوي، وكفاحه في تعلم الإنجليزية والفرنسية؛ ليقراً بهما الأعمال الأدبية الكلاسيكية، وحديث عن البصرة، وأماسي الأعظمية، وحديث مُطوّل عن المجرم البريء دستوفسكي؛ هذا الذي وجد فيه المانع ترحيب بعض المدن بغزاتها المحرّرين؛ ففي علاقته بالمبدعين لم يقدم المانع مفاتيح المدينة إلا لاثنين: المتنبي، ودستوفسكي؛ وعقدة المتنبي في نظر المانع هي كبرياء الوجود مع كبرياء الإنجاز؛ فأودع لديه كبرياء الوجود وحدها، وترك كاتبنا محاولاً الإنجاز.

الكتاب أقرب للسيرة الفكرية من السيرة الحياتية التفصيلية؛ تتمتع فيها بالثر الجميل والوصف المميز، وقد نستعير من صلاح نيازي وصفه لنجيب المانع في سيرته: «حين يتحدث نجيب يغمّر المقابل بطوفان؛ فإذا استطاب فكرة، يصغي كأنه لا يعرف شيئاً؛ يصغي إصغاء جاهل فضولي».

(٢٧) الفصول الأربعة:

مع زيادة يرثي القاهرة الستينيات

وقفت أمام رفّ كتب السير الذاتية والمذكرات، أبحث عن سيرة أعيش معها تجربة مختلفة، وأنعرّف عن طريقها على عالم جديد؛ رأيت كتابًا بعنوان: الفصول الأربعة: سيرة حياة للكاتب معن زيادة؛ صدر عن دار رياض الرئيس. أخذت السيرة إلى البيت، وشرعت في قراءتها؛ يلخص الكاتب حياته في مدن أربع، وكأنها فصول أربعة؛ الفصل الأول عن طفولته في طرابلس شمال لبنان، والفصل الثاني عن شبابه في القاهرة، وحياته الجامعية فيها، والفصل الثالث عن مونتريال ودراسة الماجستير بإحدى الجامعات هناك، وفي الفصل الرابع يحكي عن العودة لبيروت. انتهيت من فصول الكتاب الأربعة، ولم أجد في الكتاب فصلًا ربيعًا جميلًا مثل ذكرياته في القاهرة. الفصل الأول يستغرق في حكايات عن طفولته، وفي مونتريال يحكي عن النظام التعليمي، وتجربته في الماجستير.

سافر معن زيادة للدراسة في القاهرة، وكان قد انجرف في العمل السياسي مع القوميين العرب، وسافر إلى مصر بالباخرة من اللاذقية إلى الإسكندرية، وكانت الرحلة الوحيدة التي يجربها الكاتب بالباخرة، ويصف مشاعره، وهو يرى ابتعاد المدينة عن النظر، وهو في الباخرة بين الماء والسماء، ويحس بشيء من الغربة يصحبه رهبة.

وصل كاتبنا إلى القاهرة، وأصبح عضواً في اللجنة المسئولة عن فرع حركة القوميين العرب في القاهرة، وتم تكليفه بالتواصل مع اليمنيين الذين عاشوا في القاهرة في تلك الفترة، وكانت اليمن ما تزال تحت حكم الإمام أحمد، وتعرف إلى القاضي أحمد محمد النعمان، والشاعر اليمني محمد محمود الزبيري، أما علاقة الصداقة الوثيقة فربطته مع لاجئ سياسي يمني كان له شأن كبير في السياسة فيما بعد، هو قحطان الشعبي؛ الذي أصبح رئيساً للجمهورية في اليمن الجنوبي، وكان قحطان الشعبي هو المدخل الذي تعرف عن طريقه مع زيادة بعالم اليمن، التقى أبرز شخصياته التي كانت تعيش في القاهرة. وقد أفاد اليمنيون من المناخ الذي وفرته ثورة يوليو ١٩٥٢، وبثوا الدعاية المعارضة لحكم الإمام من إذاعة صوت العرب في القاهرة.

سكن معن زيادة حي الزمالك في القاهرة؛ ونراه يحكي لنا تعرفه على مثقفي المدينة في تلك الفترة، وكيف رأى القاهرة مدينة حية بالنشاط الثقافي. يحكي عن آل النقاش، وعن صداقته مع الشاب الناقد وحيد النقاش الذي توفي في العشرينات من عمره، وحزن عليه كاتبنا حزناً شديداً؛ ويصفه وصفاً جميلاً: «كان ناحلاً جداً، وجميل الوجه، أزرق العينين، حنطي البشرة، ولقد وجدت فيه النداء المناسب رغم إفلاسه الدائم، واستعائته بي في كثير من الحالات». وكان وحيد ينادي معن بالصديق الآسيوي، ثم تعرف على أخيه الناقد الأدبي رجاء النقاش الذي كان يشق طريقه سريعاً، وقد كتب رجاء مقدمة جيدة لديوان أحمد عبد المعطي حجازي مدينة بلا قلب، ولكن عباس العقاد لم يكن يحب حجازي، ولا صلاح عبد الصبور، ولا هذا النوع من الشعر؛ لذلك انتقد

العقاد رجاء النقاش، وكان يشير إليه باسم الأنسة رجاء على سبيل
السخرية، ويطلق على أدب هؤلاء الأشخاص الأدب القرمزي إشارة إلى
أنهم من اليساريين، وكان يبالغ أحياناً على عادته؛ فيقول: «أدب الفراش».
يذكر معن زيادة رأيه في الكثير من الشخصيات التي التقى بها في
القاهرة؛ فهو يرى أن رجاء أخذته الصحافة كمصدر عيش؛ مما أدى إلى
ابتعاده عن الأدب والنقد، وأنه كان مشغولاً بتحسين وضعه المادي؛
خصوصاً بعد أن تزوج ابنة أحد المرموقين (عبد القادر حاتم) الذي عمل
وزيراً للإعلام.

في القاهرة يجلس معن زيادة في مقهى هافانا؛ حيث يجلس رجاء
النقاش، والناقد أنور المعداوي، والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي،
وينضمُّ لهم أحياناً الدكتور عبد القادر القط الذي يصفه بالمفكر الهادئ
والمرموق، وكان دائماً يحمل الكثير من الأفكار الجديدة.

عن طريق صداقته برجاء النقاش؛ تشجّع معن لكتابة قصة قصيرة،
وعرضها عليه؛ وهي من وحي تجربته في القاهرة، ثم عمل معن مراسلاً
لمجلة الحرية التي تصدر في بيروت؛ وأتاح له عمله الصحفي إجراء
مقابلات مع المؤلفين في ذلك الوقت. التقى الصحفي أحمد بهاء الدين
الذي أحبّه كثيراً، وقد جذبه في بهاء الدين تواضعه، وحسّ العروبي،
وتبنيّه الفكر القومي، وكان يعدُّ بهاء نجم الصحافة المصرية، وعندما
يقارن بين بهاء وهيك، يقول في الفرق بين الرجلين: «بهاء متواضع
ومحبته تشدك إليه شداً، وهيك متعال ومعتد بنفسه؛ وهذا يجعل من
يقابله غير قادر على دخول عالمه بسهولة».

أجرى معن زيادة الكثير من الحوارات؛ مثل حواراه مع ساطع الحصري أبي خلدون المفكر القومي، الذي كان يقيم في بانسيون متواضع غير بعيد عن ميدان التحرير، وكذلك قام معن بعمل استفتاء للمثقفين بعنوان: «عاصمة الثقافة العربية؛ بيروت أم القاهرة؟» والتقى نجيب محفوظ وعرض عليه السؤال، فامتدح نجيب محفوظ بيروت، وذكر أسماء مؤسسات وأعلام من لبنان، وكان يميل إلى أن بيروت عاصمة للثقافة العربية. كان نجيب متواضعًا في ردّه، ويصفه معن بالطيبة واللطف، وعندما نشر محفوظ روايته أولاد حارتنا، ومُنعت في مصر، أخذ معن سهيل إدريس إلى نجيب محفوظ، وعرض سهيل نشر الرواية في «دار الآداب خارج مصر».

يُرينا معن زيادة حلقة نجيب محفوظ، ومن يحضرها من الأدباء والمثقفين، وكان يزور هذه الجلسة أحيانًا الأديب يحيى حقي الذي يصفه بأنه من أطيب الأدباء وألطفهم وأكثرهم إبداعًا، وكان أدبه الساخر بهدوء ومحبة قريبًا من شخصيته، ويقارن معن زيادة بين سخرية يحيى حقي، وسخرية الكاتب محمود السعدني؛ كتابة السعدني تجعلك تضحك، وأنت تقرأ شتائمه وتشنيعاته ومبالغاته، والواقع أن أدب كل منهما يمثل شخصية الكاتب؛ فآدب حقي هو شخصه الطيب الهادئ المبتسم الساخر البرجوازي، أو الجتلمان، أما أدب السعدني الساخر؛ فهو أدب ابن البلد الذي يرفع صوته عاليًا، ولا يتورع عن التشابك بالأيدي مع الخصوم، والتناطح بالراءوس عند الحاجة، واستفاد قاموس الشتائم.

بعد الجلسة في حلقة نجيب محفوظ في مقهى صفية حلمي، يتوجّه معن إلى كشك لبيع الكتب والمجلات؛ ومن هذا الكشك حصل على

كتب السلاسل الثقافية التي كانت تصدر في القاهرة في ذلك الوقت؛ مثل: «سلسلة المسرح العالمي»، «الألف كتاب»، «أعلام العرب»، وغيرها. وفي بعض الأحيان تنقل من حلقة نجيب محفوظ إلى سور الأزركية؛ بحثًا عن كتاب قديم، وكانت مصدرًا مهمًا لذوي الدخل المحدود.

القاهرة في مذكرات معن زيادة مدينة ثرية؛ تستضيف المعارضين واللاجئين السياسيين، وتزخر بالحلقات، والجلسات الثقافية؛ هناك صالون العقاد الذي لا يحب معن زيارته، ويراه قد انطفأ بريقه؛ فهو يحب العقاد الشاب الذي يصدق بالتجديد، ونقد القديم، ولا يهتم معن بما كتبه العقاد بعد ذلك، وهناك المسارح، والمعارض الفنية، والمحاضرات، والمراكز الثقافية، وكان المسرح المصري في حالة ازدهار؛ نظرًا لرعاية الدولة له، ولجهود وزير الثقافة ثروت عكاشة؛ لذلك قدّم المسرح القومي أعمالاً مميزة، وبجولات معن زيادة تعرّف على دور النشر؛ مثل الهلال ورئيس تحريرها مصطفى نبيل.

كان معن دائم الزيارة لدار روز اليوسف، وتعرف على إحسان عبد القدوس، وفي دار روز اليوسف تعرّف على نجوم الكاريكاتير؛ مثل صلاح جاهين، وجورج البهجوري الذي ربطته صداقة طويلة به، ويمدح فنه ورسوماته كثيرًا، ويقصُّ علينا قصة زيارة جورج البهجوري إلى بيروت، واصطحابه الصحفي والمذيع مفيد فوزي الذي أصبح رئيس تحرير مجلة صباح الخير. يتّسم معن زيادة بالصراحة الشديدة في آرائه بمن يقابلهم؛ فهو يصف مفيد فوزي بأنه: «صحفي تافه، وانتهازي، ويُمثّل نموذجًا لمذّعي الصحافة الذين يتسلقون، ويصلون عبر السلال الخلفية».

هناك سمة في حكايات معن عن حياة القاهرة: يذكر من أحبهم من المثقفين، وتعلم منهم، وكذلك يهجو من لم يعجبه، ولم يرق له ما قدمه، من الذين يقدرهم كثيرًا الدكتور توفيق الطويل؛ أستاذ الفلسفة المترفع عن الصغائر، وطيب العشرة، وكذلك يمدح أستاذه مصطفى حلمي الذي حبه في التصوف، وأحمد فؤاد الأهواني الذي فتح عينه على بعض المسائل العميقة في الفلسفة الإسلامية، وكذلك يتحدث بتقدير عن يوسف مراد، أستاذ علم النفس.

وقد تعلم معن زيادة على يد زكريا إبراهيم أستاذ الفلسفة الذي كان موضع اتهام دائم من قبل المخابرات؛ فهو قبطي متزوج من فرنسية، ويحكي لنا عن معاناة زكريا إبراهيم المادية، وعن عمله بالترجمة؛ وهذا يذكرنا بما كتبه عائدة الشريف عن المؤلفين، وأجورهم المتواضعة في سيرتها شاهدة ربع قرن.

انعقدت بين معن زيادة وزكي نجيب محمود صداقة خاصة؛ ويحكي لنا عن زيارة زكي نجيب محمود لبيروت، وفي إحدى الجلسات التي حضرها أدونيس، انتقد زكي نجيب محمود شعر أدونيس أمامه، وكان أدونيس يصغي بإمعان، ويناقد، وقبل النقد، لكن طابور الهجاء في حياة القاهرة ضم العقاد، ومفيد فوزي الصحفي المتسلق، ولم يسلم منه غالي شكري الذي يمدح معن مواهبه، لكنه يصفه بالمدعي، ويفتح زيادة النار على أستاذ الفلسفة عثمان أمين، ويُرنا الوجه الأكاديمي لهذا المترجم المعروف، وكذلك انتقد الشاعر محمد الفيتوري الذي اتهمه بالإفادة من عطاءات القذافي.

يصوّر معن القاهرة بوصفها ملتقى الطلبة والمثقفين من كل الأقطار العربية؛ فكان يدرس فيها في تلك الفترة علي أو مليل الكاتب المغربي، كما تعرّف معن إلى صدام حسين حين أقام في القاهرة، وربطته صداقة مع عدنان الراوي الشاعر العراقي؛ الذي لجأ إلى مصر بعد أن حُكم عليه بالإعدام بعد معارضته حلف بغداد في عهد نوري السعيد، وتعرف إلى هشام الشاوي؛ الذي أصبح وزيراً لخارجية العراق فترة قصيرة بعد ذلك، ومن الكويت تعرف إلى سليمان العسكري؛ الذي شغل منصب رئيس تحرير مجلة العربي، وتعرف إلى الفنان السوري أدهم إسماعيل؛ الذي حصل على منحة تفرغ من وزارة الثقافة المصرية في أثناء الوحدة بين مصر وسوريا. هكذا نرى القاهرة مدينة زاخرة بالنقاشات الثقافية، والشخصيات السياسية، والحياة الأدبية في تلك الفترة. ويستكمل معن شهادته عن عودته لبيروت، وعمله صحفياً فيها، وانخراطه في النشاط السياسي، وآرائه في شخصيات عاشت في بيروت، ثم رحلته للماجستير في مونتريال. افتقدت المذكرات للغة الأدبية الرائقة، وكانت أشبه بمقالة صحفية من أربعة فصول عن حياته بين أربع مدن، ونسبة الصراحة والاعتراف بالأخطاء فيها قليلة؛ فالكاتب يتميز بعين نقدية تصل إلى هجاء بعض من تعرف عليهم، ولا يلوم نفسه أو مواقفه كثيراً، لكنها شهادة على حياة، وتجربة نتعلّم منها، ولا نسلم بكل ما فيها من مدح أو هجاء.

(٢٨) أمين الحسيني: في سبيل الله والفوهرر

ما إن وصلني كتاب في سبيل الله والفوهرر: النازيون، والإسلام في الحرب العالمية الثانية الصادر عن مدارات للأبحاث والنشر، بترجمة: محمد صلاح علي، حتى استغرقت في القراءة، والعيش في الفترة التي يحكي عنها؛ خصوصاً أن المؤلف ديفيد معتدل استغرق في كتابة هذا العمل عشر سنوات، قضاها في البحث في أكثر من ثلاثين أرشيفاً، ودار محفوظات في أربع عشرة دولة، وجمع فيه ثروة وثائقية كبيرة؛ تشمل أوراقاً، وتقارير، وأدلة سياسية، وأوامر إدارية. وقد تجلّى أثر ذلك في الكم الكبير من التفاصيل الدقيقة التي تتبّعها المؤلف.

تصدر أهمية الكتاب عن توثيقه لفترة مهمة؛ حيث رصد علاقة النازية بالإسلام، وكيف وظّفته في الدعاية الدينية لأغراض سياسية، وكيف كانت الدعاية واسعة النطاق في بلدان مختلفة.

انتبهت ألمانيا لدور الحشد الديني في الحروب؛ ففي الحرب العظمى؛ وبالتحديد في خريف عام ١٩١٤، نشأ تحالف بين قادة الدولة العثمانية من حزب الاتحاد والترقي وألمانيا، وأعلن الجهاد، وطيلة الحرب العالمية الأولى كثّفت برلين والقسطنطينية جهودهما؛ بغية تحريض العالم الإسلامي على «ثورة عارمة»؛ على حدّ تعبير القيصر الألماني فيلهلم الثاني.

وفي الخامس والعشرين من يوليو / تموز عام ١٩٤٠، وبعد سقوط

فرنسا مباشرة بيد القوات النازية، وبدء معركة بريطانيا - أرسل الدبلوماسي المتقاعد ماكس فون أوينهايم مذكرة من سبع صفحات إلى وزارة الخارجية الألمانية؛ كان موضوعها «التحريض على التمرد في الأقاليم الإسلامية التي يحوزها الأعداء»؛ وفُضِّل القول فيها بأنه حان الوقت لإطلاق إستراتيجية شاملة لتعبئة العالم الإسلامي ضد الإمبراطورية البريطانية. وقد نالت هذه المذكرة بعض ردود الفعل في وزارة الخارجية الألمانية.

يُثَبِّهنا الكتاب أنه من الناحية الإستراتيجية؛ لم تكن محاولات الألمان لتعبئة المسلمين ضد أعدائهم ثمرة تخطيط طويل الأمد؛ بل نشأت في أثناء الحرب عندما انقلب الوضع ضد دول المحور؛ فبعد الهزيمة على مشارف ستالينجراد، وانخراط الولايات المتحدة في الحرب عام ١٩٤١، أدرك الألمان فشل إستراتيجية الحرب الخاطفة، وهنا مالت ألمانيا تدريجيًا إلى الأهداف قصيرة المدى، والضرورات العاجلة للحرب، وسعت مراكز شتى في برلين إلى بناء تحالفات عسكرية أكبر؛ مبدية درجة كبيرة من البراغماتية، وأصبحت العوائق الأيديولوجية أقل تأثيرًا، وغدت الحواجز العرقية - فجأة - أقل صرامة كذلك. وفي أوائل عام ١٩٣٧، نظم الدوتشي بنيتو موسوليني احتفالًا عامًا في طرابلس (الغرب)؛ حصل فيه على سيف الإسلام المرصع بالجواهر؛ ليعلن نفسه -رمزيًا- حامي حمى العالم الإسلامي، وأعلن أن إيطاليا ستُجِلُّ شريعة النبي، وقد علق غوبلز في يومياته قائلاً: «يجوب موسوليني إفريقيا مشيًا بالإسلام، وهو تصرفٌ ماكر أشدَّ المكر؛ أثار -من فوره- قلق باريس ولندن».

على الرغم من أن أطراف الحرب العالمية الثانية كانت دولاً أوروبية، لكن أوار الحرب امتدَّ ليشمل أكثر ديار الإسلام؛ فقبل أن يصل الألمان إلى ستالينغراد كانوا قد احتلُّوا جميع أراضي أوروبا الشرقية التي تقطنها أغلييات أو أقليات مسلمة؛ وصولاً إلى جزيرة القرم في البحر الأسود جنوب الاتحاد السوفيتي. تُقدَّر هذه الأعداد بنحو عشرين مليوناً. ودعماً لحلفائهم الإيطاليين؛ احتلَّ النازيون تونس لمدة وجيزة؛ وصولاً إلى مصر عبر ليبيا، حتى هزيمتهم الشهيرة في العلمين على مشارف الإسكندرية.

المفتي أمين الحسيني في برلين

رغم كثرة ما كُتب عن أمين الحسيني؛ فهو حاضر في الكتاب؛ لأنه من أبرز الرموز الدينية الإسلامية التي وظَّفها الرايخ الثالث، إلا أن ذكره يرد في فصول متفرقة، وبجمع المعلومات التي قدمها المؤلف يمكن تكوين صورة عن دور الحسيني من خلال الوثائق الألمانية.

وُلد أمين في مستهلَّ القرن العشرين لعائلة الحسيني؛ درس في الأزهر لفترة وجيزة، وسطَّع نجمه في فلسطين في أثناء الانتداب البريطاني. نصَّبته بريطانيا مفتياً للقدس، وبعد عامٍ واحد أصبح رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى، ورئيس لجنة الأوقاف العامة في فلسطين، وكان كل ذلك دون أن يتوقع البريطانيون أن الحسيني (الناقم) على اليهود، سيغدو عملاً قريب معارضاً للحكم البريطاني. وقد رأى الحسيني أن التحالف مع ألمانيا هو السبيل لضرب بريطانيا.

وصل الحسيني، المزهو بنفسه، على حدِّ وصف معتدل، إلى برلين، واستقبله هتلر في دار مستشارية الرايخ الجديدة، واقتصر الحوار بينهما

على تبادل عبارات المجاملة الشكلية، والتأكيد أنهما يحاربان العدو نفسه (الإنجليز، واليهود، والبلشفية). وعندما طلب الحسيني من هتلر ضماناً مكتوبة باستقلال العرب؛ خصوصاً استقلال فلسطين، تهرب هتلر من الأمر، وعندما كرر الحسيني طلبه أخبره هتلر أن الوقت لم يحن بعد لهذا النوع من المطالب. لكن هتلر أكد كفاحه ضد اليهود بلا هوادة؛ بما فيهم يهود البلاد العربية.

استمر المفتي في برلين، وحاول في السنوات التالية التأثير في السياسات الألمانية تجاه العالم الإسلامي؛ لكن سرعان ما ساءت سمعته؛ (لما عُرف عنه من الكيد لخصومه)؛ الذين كان من أبرزهم رئيس الوزراء العراقي الأسبق رشيد عالي الكيلاني. لا يغطي الكتاب هذه الخلافات بين المفتي ورفاقه العرب، ولا يهتم بتصوير الوضع السياسي العربي في برلين؛ رغم وجود العديد من المنفيين العرب فيها؛ مثل: رشيد عالي الكيلاني، فوزي القاوقجي، والصحفي كامل مروة الذي سجّل تجربته في كتاب بيروت برلين بيروت، وأعتقد أن السبب هو تركيز المؤلف على الطابع الديني لشخصية الحسيني. والذي تجلّى في عام ١٩٤٣؛ عندما أرسلت وحدات الحماية النازية الحاج أمين الحسيني في جولة داخل المناطق التي يقطنها المسلمون في البلقان، وتعاملت النازية مع أمين الحسيني على أنه «بابا إسلامي»، كما يقول الكاتب، ذو كلمة مسموعة لدى المسلمين حول العالم.

أخفقت خطة أمين الحسيني في تحقيق هدفها الرئيسي بالحصول على امتيازات وضمانات واضحة باستقلال العرب والمسلمين، وحاول المسئولون الألمان استعماله بوصفه رمزاً دعائياً كلما اقتضى الأمر. وكان

الحسيني يتقاضى راتبًا جيدًا مقابل خدماته؛ إذ كان يتلقى شهرًا ما لا يقلُّ عن ٩٠ ألف مارك، بالإضافة إلى السكن الخاص به وبمرافقيه. وقبل ساعات من الاستسلام الألماني حطت طائرة كان فيها الحسيني في برن بسويسرا، وسلّم السويسريون الحسيني للفرنسيين؛ خشية تحمل أي تبعه، وفي باريس حصل على استقبال دافئ من سي قدور بن غبريط إمام مسجد باريس، وأطلق الحلفاء سراحه؛ خشية أن تؤدي محاكمته بوصفه مجرم حرب إلى نشوب انتفاضات إسلامية، وعاد إلى القاهرة. ولم يتراجع أمين الحسيني عن مواقفه الفكرية عندما كتب مذكراته بعد ذلك؛ حيث أظهر في المذكرات إعجابًا بهتلر، وهاینريش هملر، الذي كان يظن أنه صديقه، ولم يتراجع عن مواقفه في دعم ألمانيا النازية.

النازيون في ديار الإسلام

استخدم النازيون الدعاية الدينية في المناطق الإسلامية في القوقاز والقرم، وركزوا على منح الحريات الدينية لهؤلاء السكان؛ فقد عانى المسلمون الاضطهاد السوفييتي؛ إذ فُرض عليهم منع المظاهر الدينية. ومع وصول القوات النازية إلى هذه المناطق، استعانت بسياسة منح المسلمين امتيازات دينية؛ بغرض الحصول على ولائهم، وعلى متعاونين محليين لإحلال السّلم في هذه المناطق، وتأمين مؤخرة القوات النازية في حربها ضد الروس؛ إذ أمرت بفتح المساجد مرة أخرى؛ بل بُنيت مآذن جديدة، ووافق الجيش الألماني على إعادة التعليم الديني، وأمرت الفرقة النازية بأن يصبح يوم الجمعة في المناطق الإسلامية في القوقاز

يوم عطلة، ورؤجت ألمانيا في كتيبات دعائية لنفسها بوصفها صديقة للإسلام.

على طول التُخوم الإسلامية في جنوب الاتحاد السوفيتي، بدأت السلطات العسكرية الألمانية في الدعاية للرايخ الثالث بوصفه محرر المؤمنين من قبضة البلاشفة الروس، وفضلاً عن ذلك شرعت القوات النازية في تجنيد آلاف من أسرى الحرب المسلمين بعد موافقة هتلر؛ في إطار ما سمّته «الفيالق الشرقية»، وبحسب الكتاب عدّ المسلمون قدوم القوات النازية فرصة لممارسة الشعائر الدينية، وحيّوا جنود القوات النازية بهتافات المحررين، وأرسل المسلمون في القرم فواكه، ومنسوجات للقيادة الألمانية ولـ «أدولف أفندي».

وفي عام ١٩٤٤ افتتحت القوات النازية مدرسةً للملاهي في درسدن لتدريس الأئمة الميدانيين؛ حتى يساعدوا في إدارة الفرق المسلمة التي انضمت إلى قوات النازي. وقد صرح أحد المتهمين في محكمة نورمبرغ التي عُقدت لمحاسبة قادة النازية، بأن سياسة وحدات الحماية كانت تتحرك تدريجيًا في اتجاه تعبئة كل محمديّ ممكن وتسليحه. وانتشر في الأوراق الحكومية الألمانية مصطلح تعبئة الإسلام؛ أي حشد أيّ قوات مسلمة في جيوش النازيين. وفي برلين كتب غوبلز وزير الدعاية، مسرورًا في يومياته لعام ١٩٤٢: «بعد أن سُمح للمسلمين برفع الأذان من مآذنهـم مرة أخرى، تخلّى التتار عن احترازهم السابق تجاه القوات المسلحة»، وأضاف: «من المثير الإشارة إلى أهمية الاستغلال البارع للمسألة الدينية».

وينبها المؤرخ ديفيد معتدل إلى إحدى ميزات استغلال الإسلام، بدلاً من الشعارات العرقية والقومية في مناطق البلقان والقوقاز؛ هي أن برلين ستجنّب تشجيع إعلانات الاستقلال القومي للأقليات القومية المسلمة في الاتحاد السوفيتي.

مع الانسحاب الألماني من تلك المناطق، عاقبت موسكو المسلمين، وعدّت كل من تعاون مع الألمان متهمًا بالخيانة العظمى، ورحلت الكثير منهم إلى معسكرات الاعتقال السوفيتية (الغولاغ). ذكر الروائي الروسي ألكسندر سولجستين في كتابه أرخبيل الغولاغ وصول دفعات من مسلمي القوقاز إلى معسكرات الاعتقال، ولم تؤثر احتجاجات الصليب الأحمر على بريطانيا، والولايات المتحدة التي سلّمتهم إلى الروس؛ حتى إن الروائي جورج أورويل الذي كان مراسلاً حريياً في ذلك الوقت جاهر بالاعتراض على سياسة التسليم التي انتهجها الحلفاء، والذين توقفوا عنها عندما علموا بتعرض هؤلاء المعتقلين المسلمين للموت والسخرة.

النازية في البلاد العربية

لم تكن ورقة الحريات الدينية التي استخدمتها النازية صالحة للاستخدام في البلاد العربية؛ حيث كانت الحريات الدينية متاحة تحت حكم الحلفاء، لكنهم مع ذلك طمعوا في انضمام العرب إلى القوات النازية، وغمروا المناطق العربية بالمشورات المكتوبة باللغة الدارجة لتشجيع العرب على الانضمام إليهم، واستخدم الدين في الدعاية؛ مثل منشور: «هلمّوا إلى الألمان، الذين لم يؤذوا المسلمين قط»، وصُدّر منشور آخر بآيات سورة الأنفال (الآية ١٥): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا

لَقَيْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿٨٢﴾. واستُهل منشور آخر بقوله تعالى (المائدة ٨٢): ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾. وكان عدد المنشورات التي وُزعت في تونس وحدها لا يقل عن ستة ملايين نسخة؛ بل إنَّ الدعايين النازيين في سوريا ولبنان نشرُوا أنشودة تقول: «لا مسيو، ولا مستر؛ الله في السماء، وفي الأرض هتلر». وكُلِّف «مكتب أمن الرايخ الثالث البحث عن آية من آيات القرآن تصلح لأن تبرهن للمسلمين على أن القرآن قد تنبأ بالفوهرر. وهكذا استمر العتب بتفسير النصوص الدينية بطريقة براغماتية؛ لتكون أدوات سياسية في الحرب؛ بل إنه تم طبع القرآن بكميات كبيرة، وتوزيعها على الجنود المسلمين في الجيش النازي. وتعاملت السلطات النازية بحذر مع الأسرى المسلمين، واحترمت العديد من المظاهر الدينية لجذب هؤلاء الأسرى للقتال بجانب الألمان في الحرب، ويقدم الكتاب تفصيلاً عن حالة الأسرى في المعسكرات.

اهتمَّ المسئولون الألمان بمراعاة الحساسيات العربية، وعُدل اسم مكتب «النشاط المُعادي للساميين» في وزارة الدعاية الألمانية إلى «النشاط المُعادي لليهود». وفي عام ١٩٤٢ كرر غوبلز وزير الدعاية توجيهاته إلى الصحافة بتجنب استعمال ألفاظ السامية في دعايتهم؛ بل إنَّ غوبلز حذّر هيئات تحرير المجلات من أن أيَّ نقد للإسلام غير مرغوب فيه، وأكد فكرة العدو المشترك بين الإسلام والنازية؛ أي البلاشفة الروس واليهود. وفي عام ١٩٤٣ وُجِّهت الصحافة الألمانية إلى الكتابة عن اضطهاد السوفييت للمحمديين، واعتبار الولايات المتحدة عدوًا للإسلام. ثم جرى التماهي في البحث عن أوجه شبه بين النازية

والإسلام، وابتكر ناشط اسمه زكي علي مقولة أن الخليفة ليس أكثر من «فوهرر المؤمنين»؛ بل إن النازية حاولت البحث عن أوجه الشبه بين الإسلام والنازية؛ من خلال الحديث عن المماثلة بين مفهوم الأمة الجرمانية المرتكز على العرق، ومفهوم الأمة الإسلامية المرتكز على الدين؛ ومن ذلك أيضًا المماثلة بين الفوهرر والنبى.

من النقاط التي يرصدها الكتاب ردود الفعل الإسلامية على التوؤد الألماني للإسلام، ويستعين بقصة أنور السادات وتعاونه مع جواسيس ألمان، ويستنطق مذكرات الشيخ سلطان القاسمي أمير الشارقة المعنونة: سرود الذات، والتي يحكي فيها تفاعل مستمعي الإذاعة في الشارقة مع الدعايات القادمة عبر المذياع؛ سواء من الحلفاء، أو المحور. ومن الطريف أن من بين مستمعي إذاعة برلين في إيران الملا الشاب روح الله الموسوي، الذي سيُعرف لاحقًا بالخميني؛ والذي كان يملك مذياعًا، ويستضيف عددًا من الملالي، وطلاب الحوزات، ويستمعون إلى البرنامج الفارسي في الإذاعة النازية، ولاحقًا نُشرت تعليقات الخميني في تلك الفترة؛ التي حطَّ فيها من شأن الأيديولوجيا الهتلرية؛ بوصفها أشد ما أنتجه العقل الإنساني خطرًا وبشاعة.

من ضمن الأمثلة التي يدرسها الكتاب تلك النصوص التي كتبها عرب لتأييد الرؤية النازية؛ مثل زكي كرام الذي تقدم بمخطوطة بالألمانية بعنوان: النبى محمد واليهود، لكن نصّه لم يُجزَ في النهاية، وكذلك تقدم بمخطوطة كتاب للرقابة الألمانية بعنوان: الإيمان النوردي والإسلام وروح العصر، ورُفضت.

وعلى هذا الصعيد؛ من النقاط التي يفتقدها الكتاب تحليل وقراءة النصوص الفكرية التي كتبتها النخبة العربية المثقفة متفاعلين مع النازية؛ مثل مقالات العقاد، وكتابه هتلر في الميزان؛ الذي قدّم نقدًا جريئًا للنازية، حتى هرب إلى السودان، مع وصول قوات النازيين إلى حدود العلمين، أو دفاع بعض المفكرين الذين انبهروا بها، أو أبدوا إعجابهم بهتلر؛ مثل عبد الرحمن بدوي في مذكراته، وعمر فروخ؛ نتيجة حياتهما في ألمانيا. ولعل السبب هو تركيز الكتاب على المسألة الدينية فقط، لكن مع صدور كتاب «النازية بأقلام عربية: من أعلام عاصروها» لفیصل بن سويد مؤخرًا؛ فقد تكون هناك فرصة ثمينة لتأمل كتابات الأدباء والمفكرين، وتفاعلهم مع صعود النازية، وكذلك قدم كتاب عميان عن التاريخ: العرب وألمانيا النازية واليهود» تحليلًا لصورة النازية في عديد من البلدان العربية، وصفحات المجلات؛ مثل مجلة الهلال، والصحافة المغربية، وهو سؤال يستحق التفكير فيه؛ لفهم كيفية تفاعل الجماهير والنخب المثقفة مع الدعاية النازية.

النخبة النازية وهتلر والإسلام

يرصد الكتاب رؤية النخبة النازية للإسلام؛ فقد عبّر بعض أعضاء النخبة النازية عن تعاطفهم مع الإسلام، وربما كان هينريش هملر قائد القوات الخاصة من أكثر المنبهرين بالدين الإسلامي، وعبّر هملر عن ازدهاره للمسيحية بحضور هتلر، وكان يكرر الحديث عن الطابع البطولي للدين المحمدي، وأبدى هتلر نفسه انهياره بالإسلام؛ إذ تحدّث في كفاحي عن التقدم السريع للدين المحمدي في إفريقيا وآسيا. ولعل ما

لفت نظره في الإسلام هو ما عبّر عنه بأنه دين قوي وعملي، واعتبر المسيحية دين معاناة لئنا وضعيفًا. وقد انههر هتلر بمفارقة توقف الإسلام عن التقدم في أوروبا بعد معركة شارل بواتيه (بلاط الشهداء)؛ إذ هزم شارل مارنل المسلمين، وتوقف المد الإسلامي، وهنا تحسّر هتلر على عدم دخول الجerman الإسلام، وفي إحدى المرات قال: «من نكد الطالع أن وصل إلينا الدين الخاطي؛ فالدين المحمدي أكثر توافقًا معنا من الدين المسيحي». وهذه التصريحات لا تنفي رؤيته أن العرب أخطأ عرقًا من الجerman، لكنه ابتكر تخيلًا تاريخيًا عن جerman مسلمين، كان يمكن أن يقدموا تجربة عظيمة لو جمعوا بين العرق الأعلى، والدين الأسمر من وجهة نظره.

أيد هتلر التودد الألماني إلى المسلمين تأييدًا شديدًا؛ إذ تأثر موقفه منهم بانهياره بفكرة وحدة الدين الإسلامي، وقد حاول السياسي النمساوي النازي هيرمان نيوباخر شرح العلاقة لهتلر بتعبيرات يسهل فهمها، فقال: «عندما تضرب مسلمًا في مقاطعات التتار يردّ طالب في القاهرة»، وقد أثرت هذه الفكرة في هتلر الذي بدا أنه انههر بالعبارة، واستعملها هو نفسه بعد ذلك، وأكد نيوباخر بعد ذلك أن مصير مسلمي البلقان خضع لمتابعة حثيثة من جانب المؤمنين في جميع أنحاء العالم.

ورغم أن هتلر ارتاب من تجنيد غير الألمان؛ وخصوصًا متطوعي الاتحاد السوفيتي، وبينما كان يصل إلى ذروة عدم ارتياحه حينما يتعلق الأمر بتجنيد السلاف الروس والأوكران - رأى هتلر أن المسلمين فقط هم الجنود الجديرون بالثقة، ودعم تجنيدهم بغير شروط، وقال: «المحمديون الخالص فقط هم من أعتقد أنه يمكن الاعتماد عليهم»؛

وتفسير هذه النظرة أنه رأى فيهم «أشرس أعداء البلشفية الروسية». ومع هزيمة ألمانيا، وفي الشهور الأخيرة للحرب، تحسّر هتلر في أثناء وجوده بمخبأ برلين على أن جهود الرايخ الثالث في تعبئة العالم الإسلامي لم تكن قوية بما يكفي، وأخبر هتلر مارتن بورمان رئيس الحزب النازي أن «الإسلام كله اهتز لأنباء انتصاراتنا»، وأن المسلمين كانوا مهئيين للثورة، وقال: «تصور فقط أننا فعلنا ما بوسعنا لمساعدتهم؛ بل حتى تحريضهم، كما كان يجب علينا وفي مصلحتنا».

لا يمكن حسم تفسير موقف هتلر من الإسلام؛ هل دافعه هو ازدراؤه للمسيحية، أم انهياره بالإسلام؛ لكي نفسر سبب تعاطفه مع المسلمين، لكن ذلك لم يشفع لدى الألمان لكي يتم الإفراج عن بعض المسلمين في المعتقلات النازية؛ فهذه الدعاية الألمانية للإسلام لا تعني أن الواقع كان قريباً من هذه الصورة المثالية؛ فقد اعتدى الجنود الألمان على المسلمين، ويرصد المؤرخ الألماني غرهرد هب في كتابه العرب في المعركة النازية: ضحايا منسيون حالة العرب في المعتقلات النازية، الذين بلغوا ألفاً ومئة وثلاثين مسلماً (١١٣٠)، بالإضافة إلى تسع عشرة مسلمة (١٩)، وقد جرى التفكير في إخراجهم لينضموا إلى الجيش النازي، لكن جرى التراجع عن هذه الخطوة.

الاستشراق الألماني وصورة الإسلام

من النقاط التي يرصدها الكتاب ويقدم فيها قراءة مختلفة؛ هي صورة الاستشراق الألماني؛ فقد تم تقديمه دائماً كنموذج للاستشراق العلمي غير المتورط في الاستعمار؛ تميّز في غالبه بالحياد والتحرر من دائرة

المصالح السياسية، وأنه اتسم بأكبر قدر من الموضوعية العلمية، وأنه لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية. ويرجع هذا إلى غياب المشروع الاستعماري الألماني. ورغم أن ألمانيا كان لها بعض التجارب الاستعمارية في إفريقيا؛ جرياً على عادة جيرانها في القارة، لكنها تظلّ، رغم كل شيء، تجارب محدودة؛ فلم يتجاوز أقصاها ثلاثين عامًا؛ وبالتالي يصعب - عند البعض - القول بأن الاستشراق الألماني أو المستشرقين الألمان كانوا يعملون في خدمة مشروع استعماري محدّد مثل نظرائهم الإنجليز والفرنسيين ثمّ الأمريكيين في القرن العشرين؛ بقدر ما كانوا يعملون في الإطار الثقافي العام للرؤية الأوروبية للإسلام؛ بما يتضمّنه ذلك من سلبيّات وإيجابيّات. غير أن الكتاب يقدّم صورة مختلفة لعلاقة الاستشراق الألماني بالإسلام؛ فقد شارك المستشرقون الألمان في الكثير من الأنشطة الاستعمارية الألمانية في إفريقيا في نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كما كان الكثير منهم مؤيّدون لإقامة التحالف الألماني العثماني في الحرب العالمية الأولى. وأخيرًا أسهمت رؤيتهم للإسلام بوصفه منظومة فكرية قد تتقارب مع النازية من بعض الزوايا في محاولات الرايخ الثالث توظيف الإسلام في الحرب العالمية الثانية.

استخدام الدين في الحرب العالمية الثانية

اشترك الحلفاء، والنازية في استخدام أحد أهم وسائل الدعاية في ذلك الوقت؛ وهي الإذاعات؛ حيث بثّت ألمانيا موجات إذاعية ضد دول الحلفاء؛ كان من أبرز أصواتها المذيع العراقي يونس بحري؛ الذي كان

يهوى إحاطة نفسه بالألمانيات الشابات، وكان البث يبدأ عادةً بإذاعة آيات قرآنية؛ وهي فكرة عالم جان إدريس، الذي عمل مستشارًا في قسم الشرق بوزارة الخارجية الألمانية، وكلفته وزارة الخارجية بترجمة كتاب كفاحي إلى الفارسية.

لم يقف الحلفاء مكتوفي الأيدي الحلفاء إزاء قضية استخدام القرآن في الإذاعة؛ فقد ردت خدمة الدي بي سي (BBC) للبث العربي، وقال ستوارت بيرون، أحد المسؤولين عن البرنامج العربي في المحطة: «بمجرد أن استمعنا إلى البرنامج في ليلة افتتاح إذاعة برلين، اتخذت خطوات في سبيل زيادة عدد تسجيلات القرآن لدينا». وكانت الإمبراطورية البريطانية في موقف قوة يسمح لها بتوظيف صفوة قراء العالم الإسلامي.

هكذا استخدم الحلفاء المشاعر الدينية أيضًا في الحرب؛ فقد بدا الإسلام تهديدًا محتملاً كما يوضح الكاتب؛ فكان ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا في زمن الحرب العالمية الثانية يُشدّد في أوائل عام ١٩٤٢ على أن بريطانيا يجب ألا تقطع صلاتها بالمسلمين؛ أيًا كان السبب. ودشنت بريطانيا برنامجًا مكثفًا لتعزيز العلاقات بين الإمبراطورية والعالم الإسلامي بعد اندلاع الحرب، وافتتحت السلطات البريطانية مسجد شرق لندن المركزي. وأدركت واشنطن أهمية الإسلام، وتساءلت جريدة يومية أمريكية بقلق قائلة: «من سينال دعم المسلمين في الحرب الأوروبية؟» وبمجرد وصول القوات الأمريكية إلى أراضي إسلامية وضعت السياسات والبروباغندا الإسلام في اعتبارها مرارًا؛ ففي عام ١٩٤٣ وزّع الجيش الأمريكي كتيبات دينية تدعو إلى الجهاد ضد قوات

رومل الألمانية، وبذلت لندن جميع ما في وسعها؛ لتيسير الحج في سنوات الحرب، وأعلنت عن هذه الإجراءات بحماسة لا تخلو من دعائية.

وفي الختام؛ كما يعبر الناشر في مقدمة الكتاب، التاريخ يُقرأ على خلفية الحاضر وفي معيَّته، وهكذا نلمح أهمية استحضار علاقة الدين بالسياسة؛ لفهم دور الحشد الديني في العلاقات الدولية، حتى المشاهد المتناقضة تبدو لنا مفهومة في سياقها البراغماتي والسياسي. ويمكن عدُّ تاريخ سياسة الإسلام في الحرب العالمية الثانية جزءاً من قصة أوسع عن محاولات القوى غير المسلمة استخدام الدين الإسلامي لأغراض سياسية وعسكرية. والمثال الشهير هو الصراع في أفغانستان في سياق الحرب الباردة بين الروس والأمريكان؛ وهكذا يوسّع الكتاب من نطاق فهمنا للعلاقة المعقدة بين الإسلام والعلاقات الدولية والنظم السياسية؛ فالدين كان حاضرًا في السياسة الدولية منذُ الحرب العالمية الأولى، وقبل نشوء الحركات الإسلامية، وتجلّى ذلك في الحرب العالمية الثانية.

(٢٩) إقلاع وهبوط: سيرة طبيب من رأس بيروت

يتطلع منير شماعة حوله، ويرى أصدقاءه في عمر الشيخوخة يسجلون ذكرياتهم وسير حياتهم؛ ففي البناية التي يسكنها كتب يوسف سلامة مذكراته، وكتبت صديقتة جين مقدسي قصتها في شتات بيروت عن الحرب الأهلية اللبنانية، وكتب صديقه وزميل دراسته هشام شرابي سيرة حياته: الجمر والرماد. وهناك سبب آخر يدفعه لكتابة مذكراته؛ وهو أن الإنسان في عمر الشيخوخة تتقلص نشاطاته، ويبدأ الفراغ يلعب بالأعصاب، ولتفادي هذه الآفة يلجأ لكتابة سيرة حياته.

ولد منير شماعة في السادس من مايو / أيار ١٩٢٨، وفي صباه كان يتصفح مجلة لسان الحال، واللطائف المصورة، فوجد أن السادس من مايو / أيار هو ذكرى المذبحة التي ارتكبها جمال باشا، وكان ممن أعدمهم بيتر باولي، وله مسكن في الشارع نفسه الذي يسكن فيه الكاتب، وكان احتفاله بمولده يذكره بالمشائق؛ لذلك بذل تاريخ مولده إلى يوم .٢١

قصة منير شماعة بسيطة وصادقة؛ هو طبيب نال شهادة الطب، وعمل في السعودية فترة بسيطة، ثم سافر إلى أمريكا، والتحق بأحد المعاهد المرموقة التابعة لهارفارد، وعاد إلى بيروت وعمل طبيباً، وألقى المحاضرات في الجامعة الأمريكية في بيروت، واتصلت أسبابه مع أحد

الأمراء من آل سعود، وأصبح طبيباً للعائلة المالكة، وعالج العديد من الرؤساء والسياسيين، وعاش في لبنان في فترة الحرب الأهلية، وتعرض للخطف ذات مرة، حتى يبادلّه خاطفوه بشخص في الكنائس اللبنانية. هذه أبرز أحداث الكتاب، عندما انتهت منه جلستُ أفكر لماذا أعجبتني قصته؟ الإجابة بسيطة: الصدق في الكتابة عن النفس، وهو تفسير صار لكثرة استخدامه مبتذلاً، ولا يوفّي معناه الحقيقي. الكاتب يتناول قصة حياته، ويكتب بياناً عن نفسه مُفسّراً دوافعه وأفكاره، ولا يخجل من إظهار ضعفه أحياناً، أو الإعلان عن أشياء يراها الناس غايةً في الخصوصية، مع القليل من الاعترافات التي تعطي السيرة نكهةً وتوابل.

يحكي لنا منير عن علاقته بالقوميين العرب في بيروت، وكيف تعرّف إلى الحكيم جورج حبش، وكانت صداقته في البداية مع حبش عادية لم يتخللها حديثٌ سياسي؛ كانا يتناقشان في مواضيع دراسية في كلية الطب أو يستمعان إلى الموسيقى، ثم وقعت كارثة ١٩٤٨، وسافر جورج حبش إلى فلسطين، وعندما عاد أخبرهم بالمسيرة الطويلة من بلدته اللد، وهو يحمل على كتفه طفلة شقيقه التي ما لبثت أن فارقت الحياة، وما هي إلا أيام حتى انضم جورج حبش إلى «كتائب الفداء العربي» التي كانت تتدرّب على حمل السلاح. لا ينسى منير جلساته مع جورج حبش، وهو يردد بتأثر عميق: «يا منير، إنني من اللد، وأريد الرجوع إليها بأي ثمن؛ هذا حقٌ بسيط لأي إنسان في وطنه».

تعرّف الطبيب منير شماعة إلى رفاق جورج حبش؛ مثل وديع حداد الذي كان أحد مؤسسي «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، والمسؤول العسكري البارز الذي أزعج إسرائيل كثيراً بعملياته الجريئة، مثل خطف

الطائرات. سافر منير إلى الجزائر ليعالج وديع حداد؛ وكان التشخيص المبدي أنه مصاب بسرطان في غدة البنكرياس، ثم أثبتت الفحوصات خلوه من السرطان، وكان منير يشك في أن وديع سُئِم بالزرنينخ، وتحدث مع هاني الهندي، وأخذ عينة من شعر وديع حداد للتأكد من الأمر، وبالرغم من أنه لم يجد أثرًا لمادة الزرنينخ في العينة؛ إلا أنه يعتقد أن وديع حداد مات مسمومًا. كانت مشاعر منير شماعة تميل به إلى الارتباط بـ «الجهة الشعبية» من خلال جورج حبش ووديع حداد وهاني الهندي، وقد وقّر المساعدات المالية لهم كلما أُتيح له ذلك، وتحمل عقبات ذلك؛ مثل المنع من دخول السعودية عدة سنوات، وكذلك المنع من دخول الأردن.

يحكي منير شماعة في سيرته أنه كان يرى نفسه في مراهقته وبداية الشباب في غاية البشاعة، ولا يستطيع جذب الجنس اللطيف نحوه، وفي يوم حاول مغازلة فتاة فقالت له: «يا منير، أنت ذكي ومهزوم، بس ياريتك كنت أحلى من هيك»، وهذه الحادثة تركت في نفسه أثرًا وجرحًا نفسيًا، وأخذ وقتًا حتى يجدد ثقته بنفسه. يستعرض لنا منير تكوينه النفسي ونظراته للمرأة، وعندما حاولت معرفة سبب إعجابنا بالسيارة، التي يقول صاحبها ما يخفيه الإنسان عادةً عن حياته الخاصة، أرجعته إلى غريزة التلصص. نحن نحب أن نرى ذلك الطبيب المهاب، وصاحب الشأن يعاني مثل الآخرين، ويحتال، وأحيانًا يعترف بلهوه البريء وغير البريء، وبسعيه الحثيث وراء المرأة؛ ليستعيد ثقته بنفسه، وليثبت لنفسه أنه وسيم، وليس دميًا. وهذا الفصل لا يمكن تلخيصه: هي حكايات تقرأها، وتفكر فيما يطرحه فيها؛ فهو مثلاً يحلل مفهوم الحب وهو في

عمر السبعين، ويعترف بأنه يجهل تعريف العشق، ولم يختبر هذا الشعور طيلة حياته.

يشاركنا الكتاب أسئلته التي أرقت وفكر فيها؛ مثل سؤال الإيمان بالله، وسؤال: هل هو مثقف أم لا؟ وتساءل كثيرًا عن الطبيعة البشرية، وهل هو طيب ومحب وكريم، أم أن هذه الصفات قشور تغطي بعض العيوب لديه؟ والتساؤل الذي فكر فيه كثيرًا: هل له ثمن يمكن أن يُشترى به ويباع؟ ويشرح لنا الأجوبة التي فكر فيها، ولا أريد أن أنقل الإجابات؛ فهي تشرح شخصيته بشكل أوضح عندما نقرأها في المذكرات.

من الفصول الممتعة في الكتاب قصة الكاتب مع السعودية، وعمله فيها طبيبًا عام ١٩٥٢ في شركة الأنابيب الأمريكية التابلاين، ومعاناته في العمل مع الأمريكيين ومن عجز فقههم، والمرحلة الثانية التي تعرف فيها على بعض الأمراء، وفي السعودية أسلم بسبب عبارة من رجل بدوي؛ فلقد جاء الرجل البدوي بابنه المريض، وعندما فحصه الطبيب وجده جثة هامدة، وأبلغ الأب، فما كان من الأب إلا أن قال: «الحمد لله». وتعجب منير من هذه الكلمة في تلك اللحظة الحرجة، وردّد الرجل عبارة: «الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهه سواء»، وقال منير: ماذا قلت؟ فأعاد الرجل البدوي العبارة، وسأله: «من أين لك بهذا القول؟» وانبهر بالعبارة، وترقرقت عيناه، وأسلم. كان منبهرًا بالدين الإسلامي، وكيف يعالج مصيبة الموت بهذا الرضا والتسليم.

أما قصة تعرّفه إلى الأمراء؛ فلقد كانت تزوره سيدة فقيرة للعلاج، وكان يهتم بها، ثم ذهبت تلك السيدة لطلب الصدقة في شهر رمضان من

بيت الأميرة السعودية أم خالد، زوج الملك سعود بن عبد العزيز، التي كانت تصطاف في لبنان. وأبلغتها الأميرة أنها مريضة، وأن عليها العودة لاحقًا، وكان رد السيدة البسيطة: «يوجعك بطنك، وما شفتي الدكتور شماعة بعد؟ هيدا بيعمل عجائب». وتعجبت الأميرة من هذا الاسم لطبيب مغمور، وهي تُعالج على يد أشهر أطباء بيروت، وطلبت السفارة السعودية منير، وذهب إليهم، وتوطدت العلاقة بينه وبين الأسرة، وسافر إلى الرياض ليعالج الملك سعود. وفي شهر واحد انتقل من طبيب مبتدئ إلى طبيب يعالج الملوك، وكما يقولون باللهجة اللبنانية: «كُرت المسبحة». يصف لنا منير شخصية الملك سعود وكرمه، واختلاف شخصية الملك فيصل الذي عالجه بعد ذلك؛ فالملك فيصل كان رجلًا كتومًا قليل الكلام، مواعيده صارمة، ولا يدخل في نقاش مع طبيب إلا فيما يتعلق بمشاكله الصحية، ولا يزيد في الأجرة عن الفاتورة إلا ساعة رولكس تكون هدية. على عكس الملك سعود الذي أعطاه من الهدايا الكثير، وبعد معاينة الملكين ذاع صيته، وتعرف عليه الكثير من الأمراء؛ مثل الملك عبد الله بن عبد العزيز، والأمير سلطان وغيرهم.

عاش كاتبنا حياة غنية بعلاقاته الإنسانية؛ فهو يصف لنا حياته في أمريكا، وتغير حياته بعد هزيمة ١٩٦٧، وحبه للقضية الفلسطينية، وكرهه للطائفية، ويشرح في لفئات من النقد الذاتي القاسي الشخصية اللبنانية، ويحكي قصة اختطافه بأسلوب جميل ومؤثر، وكيف تغيرت نظرته للحياة بعد خطفه، وتدخل الشيخ فضل الله لإنقاذه من البخاطفين، والعديد من الحكايات الأخرى التي يقرأها القارئ، ويفكر مع الكاتب فيها مثل حديثه عن الشيخوخة.

أتاح عمل منير شماعة في الطب له الاحتكاك بالبسطاء من المرضى، وكذلك معالجة ذوي الشأن من المسؤولين والسياسيين، وهذه المهنة جعلته يرى الإنسان على حقيقته العارية دون غطاء؛ فالملك والوزير والقائد وغيرهم من أصحاب القرار إذا تعروا يصبحون كغيرهم من الناس، ويتقلبون من رجال يصعب الوصول إليهم إلا بعد عناء، وحواجز إلى أناس عاديين، وتُتزع الأقنعة التي يستتر بها الإنسان، وتظهر مخاوفه، وترى أن الرجل المهم الذي يبدو لنا كالحصن المنيع أو الجبل الشامخ؛ ما هو إلا إنسان يضحك ويخاف ويتألم، ويقلق من المجهول، وينصاع كالتلميذ الطائع للمعلم. ومن الطريف أن تكون طبيباً لشخصيات بعضها لم يغيّر لها المنصب، وبعضها مثل رئيس عربي سابق شعر بالاكتاب؛ فنصحها الطبيب منير شماعة بمطالعة كتب التاريخ في مكتبته الفخمة؛ فردّ عليه بسخرية واستخفاف: «يا ابني، أنا لا أقرأ التاريخ، أنا أصنع التاريخ!»

(٣٠) لورنس العرب: صناعة الأسطورة

كُتب عن توماس إدوارد لورنس المعروف بـ «لورنس العرب» الكثير من الكتب والدراسات؛ بين يدي كتاب بعنوان: مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب ١٩١٦-١٩١٨، للكاتب الأمريكي لويل توماس. الميزة الأساسية في كتاب لويل أنه من أوائل الكتب التي أسهمت في تحويل لورنس إلى أسطورة.

لا نستطيع سرد قصة لورنس في البلاد العربية كلها؛ فهي قصة طويلة، وهي حكاية الصراع بين الأتراك والشريف حسين، وتخلل ذلك تعقيدات إدارية واستعمارية كثيرة؛ سواء داخل الإدارة الإنجليزية التي كانت في تنافس مستمر حول من يتولى إدارة ملف المنطقة العربية بين مكتب الهند الذي يفضله لورنس، ومكتب القاهرة، وتداخلت هذه الصراعات مع نقاشات مستمرة حول تقاسم النفوذ الفرنسي، والحديث عن تخطيط وتقسيم المنطقة؛ نتوقف هنا عند شذرات من حياة ذلك المغامر.

كثير من الأدباء يؤمنون بسحر البحر، وشاعرية هذا الأفق الأزرق؛ لكن التأمل في هؤلاء الغربيين الذين جابوا الأراضي العربية في بداية القرن العشرين، يجعلك تفكر في أثر سحر الصحراء عليهم، وكيف جذبتهم تلك الرمال الصفراء، وحياة هؤلاء البدو. نجد ذلك عند مرمدوك بكثال الذي رُشح لوظيفة لورنس قبله، لكن التوظيف لم يتم بسبب ميله إلى الأتراك، وكيف سحرته بلاد الشام وفلسطين، ورأى فيها، مثل أبناء

جيله، المكان الذي جرت فيه أحداث العهد القديم، وسار فيه المسيح. سحرًا ما جذب محمد أسد؛ ليظماً في هذه الصحراء، ويلتقي ابن سعود، وشيء من الفتنة في تضاريس هذه البلاد جعل فيلسفي يترك الإدارة البريطانية، ويعمل في تلك المناطق، ويكتب الدراسات الجغرافية عن تلك الأرجاء، ولا ننسى مسز جيروتردييل صانعة الملوك، وصديقة فيصل بن الحسين؛ كل هؤلاء اندمجوا في هذه البلاد، ولعل قدرتهم على صناعة أحداث التاريخ سحرتهم، وجعلتهم يشعرون بأنهم قادرين على التأثير.

نتأمل هنا أثر كتاب لويل توماس على لورنس، وكيف عاش حياته بعد عودته من البلاد العربية. ألقى لويل توماس محاضرة في الرابع عشر من أغسطس / آب ١٩١٩ عن لورنس العرب، ثم نشر هذا الكتاب في عام ١٩٢٤. عمل لويل توماس مراسلاً حربيًا في الشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الأولى، وقد رافق لورنس العرب في الأردن وسوريا، وتحدث معه في القدس، وشهد بعض المعارك والحملات والأحداث معه.

حرص لويل توماس في مقدمة الكتاب على الرد على شائعة اعتناق لورنس الإسلام، ويقول إن مصدر تلك الشائعة هو الخيال؛ فبعد صحبته لورنس تأكد له أنه لم ينبذ المسيحية قط. يصف لويل توماس اللقاء الأول مع لورنس العرب في القدس بعد دخول الجنرال اللنبي إليها؛ فقد كان يرتدي الزي العربي، ويرتدي عقلاً وكوفية وعباءة، ويضع في حزامه خنجرًا قصيرًا معقوفًا. والكتاب نموذج للكتابة الاستشراقية التقليدية؛ فهناك استحضار للحروب الصليبية، وأن هذه البلاد العربية مسرح أحداث ألف ليلة وليلة، ورغبة في تحويل لورنس إلى بطل خارق.

جمع لويل توماس العديد من الصور الفوتوغرافية من الشرق الأوسط، وراح يلقي المحاضرات ويعرضها في لندن، ويضيفي على حياة لورنس العرب ذلك البعد الأسطوري، وكونه إنساناً متميزاً، وكانت هذه المحاضرات، عند لويل توماس، ينبوعاً مالياً لا ينضب. نأى لورنس بنفسه عن الضجة المثارة حوله، وأثارت محاضرات لويل توماس غضبه. ولما كان لورنس عَزَوْفًا عن التحدُّث إلى الصحافة؛ فقد أسهم دون قصد منه في تكريس هذه الصورة الغامضة عن نفسه، وترك الألسن تتداول الإشاعات بلا انقطاع، ورفض إجراء مقابلات صحفية عن حياته. أسهمت محاضرات لويل توماس في صناعة هذه الأسطورة الرومانسية؛ حيث جعل لورنس ملكاً غير متوج للعرب. وفي غضون بضعة أشهر، حضر أكثر من مليون شخص عروض توماس، وحُوِّلَت حياة لورنس العرب إلى أسطورة، وظلَّت الصحافة تلاحقه. حتى عند انتهاء مهامه في الشرق الأوسط، عكزت الصحافة عليه مباحج الحياة. يروي لنا هنري لورنس في كتابه المغامر والمستشرق أنه في عين اللحظة التي تكفَّ فيها الأوساط الرسمية عن الإنصات إليه سياسياً، يصبح فجأةً شهيراً، ويصبح لورنس العرب مشهوراً؛ وبهذه الصفة يمكن عدُّه واحداً من أوائل مخلوقات وسائل الاتصال الجماهيري أو ضحاياها. وفي الأشهر التالية ينسحب لورنس، ويواصل تأليف كتابه أعمدة الحكمة السبعة.

في الثاني والعشرين مارس/ آذار ١٩٢٢ قدَّم لورنس العرب استقالته. وبرغم مناشدات تشرشل له، يصر على موقفه. ولن يعود لورنس إلى أي بلد عربي حتى وفاته، وتبدأ الصحافة في ملاحقته؛ أضاعت عليه ملاحقات الصحافة فرصة العمل في القوات الجوية التي يهواها، وتعيَّن

عليه أن يفرّ من فضول الصحفيين؛ ففي عام ١٩٢٢ عاد إلى العمل في صفوف القوات المسلحة باسم مستعار (شو)، وحين تعرّف الناس على حقيقة الشخص المتخفي تصاعدت كثافة الإشاعات، وتعيّن في عام ١٩٢٨ نقل لورنس إلى وزيرستان في الهند التابعة للتاج البريطاني؛ أي إنه نُقل إلى المنطقة الحدودية المجاورة لأفغانستان، وعندما تسرب الخبر إلى الإعلام، كان بوسع الناس قراءة خبر مفاده «لورنس العرب في مهمة سرية؛ يكافح ضد الناشطين الحمر في البنجاب، ويتقمص هيئة رجل دين يرقى ويشفي المرضى». وحين اندلعت الثورة في أفغانستان فعلاً بعد وصول لورنس إلى الهند، وتطايرت الشائعات - اضطر البريطانيون إلى سحب لورنس من هناك، وهو الذي لم يشارك في أية مؤامرات؛ بل كان يترجم في ثكته النائية إلياذة هوميروس من جديد من اللغة اليونانية القديمة، وعندما عمل في وظيفه تابعة لوحدة القوارب السريعة المكلفة بانتشال الطيارين عند سقوطهم، نشرت صحيفة صنداي كرونيكل المقالات عن مهمته وشوّشت على عمله.

هكذا كان لورنس العرب أحد ضحايا لعنة الشهرة والصحافة، وأسيراً للحظة توهجه تحت شمس بلاد العرب الحارقة. حتى حين فارق السياسة، وانهمك في ترتيب بيته الريفي، وقيادة درّاجته النارية، وتحسّنت حالته النفسية؛ وجد اسمه في المؤامرات الدولية؛ فالفرنسيون يظنون أن له يدًا في جميع الانتفاضات المعادية لهم بسبب كراهيته القديمة لهم، والسوفييت يذكرون اسمه في محاكمات موسكو، وتركيا الكمالية تتهمه بتنظيم مؤامرة إسلامية. يضطر للاختباء في لندن، ويطلب من الصحافة أن تتركه وشأنه، ويرفض العروض لتولي أي مناصب سياسية في بلاده،

وهكذا بعد انتهاء الحرب والدبلوماسية، يبحث عن ذاته في مجال الأدب والكتابة، ويتواصل مع الأدباء؛ مثل برنارد شو، وتوماس هاردي، ويكون بينهم مراسلات؛ كأنه يحاول أن يفهم ذاته بالكتابة، ويحلل تجربته الشخصية؛ فهو يحلم بكتابة كتاب جبار على حد وصفه، ويستعير عنوانه من آية في التوراة «الحكمة بنت بيتها، نحتت أعمدتها السبعة».

الولع بالسرعة الفائقة والطيران كان من الأمور التي فتنّت لورنس، وهو الذي انكسرت ترقوته في إحدى مرات الهبوط من الطائرة. سواء كانت السرعة في السياسة، أم في الحياة اليومية؛ فقد دأب على قيادة أحدث الدراجات النارية السريعة، وتوفيّ لورنس بسببها في الثالث عشر من مايو/ أيار ١٩٣٥؛ أي في السادسة والأربعين من عمره؛ بعد سقوطه من دراجته النارية، وبعد أن حفر مكانه في تاريخ المنطقة رمزًا للتدخل البريطاني في ثورة الشريف حسين. حضر الجنازة أبرز رجالات إنجلترا؛ ومنهم ونستون تشرشل، وأرسل الملك جورج الخامس رسالة إلى أخيه الأصغر قال فيها: «إن اسم أخيك سوف يحيا في التاريخ، ويعترف الملك ممتنًا بأهمية خدماته لبلاده، ويأسف لمأساة نهاية كهذه لحياة كانت ما تزال ثرية بالوعود».

وبين عامي ١٩٣٥-١٩٣٩ يكتشف الجمهور كتابه أعمدة الحكمة السبعة، وينجح الكتاب، ويتشرب بين الناس، وهكذا تسهم نصوصه في تجديد حضوره على الساحة الأدبية والفكرية بعد موته. وقد أسهمت هوليوود في استمرار أسطورة لورنس العرب عندما أنتجت عنه فيلمًا؛ شارك فيه: بيتر أوتول، وعمر الشريف، وأنطوني كوين.

هكذا ظلت شخصيته العجيبة رمزًا لعالم الجاسوسية، والمؤامرات السياسية، وفتنة الغرب بالشرق المتخيل. ولعل منبع فرادته كان بسبب بحثه عن ذاته وسط البلاد العربية، وكان قبل قدومه إلى بلاد العرب يحلم باجتراح مآثر عظيمة؛ فهو ابن غير شرعي لأحد الأرسقراطيين، وكان اندماجه مع القضايا العربية عميقًا. ولعل الأسطورة نشأت بسبب غرابة أطواره؛ فكلما بحث فيها الكاتب؛ بل المحلل النفسي، وجد فيها مادة للتأمل؛ فهو المثلي الذي عاش تجربة الاعتداء والاغتصاب في أثناء حياته بين العرب؛ كما حدث معه في درعا، وهو العزوف عن النساء والعلاقات الجسدية، ونلمح بين نصوصه ميولًا مازوخية، وهو المؤمن بفكرة الصليبي الأخير، والمولع بالعصور الوسطى، وصاحب الأسلوب الأدبي المميز باللغة الإنجليزية، وعاشق الكتب، والأثري الذي ينبش في آثار المنطقة، والمهتم في أطروحاته للماجستير بأثر الحروب الصليبية على العمارة الأوروبية، هكذا كانت مقومات شخصيته تجدد أسطورة كل فترة، وكما يقول هنري لورنس: «لأن لورنس العرب كان بالدرجة الأولى إنسانًا وحيدًا؛ فإن أسطورة اليوم تفتن ملايين الناس».

(٣١) في رثاء أدباء الأمس: ماهر شفيق فريد وزمنه المفقود!

«كتبْتُ ما يجده القارئ هنا؛ لا جرياً وراء أصفر رنان، ولا التماساً لمنصب أو نفوذ، ولا دفعاً لضرر أو استجلاباً لنفع؛ وإنما كتبت عن محبة للأدب راسخة - يرفدها التزام خلقي عميق» - ماهر شفيق فريد، مقدمة كتاب تُساعية نقدية.

في مقدمة ترجمة الدكتور محمد عناني لكتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، يشكر عناني صديقه ماهر شفيق فريد، ويصفه بقوله: «لا بد أن أسجل بالعرفان شكري لصديق العمر العلامة والناقد الكبير والأديب ماهر شفيق؛ الأستاذ في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة؛ فهو حجة هذا الجيل في الدراسات الأدبية، والنقدية... خصوصاً لتشجيعه لي على المُضي في الترجمة، وتحمل مشاق هذا النص العسير». هذا الشاء يتكرر من د. محمد عناني في مقدماته لترجمات مسرحيات شكسبير؛ ففي ترجمته لمسرحية يوليوس قيصر لشكسبير؛ يقول: «واستشرت صديقي ماهر شفيق عن جدوى كتابة ترجمة جديدة لهذا العمل، وطلبت أن يقطع لي برأي؛ فهو مرجع أستند إليه في شئون الأدب الإنجليزي الحديث والأدب المقارن والترجمة جميعاً، وهو ناقد ذو إحاطة موسوعية لا تتأتى للكثير من أبناء هذا الجيل». وشعرت بالفضول للنش في حياة الناقد المختفي عن الحياة الأدبية في مصر؛ خصوصاً أن الاسم عاد إلى

ذاكرتي في شهر ديسمبر / كانون الأول العام الماضي بعد فوزه بـ «جائزة الشيخ حمد للترجمة» عن مجمل إنجازاته الأدبي والثقافي في حقل الترجمة.

ثم أخذت أتذكر علاقتي به، وكان لقائي به أول مرة وأنا طالب في جامعة طنطا؛ حيث قُدمَ لمناقشة أحد رسائل الماجستير عن إليوت؛ وبالطبع عَقِبَ على الطالب، وتصحيح العديد من أخطائه، لكن من أطرف التصحيحات هي أنه عاتب الطالب الذي قدم رسالة الماجستير على عدم عودته للعديد من الكتب المترجمة عن إليوت، وأمسك ببعضها وهو متعجّب؛ اقتربت منه بعد المناقشة ولم نتحدث، تكلمت مع صديقه محمد عناني الذي كان يتحدث عن قراءته كتاب صلاح عيسى رجال ريا وسكينة، وهو يقول عبارة علقت في ذهني: «لو صدر هذا الكتاب في لندن وبالإنجليزية لكانت الحفاوة به أكبر مما احتفى به المثقفون العرب». مرّت السنوات، وكتبْتُ عن ماهر شفيق فريد مقالة عدتُها «صلاة للمقطعين» الذين لا عَقِبَ لهم يصلي عليهم، وعرّفته بنفسه في أحد المؤتمرات التي تهتم بالترجمة، وكانت عبارته اللطيفة أن مقالي عنه كان من أكرم ما كُتِبَ عنه.

راهب القراءة

وُلد ماهر شفيق فريد في الخامس من أغسطس / آب ١٩٤٤ بحي روض الفرج بالقاهرة، وإن كان أبواه من أصل صعيدى. يعدُّ نفسه سعيد الحظ؛ لأن كل الظروف تكاثفت لتوجهه إلى القراءة والكتابة والتدريس الجامعي. وهو ينتمي للشريحة العليا من الطبقة المتوسطة، ومن ثمَّ لم

يعرف الفقر الذي يسحق الروح، ويقتل المواهب في مهدها، ولا الغنى الفاحش الذي يصرف الإنسان عن القيام بواجباته، ويجعل اهتماماته محصورة في الاستمتاع بترف الحياة وملذاتها.

في طفولته درس في مدرسة مصر الجديدة الثانوية، وكان وكيل المدرسة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد، المترجم الكبير الذي نقل للعربية كتباً مهمة؛ منها كتاب معالم تاريخ الإنسانية لـ هـ. ج. ويلز، ومن أساتذة المدرسة الشاعر فاروق شوشة؛ الذي أهدى إلى ماهر شفيق فريد رواية ليلى العفيفة، لعادل الغضبان وكتب له إهداءً. بدأ ماهر القراءة المنتظمة منذ سن العاشرة؛ ومن يومها لا يكاد يذكر أن يوماً في حياته غربت شمس دون قراءة إلا في ظروف استثنائية. قرأ كتاب إبراهيم لنكولن الذي ابتاعه في الأول من مارس / آذار من عام ١٩٥٤، وفي فترة لاحقة انجذب لشخصية هانيبال؛ (من خلال كتاب توفيق الطويل: قصة الكفاح بين روما وقرطاج)، وراوده الطموح لكتابة رواية تاريخية عنه، وبعد ذلك، ومن خلال الكتب أيضاً، انجذب لشخصية جنكيز خان ونابليون.

عندما التحق بقسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب، جامعة القاهرة (١٩٦١-١٩٦٥) تعرف على رشاد رشدي؛ الذي وجه اهتمامه لقراءة الشعر الإنجليزي الحديث؛ وإليوت خاصة، وكانت بدايته الحقيقية عام ١٩٦١ عندما بدأ يكتب ويترجم. توجه إلى مجلة الأدب التي كان يُصدرها أمين الخولي؛ كانت أول مقالة له عن مجموعة غرفة فوق السطح لمحمود البدوي؛ ومنذ ذلك الحين، وحتى توقّف المجلة، كانت مجاًلاً رحباً لتدريبه على الكتابة، وشحذ أفكاره. يراجع ماهر شفيق فريد بداياته،

ويرى أن من حق الكاتب؛ بل من واجبه، أن يرتكب حماقات كثيرة قبل أن ينضج ويستوي، وقد غامر، وهو طالب جامعي، بترجمة قصائد للشاعر الإنجليزي ت. س. إليوت إلى العربية على صفحات مجلة الأدب، والآن يرى أن الترجمة القديمة احتوت كمًّا مروِّعًا من الأخطاء، ويقول عن نفسه: «لقد كان حظي من الحماس وقتها يفوق حظي من العلم»، ويحذر ناقدنا المبجل من الرجوع لترجماته في تلك المجلة، وقد تمكَّن بعد ذلك، حين ازداد علمًا ونضجًا، من تصويب الأخطاء؛ وذلك في ترجمته المنقَّحة لأعمال إليوت الشعرية والنقدية. وكذلك تعرف في سنوات الجامعة على يحيى حقي، وكتب في مجلة المجلة منذ عام ١٩٦٣ وهو طالب في الجامعة، وتعرَّف إلى إدوارد الخراط الذي وجَّهه شطر قراءة الأدب الحديث، والفلسفة، وعلم النفس.

كان أبواه متعلِّمين، وكلاهما خريج قسم التاريخ، وكانا زميلين في دفعة الروائي نجيب محفوظ، وأستاذ الفلسفة توفيق الطويل، نفسها؛ دفعة ١٩٣٤، وأتاح له هذا حضور ندوة محفوظ التي كانت تُقام صباح كل يوم جمعة في كازينو صافية حلمي بميدان الأوبرا. وبذلك بدأ التعرف على الحياة الأدبية، ومقابلة أدباء كبار مثل يحيى حقي، وعبد الحميد جودة السحَّار، وعلي أحمد باكثير، ويوسف الشاروني وغيرهم، وأحيانًا كان يتردد على ندوة الأستاذ العقاد في منزله بحي مصر الجديدة، وعُيِّن بعدها معيدًا في الجامعة، وسافر في بعثة إلى إنجلترا، وقضى هناك أربع سنوات لإنجاز الماجستير.

إذا سألت ماهر شفيق عن الفن الذي يمارسه الآن؛ فستكون الإجابة القراءة؛ فهو قارئ أولاً؛ كاتب في المحل الثاني؛ كما يصف نفسه. القراءة

وما تستبعه من كتابة هي أهم ما في حياته؛ خاصة أنه تفرع لها بعد زلازل المراهقة، وعذابات الشباب الجنسية، وإحباطات منتصف العمر، وانقشاع الأوهام مع مقدم الشيخوخة؛ فهو لا يكاد يذكر يومًا من حياته مضى من غير قراءة، إلا لظروف استثنائية؛ كأن يكون مخدرًا من جراحة. غيره يقرأ ليعيش، لكنه يعيش ليقرأ؛ القراءة هي مهربه من تعقيدات الحياة، وهي (على سبيل المفارقة) وسيلته للتغلغل في هذه التعقيدات بعمق. وأخشى ما يخشاه هو فقدان بصره؛ لأنه عند ذلك سيفقد عزاءه الأكبر؛ بل الجزء الأكبر من علّة وجوده؛ كما يقول عن نفسه.

يشاركنا في أحد كتبه بأفكار يود الكتابة عنها؛ ويقول: إن في مؤخرة عقله يكمن أمل غامض في أن يكتب يومًا ما، عن بعض الموضوعات؛ مثل: السريالية، ومسرح العبث، معنى الحداثة في الأدب، وكذلك بعض الشخصيات؛ مثل أبو العلاء المعري، النفري، شوبنهاور، نيتشه، هنري ميلر، وأدب البورنوجرافيا بعامة، الماركيز دي ساد، إليوت، سان جون برث، وهؤلاء جميعًا خمائر ذهنية (ينقل تعبير سلامة موسى) لا تفارقه في ليل أو نهار. ماهر شفيق مقلٌ جدًّا في الكتابة الإبداعية، ويجد عتًا في الكتابة الخلاقة؛ كل إنتاجه من القصص القصيرة بعد التمزيق، والشطب، والمحو لا يجاوز مجموعةً واحدة بعنوان: خريف الأزهار الحجرية صدرت قديمًا عن «دار شرقيات»، ويعدّها أهم ما كتب في حياته كلها؛ خاصة القصة الأخيرة المسماة اللايرنث المظلم.

في رثاء الماضي والقلق من النسيان الأدبي

ماهر شفيق فريد ناقد مصري حتى النخاع؛ أعني بذلك أنه لا يكاد يخرج رأسه خارج القطر المصري؛ عندما يحكي عن الأجيال التي

يقدرها؛ يذكر منها طه حسين الذي يصفه بالعظيم، والعقاد الأكثر عظمة، وسلامة موسى، والمازني، ومحمد حسين هيكل، وأحمد أمين، والزيات، وعلي أدهم، وأمين الخولي، وإسماعيل مظهر، وهو يُكن لهذا الأخير مودة خاصة؛ رغم أنه لم يلتق به غير مرة واحدة، وكذلك زكي نجيب محمود، ورشاد رشدي، وعبد الرحمن بدوي، وغنيمي هلال، وكذلك لا ينقضي دَينُه للويس عوض. وفي فترة شعر بالقراءة الفكرية مع أدونيس؛ هل تعبت من الأسماء الكثيرة؟ يجب أن تتعودوا فماهر شفيق فريد يشعر بواجب مُلح في ذكر إنجازات المثقفين الراحلين، وما قدموه من أفكار أو جهود ثقافية، وقد يسأل أحدهم: وماذا عن نجيب محفوظ؟ فريد ماهر: «لم أذكره لأنه بديهي، ولا يحتاج إلى تنويه، لقد سرى منا سرى الدم في العروق منذ أكثر من نصف قرن».

كل ما سبق هو عتبة لتعرف على بنية هذا الناقد المنزل؛ قد تجد سطوراً متناثرة عنه في سيرة محمد عناني، وأحات العمر، وهو يصفه براهب القراءة، وأحياناً تجد سطوراً أخرى في مذكرات ماهر البطوطي، ومذكراته الجميلة الجيل الرائع: وقائع حياة بين الكتب والفن، لكن هناك فكرة يستحضرها ماهر شفيق فريد بقوة؛ وهي اختفاء حضور أصوات العديد من الأدباء والنقاد عن عالم القراء الحالي. وأنت تمسك بمجلدات كتب ماهر شفيق فريد؛ والتي يصل السفر الواحد منها إلى ألف صفحة أحياناً، وترى صورة الناقد إليوت على معظم أغلفة كتبه التي صدرت عن «مكتبة الآداب»، و«مكتبة البستاني» - نقبض على تلك النعمة الحزينة التي تتساءل عن اختفاء الأدباء من ساحة القراءة، وتبدل الذائقة الأدبية.

هناك ذلك الكم الجارف من الأسماء الأدبية التي يستحضرها. وُلد ماهر عام ١٩٤٥؛ أي إنه عاصر عدة أجيال أدبية. في أحد فصول كتبه تأتي تلك العبارة، عندما يتحدث عن محمد مفيد الشوباشي، ثم يقول: «أما من أحد يتذكره اليوم؟» علفت في ذهني تلك العبارة العجيبة؛ لماذا الولع بالسؤال عن حضور أديب أو اختفائه؟ عددتُ الرجل كنزًا يمكن أن نستعيد فيه ماضيًا أدبيًا يندثر، وعصرًا لم أعشه، ثم تعثرتُ بعبارة أخرى، وأنا بين مجلدات كتبه، وتحديدًا في كتابه قاعة من المرايا، عندما خُصَّص فصلًا عن الكاتب والمترجم محمد السباعي؛ والد الأديب يوسف السباعي، تأتي تلك العبارة الحزينة مرة أخرى: «قلَّ من الأدباء من كان موضع تقدير الكبار من معاصريه، والجيل التالي له، ثم أصبح نسبيًا منسيًا لدى الجيل الحاضر من القراء؛ مثلما هو الشأن مع محمد السباعي».

وفي كتابه حصاد القلم يأتي ذكر الرافعي، فيقول: «لقد انضم إلى صفوف الموتى المبحّلين في مقابر الأدب، وإن خفَّ إلى بعثه من مرقدّه، بين الحين والحين، نقادٌ كبار؛ كالدكتور عبد القادر القط»، وعندما يذكر المنفلوطي يقول عنه: «لقد مات المنفلوطي موتًا طبيعيًا بالسكتة الذوقية، وربما كانت روايات محمد عبد الحليم عبد الله هي آخر ارتعاشة لذُبالته المرتجفة في مهب الريح؛ إذ تغيّر العصر، وتبدّلت الحساسية.. وظهر كتاب من طراز آخر»، لعل تفسيره لانهاء عصر المنفلوطي يصلح إجابةً على تساؤلاته المتكررة عن اختفاء الأدباء من مسرح الأحداث.

وعندما يكتب مقدمة لكتاب الديوان في الأدب والنقد للعقاد والمازني، يأتي على ذكر عبد الرحمن شكري، ويعلّق قائلاً: «لقد رحل

عن عالمنا في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٨ مشلولاً وحيداً معزولاً؛ لا يكاد يذكره أحد، بينما طبق ذكر زميله (العقاد، والمازني) الأفاق».

وعندما يبدأ مقالته عن زكي مبارك يبدأ بقضية التقدير الأدبي؛ أحد شواغله في النقد، ويقول: «لم ينل زكي مبارك التقدير الذي يستحقه؛ لا في حياته، ولا بعد مماته»، وهذا القلق من تقدير المؤلفين والانشغال بأثر حضورهم في الوسط الثقافي يشمل أيضاً قلقاً آخر من عدم الاحتفاء بكتاب معين؛ ففي مقدمة كتابه ما وراء النص، يقول: «أوصي القارئ بالرجوع إلى كتاب الأستاذ أمين روفائيل الذي ترجم فيه أفاصيل من إدجار آلان بو؛ ومن المؤسف أن هذا الكتاب النفيس لم يحدث صدى عندنا؛ كأنه ريشة ألقيت في قاع هوة، ولم يكتب عنه سوى محمود تيمور على صفحات مجلة القصة، ويوسف الشاروني على صفحات مجلة المجلة».

الكتاب النفيس الذي لم يحدث الصدى الذي يستحقه هو مفتاح لكتب نسيها الوسط الثقافي الأدبي، ولم تتم الإشارة لها أو الاحتفاء بها، وهناك قلق آخر لدى ماهر شفيق فريد؛ وهو الالتفات للزوايا التي لم تلق الاهتمام الكافي في تراث بعض المثقفين؛ فصورة المسيري اقترنت في سنواته الأخيرة بالموسوعة التي عن اليهود والصهيونية، ونقاشاته في قضايا العلمانية والدين، لكن ماهر شفيق فريد يبيض الصفحات الكثيرة؛ لكي يكتب عن المسيري ناقداً أدبياً مستعرضاً إسهاماته في مجال النقد الأدبي والترجمة.

بعد فترة من معاودة الإغارة على حدود عالم هذا الناقد، اكتشفتُ

ذلك المفتاح السري؛ تلك الرغبة القوية في الإشادة بالمنسيين في عالم الأدب المصري ونقّاده وشعرائه؛ إنه، وهو يقوم بعملية النقد، لا يقدّم وصفاً أدبياً لقيمة العمل الفني، لكنه يحمل ذلك السؤال المستبطن: لماذا لم تتم الحفاوة بهذا العمل وتقديره؟ قررت أن ألعب معه لعبة كلما زرت مدينة كتبه المرموقة على مكتبي؛ أن أجمع هؤلاء المنسيين؛ وهو الكاتب الوحيد الذي حرصت على أن أجمع أعماله الكاملة؛ ولعل السبب الدفين هو أنني مُولعٌ بالبليوجرافيا، وقوائم الكتب، وأشعر بالنشوة عندما أحصل على عنوان كتاب منسي ومهمل من الحضور الثقافي العربي. أحياناً يكون هذا الاكتشاف مدعاة للفخر بين الأصدقاء، والإغراب عليهم بنوادر المطبوعات، وأحياناً ينير لي زاوية مظلمة من زوايا التاريخ الأدبي والثقافي. بهذا الولع البليوجرافي الذي تملّكني بعد أن عملتُ فترةً في مشروع بحثي كان يقوم برصد قوائم الكتب، ويوثّق الكثير من أسماء المقالات، ثم العمل في مكتبة لبيع الكتب، حيث يكون رأسمالك الرمزي قدرتك على معرفة أكبر كمٍّ من القوائم والكتب وعناوين المؤلفين، رأيتُ في ماهر شفيق بطلي القارئ الفحل الملمُّ بما في بطون المجالات الأدبية من هوامش، فضلاً عن الكتب. متى قرأ كل هذه الكتب التي يستعرضها؟ ثم إنه بعد أن يقرأ يرثي أدباء المدينة المفقودين الذين اختفوا عن الساحة الأدبية، وهو بهذا الولع، في فتح دفاتر الأمس، واستعادة تراث الراحلين؛ يكتب المراثي الأدبية؛ لأنه يتلفّت حوله؛ فلا يجد الكثير من الأصحاب؛ لذلك يكتب عن سلامة موسى، وعلي أدهم، وأمين الخولي، ويوسف كرم وغيرهم، وكذلك يرثي أستاذه رشاد رشدي، وهو مُدرِكٌ لكل عيوبه النقدية في سنواته

الأخيرة، ولن أثقل على القارئ بإيراد كل نماذج تساؤلات الحضور والغياب لدى ماهر شفيق؛ فلدينا ما يقارب ١٨٠ صفحة في كتابه تُساعية نقدية تتناول مراثي الأدباء والمؤلفين واستعادة تراثهم وتجاربهم.

هل قلت إن البيلوجرافيا هي التي جعلتني أحب هذا الرجل؛ وهو الذي شارك في بيلوجرافيا حول ما كُتب عن نجيب محفوظ بالإنجليزية؟ أحياناً كنت أفسر تلك الغواية منه بأنها محاولة؛ أزعم أنها يائسة، في الحفاظ على حضور تلك الأسماء القديمة، والتي يبدو أن المناخ الثقافي والساحة الثقافية لم تعد تنظر إليهم بكمبر اهتمام؛ خصوصاً خارج مصر التي فقدت قوتها الناعمة، ومتابعة العرب لما يكتب أدباؤها؛ وحُجَّتِي في هذه الفرضية هي رفوف المكتبة التي أعمل بها، وأرى القراء يُقبلون على الكتب المترجمة، ولا يعرفون أسماء الأدباء المصريين؛ سواء من الجيل السابق، أو حتى الجيل الذي يكتب حالياً.

لقد جمع ماهر شفيق فريد مختارات لإدوارد الخراط، وكتب عن ميخائيل نعيمة، ومي زيادة، ومحمد مصطفى بدوي، وفخري أبي السعود، ووحيد النقاش؛ شقيق الناقد المعروف رجاء النقاش، وغالب هلسا، وسامي خشبة، وغيرهم الكثير، مع إلقاء الضوء على أعمال كاد النسيان أن يطويها، وأصدر مختارات من أشعار، ومقالات مجلة أبولو للشعر. ومن يذكر أبولو الآن؟! ولن نتعجب من أن نراه يكتب مقدمات الكثير من الكتب التي صدرت في سلسلة «ميراث الترجمة» التي يصدرها المركز القومي للترجمة؛ فيكتب مقدمات لـ سائين ترجمة المازني وغيرها؛ كأن حبه للعودة في دفاتر الماضي جعله باحثاً مُجيداً للحديث عن ميراث الترجمة.

أنهي المقال بوصفه الجميل لنفسه وعلاقته بدور النشر الحكومية؛ يقول: «أكره المكاتب الحكومية، الدوايب المعدنية، والأرفف، والأوراق، والتوقيعات، والأختام، ودفاتر السركي، وجوه الموظفين، عقد الموظفين، أقنعة الرؤساء، استخداء المرءوسين أمامهم، ثم جبروتهم على سبيل التعويض مع أصحاب الحاجات؛ لهذا لم أحاول أن أحمل كتبي إلى «الهيئة المصرية العامة للكتاب»، مع استثناءات محدودة؛ لأنني أضنُّ بها أن تضيع في دهاليز ذلك التيه في رملة بولاق.. خير لي أن تبقى كتبي مخطوطة، أو مرقومة على الآلة الكاتبة، أو مطبوعة على الاستنسل في درج مكتبي - من أن تبقى في أدراج أولئك القوم؛ جنبًا إلى جنب مع صحيفة اليوم، وسندوتشات الفول، والطعمية، وشغل التريكو».

(٣٢) على بلد المحبوب: حكايات الغلاية في زمن الحرب

ابتعثُ الكتاب من معرض الكتاب في إسطنبول وسهرت معه؛ وهو يحكي تلك القصة التي شدَّتني من العنوان الفرعي للكتاب قصة السفينة زمزم؛ وتبدأ بعد أشهر قليلة من انتقال الصحفي أحمد خير الدين للعمل، والعيش في العاصمة الأمريكية؛ حلَّت مثنوية ثورة ١٩١٩، واكتشف أنه على بُعد عشر دقائق فقط من مكتبة الكونجرس، وأن الدخول إلى ما يحتويه قسم الشرق الأوسط في المكتبة الأكبر في العالم بسهولة التجول في الحديقة الأمامية للمبنى؛ وجدها فرصة لاكتشاف صحف تلك الفترة ووثائقها.

وفي نهاية بحثه عن مقالات عن ثورة ١٩، قرأ هذا الخبر في أرشيف الجرائد: «وصل إلى القاهرة في الأسبوع الأسبق ٦٦ مصريًا عائدين من ألمانيا، بعد أن قضوا في الأسر أربع سنوات؛ وهم من بخارة الباخرة (زمزم) التي أغرقها الألمان». عاد أحمد إلى مقعده مرة أخرى، واستأذن أمينة المكتبة في دقائق إضافية. بدا شوقه واضحًا، وهو يُجري نظره على السطور لمعرفة ما جرى لهذه الباخرة، ويتساءل: «كيف لم أسمع بهذا من قبل؟!»

اكتشف خير الدين قصة مشوقة؛ تبدأ مع الأسبوع الأول من مارس/ آذار عام ١٩٣٤؛ حينما بدت السويس في أبهى حُلَّة، وامتلاً شارع سعد

باشا بالزينات والبشر؛ الذين أتوا ليشهدوا الاحتفال الكبير بوصول طلعت باشا حرب؛ ليفتح أول رحلة للسفينة زمزم، التي كانت رمزًا للاستقلال الاقتصادي الوطني، وفرح بها الأديب أحمد حسن الزيات، وكتب مقالة عن هذه اللحظة. خفقت الأعلام الخضراء على سوارى السفينة، وشعرت الموانئ المصرية المحتلة أن في أحضانها وليدًا من أهلها. عملت زمزم فترة لنقل الحُجاج، لكنها في الثامن والعشرين ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٠ انطلقت إلى نيويورك، أما مصر في ذلك الوقت؛ فقد كانت مشغولة بمسألة انخراطها في الحرب العالمية الثانية بجانب بريطانيا.

لكن من يسافر في تلك الأيام الخطرة؟ يوضح أحمد خير الدين في كتابه على بلد المحبوب: رحلة زمزم الأخيرة الصادر عن دار الشروق، أن الرحلة لم تكن مأمونة العواقب. كانت السفينة تحمل بضائع تجاوزت خمسة آلاف طن؛ معظمها من القطن المصري طويل التيلة الذي اشتراه تجار في بوسطن، أما القسم الأكبر من الركاب؛ فقد بلغ عددهم ١٢٥، أكثرهم فازون من مواقع الحرب في شمال إفريقيا، وغيرها من المناطق التي أدرك الجميع أن المواجهات ستتقل إليها، وأما البحارة؛ فعددهم ١٣٠؛ أكثرهم مصريون.

مرّت السفينة زمزم بقوس قزح أربع مرات؛ اختلف الركاب في تفسير هذه الظاهرة، كان المبشرون يرونها علامة إلهية على حماية الربّ لهم من الأحوال؛ فيما خشّيتها البحارة لأن أساطيرهم تعدّها نذير شؤم. مرّت أيام السفينة هادئة وادعة، بل إنهم احتفلوا برأس السنة لعام ١٩٤١، وأعلنوا تنظيم مسابقة لاختيار ملكة جمال ركّاب الباخرة. وفي الخامس والعشرين فبراير/ شباط ١٩٤١ وصلت الباخرة زمزم إلى

ميناء نيويورك بعد أن قطعت مسافة ١٢ ألف ميل، ولاح تمثال الحرية من بعيد.

غادرت الباخرة زمزم نيويورك في طريقها إلى كيب تاون؛ حتى تعود إلى الإسكندرية، اختارت السفينة الطريق الطويل؛ طريق رأس الرجاء الصالح؛ هرباً من المعارك في البحر المتوسط بين ألمانيا وبريطانيا. وطوال الرحلة أعمت عُرف السفينة، وأطفئت كل أضوائها، وأُغلق جهازها اللاسلكي أيضاً؛ خوفاً من هجوم الألمان عليها. ورغم أن مصر ليست طرفاً في الحرب، لكنها حليفة لإنجلترا.

جاء عيد القيامة في الثالث عشر من إبريل / نيسان؛ فعمّت الاحتفالات والأغاني أرجاء زمزم. شارك البحارة والطاقم مع الأطفال في ألعابهم، وحكوا لهم عن رحلاتهم مع الباخرة إلى أماكن بعيدة وجميلة. ورغم أجواء السعادة والمرح؛ فقد كانت علامات التوتر بادية على الجميع.

وفي السابع عشر من إبريل / نيسان، هاجمت المدمرة الألمانية الشهيرة أتلانتس السفينة زمزم؛ وبالتحديد في المسافة بين البرازيل وجنوب إفريقيا، بين ميناءي رصيفي وكيب تاون. وسمع الركاب صوت القذائف؛ إذ استهدفت القذائف الأولى كابينة اللاسلكي؛ لمنع زمزم من الاتصال بأي باخرة أخرى، أو طلب الاستغاثة. حاول الركاب إعلان أن زمزم وركابها مسالمون؛ اعتقد الألمان أنها سفينة حربية؛ لأن زمزم عملت ناقلة جنود بريطانية في الحرب العالمية الأولى. وكانت المفاجأة أنه لم يمُت أحد، وبعد غرق زمزم انتشلهم الألمان، وانتقلوا إلى بارجة أخرى حملتهم إلى فرنسا.

ركزت الصحف المصرية في ذلك الوقت على رحلة هروب عزيز باشا المصري ومرافقيه، وتجاهلت خبر غرق السفينة زمزم، الذي ظهر خبرًا صغيرًا بصيغة استفهامية في الجريدة: الباخرة زمزم.. هل غرقت في المحيط الأطلنطي؟

وصل البحارة المصريون إلى المعتقل في ألمانيا، كان الطعام سيئًا؛ يتكون من الجَزَر أو البطاطس المسلوقة. عدَّهم الألمان أصدقاء الإنجليز فلم يُفَرِّجوا عنهم؛ على عكس الأمريكيان الذين جرى تسليمهم؛ خوفًا من استفزاز أمريكا؛ مما يعجِّل من مشاركتها في الحرب.

لم ينجُ المعتقلون المصريون من الجوع والعري إلا بعد ثلاثة أشهر عن طريق منحة من الحكومتين المصرية والإنجليزية أوصلها إليهم الصليب الأحمر. طُوي عام ١٩٤١، ومعه قصة زمزم، وحين صدر عدد سنوي من الأهرام في بداية العام الجديد، استعرض أهم الأحداث العالمية والداخلية خلال السنة المنقضية، ولم يأتِ على ذكر الحادث سوى اعتراض الحكومة على إغراقها فقط.

تعرض البحارة المصريون لسوء المعاملة؛ عدا الأيام التي تصلهم فيها حصتهم من المؤن عن طريق الصليب الأحمر؛ إذ كان الحراس يقاسمونهم ما يصل إليهم، وكان الحارس إذا أعطي قطعة صابون فرح بهاء، وكأنه وهب منزلًا. وكلُّما طلب الأسرى المصريون إعادتهم إلى مصر، قيل لهم إنَّ ذلك سيحدث بعد دخول الألمان مصر، وتطهير إفريقيا من جنود الأعداء؛ أي الإنجليز والأمريكان!

كانت لحظات صمت وأسى ودموع تسود عنابر المصريين؛ حين

ينطلق صوت أم كلثوم تغني كلمات أحمد رامى وألحان رياض السنباطي:
«على بلد المحبوب وديني.. زاد وجدى، والبُعد كاويني».

في تلك الأثناء كانت عناصر الجيش البريطاني تتجول بسعادة بين شوارع القاهرة يلتقطون الصور، ويجربون الشيشة في خان الخليلي، أو يلعبون الورق في عوامة على النيل. وفي الرابع والعشرين من إبريل/ نيسان ١٩٤٥ وصلت قوات الحلفاء إلى المنطقة، ودارت معركة كبيرة مع الجيش الألماني؛ تطاير فيها الرصاص داخل المعسكر، واستمرت لأكثر من أربعة أيام. وبعد أن انتهت المواجهات، أطلق الحلفاء سراح الأسرى الذين خرجوا إلى القرى المحيطة؛ ليتمتعوا بالحرية، ويبحثوا عن سبل العودة السريعة إلى أوطانهم.

لم يهتم أحد على ما يبدو برسائل المعتقلين، وفُوجئ العائدون المصريون عند وصولهم إلى ميناء بورسعيد بمن يطالبهم بالبقاء في الباقرة، والتوجه إلى ميناء السويس أولاً، دون تقديم مسوِّغ لذلك. وفي السويس لم يجدوا أحدًا في استقبالهم أيضًا؛ بل إن السلطات الحكومية طالبتهم بمصاريف عودتهم إلى أرض الوطن.

وحين سأل عن راتبه الذي جُمّد منذ إغراق زمزم وسط المحيط، ولم يحصل عليه أو يسلم إلى عائلته، فُوجئ القبطان جمال عمر، وهو أحد البحّارة المعتقلين، بخصم نصف المبلغ الذي وصل إلى ٥٠٠ جنيه مصاريف عودة. أمّا القبطان الإنجليزي ومساعدته؛ فحصلوا على راتبهما كامليْن مع علاوات، وإعانات عن مدّة الأسر؛ تجاوزت ألف الجنيهات.

انتهى حديث الصحافة المصرية عن البحارة، وما جرى لهم باستغاثة
حزينة مقتضبة من حسن خليل حسن نيابةً عن زملائه، أرسلها إلى جريدة
المقطم بتاريخ ٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٥١؛ يرجو حكومة الشعب أن
تنصفهم بعد عشر سنوات مما جرى لهم.

ورغم عدم تعرض الركاب الأمريكان لسنوات الاعتقال؛ فإنهم رأوا
في حادثة زمزم معجزة، ورمزًا للنجاة من الغرق، وخصصوا قسمًا في
مكتبة تابعة لكنيسة في شيكاغو للمقتنيات المتعلقة بالسفينة زمزم؛ من
رسائل شخصية ومراسلات وكتب وثقت الواقعة، على عكس قصة
الركاب المصريين الذين جرى تجاهل قصتهم.

سطرٌ واحد قرأه أحمد خير الدين جعله يقضي سنتين في البحث عن
مصير ركاب السفينة زمزم المصريين وحياتهم، وتبدو براعة الكاتب في
جمعه بين حكاية السفينة، وأجواء العصر، والأحداث التاريخية التي
عصفت بمصر في تلك الفترة؛ كأنه يراوح بين السفينة وتاريخ مصر بخفة
ورشاقة، وبين حكايات بعض الناجين والأوضاع العالمية في هذا العصر
المضطرب. نجح خير الدين في حكاية القصة؛ رغم استعصاء الكتاب
على التصنيف الأدبي الواضح؛ فهو ليس رواية ولا سيرة، لكنه يجمع بين
اللونين، ويبدو أن هذا التقليد الكتابي الذي يقترب من التحقيق
الاستقصائي في التاريخ بدأ يحتل مساحة أكبر داخل المكتبة العربية؛
وهو تقليد يعتبر أهم أعمدته الصحفي صلاح عيسى في تحقيقاته عن ريا
وسكينة، وجريمة قتل مدام فهمي، وبحثه عن "خط الصعيد في عهد
الاحتلال، ومؤخرًا رأينا كتاب إيمان مرسل المعنون: في البحث عن
عنايات الزيات؛ يجمع خيوط قصة كاتبة انتحرت، ويولف بين سيرة

المؤلفة، وقصة الراحلة، وكذلك كتابات محمد شُعر؛ مثل أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرمة.

كتاب في بلد المحبوب هو الكتاب الثالث لأحمد خير الدين؛ سبقه كتاب بعلم الوصول، وهو كتاب مميز جمع فيه رسائل من شخصيات مصرية في عصور مختلفة؛ من عهد الاحتلال البريطاني إلى فترة السبعينيات، واستنطق تلك الرسائل لترسم لنا صورة عن هموم العصر الذي كُتبت فيه؛ كأن خير الدين مشغول في كل ما يكتب بحكايات المغمورين والبسطاء الذين صمت عنهم التاريخ؛ لأن الرواية التاريخية تفرد صفحاتها لحكايا العظماء، وتتجاهل الناس؛ لذلك كانت حكاية السفينة زمزم رمزًا لحكايات المدنيين في الحروب، وكيف أن تقلبات هذه الحرب العالمية الكاسحة ازدرت سيادة الدول، وأنكرت حياد مواطنيها الذين طالهم خلال مساراتها؛ بخارة يُعتقلون في معسكرات نازية، وحرب عالمية تُلقى بظلالها على مصائر الناس، وصحافة مشغولة بالأخبار المحلية، ومعتقلون لا تسأل عنهم حكومتهم.

(٣٣) مطامح جورج مقدسي وأقداره:

تعليمٌ استثنائيٌّ لأمريكي من أصولٍ شاميّة

على الرغم من صغر حجم سيرة جورج مقدسي، فإنني استمتعتُ بها بترجمة جميلة للدكتور أحمد العدوي؛ فقد كانت السيرة موجزًا لحياة هذا المؤرخ والمستشرق الفحل، يروي فيها قصة حياته بأسلوب سلس وممتع؛ إذ هاجر والده أبراهام مقدسي إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٣، قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة. خرج مقدسي الأب إلى الولايات المتحدة من منطقة حلبا القريبة من طرابلس، وكانت لا تزال منطقة سورية، لكنها مع الانتداب الفرنسي أصبحت جزءًا من لبنان، وهكذا هاجر أبواه إلى الولايات المتحدة بوصفهما سوريين في البداية، لكن وبعد ما يقرب من ربع قرن عاشا في الولايات المتحدة بوصفهما لبنانيين.

وُلد مقدسي عام ١٩٢٠، وفي طفولته في أمريكا يتذكر أفلام لوريل وهاردي، وكذلك بعض ملامح حقبة الانهيار والكساد العظيم الذي أصاب اقتصاد الولايات المتحدة، وسماعه همس الناس باسم عصابات اليد السوداء، وحكايات تهريب الويسكي المجلوب من كندا بين وندسور وديترويت، خصوصًا أنه في تلك الفترة أقرَّ قانون حظر الخمر.

تلقَى مقدسي تعليمه الأولي في ديترويت، لكن الأسرة عادت من الولايات المتحدة إلى لبنان عام ١٩٣٠ في عطلة دامت سنوات، وفي

لبنان تعلّم جورج اللغتين العربية والفرنسية، إلى أن تفوّق وحصل على شهادة الدبلومة، لكن أسرته تعرضت لأزمة مالية جعلته يتوقف لمدة عام عن التفكير في الذهاب إلى الجامعة. أخذ في هذا العام يغرق في التعليم الذاتي، وانهماك في قراءة الأعمال الكلاسيكية الفرنسية من القرن السابع عشر، إضافة إلى شعر المتنبي الذي أغرم به وحفظه عن ظهر قلب. وقد عشق مقدسي الأدب الفرنسي، خصوصًا مسرحيات مولير، وكذلك قرأ لكورنيل وراسين ولافونتين. ويخبرنا مقدسي عن قوة ذاكرته التي مكّنته من استعادة عناوين تلك الكتب التي قرأها وهو فتى، وسرّ ذلك أن فتاة جميلة من جيرانه أعارته هذه الكتب فاحتفظ بهذه الذكرى.

في تلك الأثناء كانت أمّه تشجعه طيلة تلك السنة الدراسية المرحّة، فلم تفتأ تؤكد له قيمة العلم بقولها: «العلم يا بُنيّ، العلم». وكان مقدسي يجد السلوى آنذاك في إنشاد الشعر بصوت جهوري في أثناء العمل في فلاحه الأرض، وفي ذلك العام تعرّف على كتابات جبران خليل جبران. وكان مقدسي مولعًا بقصيدة جبران «أعطني الناي وغنّ».

كانت الحياة في حلبا، البلدة الصغيرة في لبنان، خالية من الكهرباء، ومن ثمّ لم يكن هناك أفلام أو مذياع أو أي مظهر من مظاهر الحياة الحديثة، ومع ذلك يحكي مقدسي في مذكراته حكايات عن سحر البلدة الصغيرة الخاص، فقد كان يُصغي إلى أصوات المغنّين في الأمسيات، ويقرأ تحت تعريشات الكروم الصيفية، ويتأمل أشعة القمر الفضية المنعكسة على صفحة مياه البحر المتوسط خلف التلّة. هكذا كان يتأمل جمال خلق الله وعظمته.

حلّت ساعة العودة إلى الولايات المتحدة ومغادرة لبنان، ومع وصول مقدسي إلى أمريكا كان الهاجس الذي يؤرقه هو استعادة لياقته اللغوية بالإنجليزية، بعد غرقه في الأحاديث العربية والتعليم الفرنسي في لبنان. وهكذا توارت الفرنسية والعربية في ركن قصيٍّ في رأسه، وكأن كلتا اللغتين تنتمي إلى عالم آخر، عالم شعر أنه لا يمتُّ إلى أمريكا بصلة. لم ينسَ هاتين اللغتين، لكنه أودعهما بعيداً في طيات ذاكرته، فلقد كانت لديه أشياء أخرى يجدر به أن يتعلمها.

اعتاد مقدسي أن يحضر دروسه في النصف الأول من اليوم، والنصف الثاني من يومه يقضيه في العمل في محل بقالة أبيه. وعلى هذا النحو كان لديه وقت كافٍ للذهاب إلى السينما في طريقه من المدرسة إلى العمل، وهي استراحة وجدها مفيدة لبعض الاستجمام بين النشاطين، وكانت فرصة لتحسين مفرداته الإنجليزية من خلال الأفلام. كانت لديه شهية لتعويض كل ما فاتته في تلك السنوات السبع التي قضاها في لبنان.

بدأ مقدسي اكتشاف نفسه بعد تخرُّجه في المدرسة الثانوية في سنِّ العشرين، أي بعد عامين من السنِّ المعتادة، وعلى مدار العامين التاليين تسبب ضعف الموارد المالية في الحيلولة دون دخوله الجامعة، وهكذا جرَّب نفسه في أعمال مختلفة، بما في ذلك بيع الموسوعات، وتوصيل المجلات إلى أبواب البيوت، والعمل في محلات البقالة التي عرفها. وشرع في تعلُّم العزف على آلة الكمان في عام ١٩٣٧، لكنه سرعان ما ترك العزف.

وبينما كان يتناول العشاء في إحدى أمسيات الأحد في شهر ديسمبر

من عام ١٩٤١، سمع نبأ قصف اليابانيين ميناء بيرل هاربور، القصف الذي سرّع دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية. وبعد أقل من شهرين كانت إجراءات تجنيد مقدسي للخدمة في الجيش قد انتهت، ليبدأ فترة انضمامه مقاتلاً إلى صفوف الجيش الأمريكي. خدم مقدسي في الجيش مدة أربع سنوات تقريباً، قاتل في إنزال النورماندي عام ١٩٤٤، وخرج من الحرب بعد إسقاط الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية على هيروشيما، فبعد بضعة أسابيع من قصفها جرى تسريح مقدسي من الخدمة في الجيش، وعاد إلى الحياة المدنية عام ١٩٤٥. وقد استفاد مقدسي من سنوات الجيش، إذ حصل على مكافأة قدرها ٣٠٠ دولار، ومكافأة من ولاية ميتشجان قدرها ٥٠٠ دولار، فساعدته تلك المبالغ على التسجيل في الجامعة.

التحق مقدسي بعد ذلك بجامعة آن أربور، لكنه انضم إليها وهو في سن الخامسة والعشرين، أي إنه كان أكبر بنحو سبع سنوات من سن الطالب المبتدئ الطبيعي، وكان يعي تلك الحقيقة المؤرّة، ويعي حجم ما ضاع من وقت في سنوات الحرب، وقد حملته تلك المشاعر على التساؤل عما إذا كان أكبر سنّاً من أن يخوض تجربة التعليم الجامعي، فنصحته أحد الأساتذة بالاستمرار؛ لأن نضجه ودوافعه وحماسه للتعليم ستكون جميعاً خير مُعين له.

كان مقدسي يشعر أحياناً بأنه يشبه السلحفاة التي تريد أن تسبق الأرنب، والأرنب هنا هو الطالب الأمريكي الذي تشرب كثيراً بمواد التاريخ الأمريكي والمعارف السياسية. لكن مقدسي توقف عن المقارنة وأخذ يركز على منافسة نفسه فقط.

كان يومه يبدأ في الخامسة فجراً، ويستمر في القراءة والدراسة إلى المساء. وبعد أن أنهى مقدسي سنواته الجامعية التحق بالدراسات العليا، وكانت رسالته للماجستير عن الدستور اللبناني ما بين الحربين العالميتين، ثم سعى للتدريس في جامعة برنستون، إذ درس تاريخ العرب واللغتين الفارسية والتركية.

يحكي مقدسي في سيرته أنه استغرق وقتاً طويلاً لكي يقرر التخصص في الدراسات العربية والإسلامية. لقد بدا له أن اتقان العربية لا معنى له في الولايات المتحدة، وكذلك الفرنسية التي تعلمها في لبنان، لكنه مع الوقت اكتشف تعلقه بالعربية من خلال رفوف المكتبات وهو يقرأ عن النحو العربي في مراجع باللغة الإنجليزية.

كانت النقلة المهمة في تجربته هي سفره للدراسة في فرنسا عام ١٩٥٠؛ إذ كانت الدراسات الإسلامية في فرنسا متقدمة عنها في الولايات المتحدة، لكن في باريس، مدينة الجن والملائكة، كانت الحياة أكثر هدوءاً من المرة الأولى التي تعرّف فيها على المدينة عام ١٩٤٥ عندما دخلها جندياً أمريكياً في الحرب العالمية الثانية.

في عام ١٩٥٠ كانت المدينة تستعيد عافيتها، وكانت الحياة فيها رخيصة، ووجبات الطعام يكفيها دولار واحد في اليوم، أو دولاران ونصف إذا اشتهى المرء وجبة فاخرة. وفي باريس غرق مقدسي في المكتبات التي تهتم بالدراسات العربية والإسلامية، وكان أول كتاب اقتناه هو المستدرك على المعاجم العربية للمستشرق رينهارت دوزي. ولما غادر مقدسي باريس متوجّهاً إلى القاهرة كان لديه صندوقان من الكتب، بجانب أمتعة الأسرة.

في باريس تعرّف مقدسي إلى المستشرق لويس ماسينيون، الذي كتب الكثير من الدراسات عن الحلاج. كما توثقت صلته بالمستشرق لويس جارديه، وزار رفقته معظم معالم باريس وأجزاء أخرى من فرنسا. والتقى مقدسي أيضًا عديدًا من العلماء الأفاضل وتحذث إليهم، وكان يشعر بأنه يخلق في فضاءات جديدة، ولكنه أدرك سريعًا أن أحد المفاتيح المهمة للحياة الفكرية للكاتب وهو وجود المكتبة الشخصية.

في فرنسا استمع مقدسي إلى العديد من المستشرقين، مثل ريجيس بلاشير المتخصص في الأدب العربي، وهنري لاوست المهتم بتاريخ الإسلام وابن تيمية. وفي الكوليج دو فرانس استمع إلى محاضرات الأساتذة الزائرين لجامعة باريس، مثل المستشرق هاملتون جب القادم من جامعة أكسفورد، وكذلك استمع إلى محاضرات الأدب العربي التي ألقاها ليفي بروفنسال، أحد أهم المستشرقين المهتمين بتاريخ الأندلس.

حتّ ماسينيون طالب الدكتوراه جورج مقدسي على دراسة المتكلم والفقهاء الحنبلي ابن عقيل، وقد وافق هنري لاوست على الإشراف على أطروحة مقدسي للدكتوراه، ودخل في نقاش طويل معه. كانت هذه النقاشات بالنسبة إلى مقدسي تعادل مجموع سينمات عديدة، لما وجدته في لاوست من خبرة ودُرْبَة. وقد نصحه لاوست قائلاً: «إذا أردت أن تدرس ابن عقيل فليكن لك ما تريد، ولكنني أنصحك أن تبدأ أولاً بدراسة شيخه أبي يعلى الفراء».

هكذا أصبح مقدسي متخصصًا في تاريخ الفرق والمذاهب في العالم الإسلامي الوسيط. تطلّب الانتقال إلى هذا التخصص سنوات، وتأثر فيه

بمن صادفهم من العلماء في جورجيتاون وبرينستون، باريس التي تأثر فيها بشخصية ماسينيون ودراسته للحلاج المتصوف، ودراسة لاوست لابن تيمية، والصّلة بين الحلاج والحنابلة بصفة عامة. انهمك مقدسي في دراسة مصادر القرون الوسطى الإسلامية في مكتبة ماسينيون الشخصية، ومكتبة «مدرسة اللغات الشرقية» و«المكتبة الوطنية». وقد سمح له ماسينيون باستخدام مكتبته الشخصية مرارًا.

لقد تعلّم من ماسينيون الصبر على قراءة نصوص كتب التراث، والبحث فيها حتى مع عدم وجود كشافات أو فهرس، ونصحه بضرورة قراءة الكتب سطرًا سطرًا حتى يعثر على ضالته، فهكذا يجد الصيادون ضالّتهم من اللاكئ.

كانت الشهور الأولى في باريس شاقّة على مقدسي حتى يتكيّف مع نظام المكتبات المختلف عن أمريكا، وقد عانى عدة شهور من الإحباط التام في مشكلات الدكتوراه وفي المشكلات المتعلقة بأسرته لكي يجد لهم منزلًا في بلد تخلّص مؤخرًا من نير الاحتلال العسكري وخرج من سنوات الحرب، فليس ثمّ متاجر ولا أسواق كبيرة، وهناك القليل من المنتجات التي من شأنها أن تيسّر الحياة على زوجة أمريكية ترعى طفلًا صغيرًا وترضع آخر، ناهيك عن الإجراءات الروتينية المتعلقة بالإقامة في فرنسا.

عاد مقدسي من باريس للبحث عن عمل في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه عاد بحصيلة ضخمة من الكتب وصور المخطوطات، بلغت اثني عشر صندوقًا من الكتب، شخّنها معه إلى الولايات المتحدة

الأمريكية، وعاد لإستكمال كتابة أطروحته للدكتوراه، وأخذ يتعرّز فهمه للحركة الدينية في بغداد، وبدأ ينشر كتابات عن هذه الفترة مثل «يوميات ابن البّناء الحنبلي»، وهي يوميات فقيه حنبلي من القرن الخامس الهجري، صادف مقدسي مخطوطتها في أثناء تصفّحه لأكثر من ١٥٠ مخطوطة من مخطوطات المجاميع (وهي المخطوطات التي بين غلافها أكثر من عنوان) في مكتبة دمشق الوطنية، فلمّا تأملها أدرك أنه وقع على يوميات من نحو ثلاثين صفحة لفقيه عاصر ابن عقيل، وكان أصعب ما في الأمر هو قراءة خط المخطوطة، حتى إنّ بلاشير عندما رأى إحدى صفحات المخطوطة قال: «يا له من نص لعين!». استغرق مقدسي في العمل على هذه المخطوطة ثلاثة شهور في فصل الصيف.

استغرق مقدسي سنوات في جمع تراث ومخطوطات ابن عقيل من المكتبات حول العالم، وكذلك بدأ التفكير في البحث في تاريخ التربية في الإسلام، والمدرسة النظامية في بغداد، وطبيعة التعليم الذي تلقّاه ابن عقيل ونظام التعليم في العالم الإسلامي، وهي الدراسات التي نتجت عنها تحفته: نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب، التي صدرت في العربية عن مدارات للأبحاث والنشر، بترجمة محمود سيد محمد.

اشتغل مقدسي على مشروع آخر عن تاريخ العلوم في العالم الإسلامي، وجذور النزعة الإنسانية أو الأدب، التي أسفرت عن تحفته الثانية: نشأة الإنسانيات عند المسلمين وفي الغرب المسيحي، الذي تُرجم مؤخرًا على يد الدكتور أحمد العدوي. ودرس فيه مقدسي نشأة العلوم الإنسانية في الإسلام الكلاسيكي، مع نظرة مقارنة مع الغرب المسيحي. وصدر أيضًا عن الناشر نفسه.

لقد تساءل مقدسي في سيرته عن الدوافع التي قادت إلى الحياة العلمية، فقد انحدر والده من سلالة البنّائين المَهرة الذين طالما فخروا بمهنتهم، كما امتلكوا أيضًا أرضًا زراعية وعاشوا من خيراتها، وانحدرت أُمّة من سلالة الفلاحين الذين كانوا يملكون الأرض، وهاجر بعضهم إلى نصف الكرة الغربي.

ولم يدخل أصدقاء مقدسي في ديترويت الجامعة، لذلك يبدو لنا أن توجّهه نحو الحياة الفكرية كان حصيلة مجموعة من العوامل التي كانت منبئة الصلة بسنواته الأولى في ديترويت، مثل تجربة دخول الجيش التي جعلته يقف على قيمة المعرفة باللغات الأجنبية، وقانون تسهيل الدراسة على المحاربين، والقدوة التي وجدها في العلماء الذين قابلهم في حياته. وانتهت حياة مقدسي الحافلة في أمريكا عام ٢٠٠٢ عن عمر ناهز ٨٢ عامًا.

اشتغل مقدسي طيلة حياته بالدراسات الإسلامية المقارنة، وكتب الكثير من الدراسات حول التاريخ الإسلامي، درس فيها الإسلام الحنبلي وحياة ابن عقيل، ونشر تراثه الفقهي مثل كتاب الفنون وكتاب الواضح في أصول الفقه، وكتب عن نشأة النظم التعليمية في العالم الإسلامي في نشأة الكليات، وكان مستشرقًا متمردًا؛ إذ نقد المركزية الأوروبية في رجوع الأصول المدرسية والمذهب الإنساني إلى الغرب فقط، بل بحث في جذور هذه الأفكار في الحضارة الإسلامية، وكذلك قدم دراسات عن الأشعرية، وكتب عن الشافعي، وأصول المتكلمين، وبغداد في القرون الوسطى، وغيرها من الدراسات التي عرضها بالتفصيل الدكتور أحمد العدوي في مقدمته الرائعة لكتاب نشأة الإنسانيات.

(٣٤) محمد كريشان يروي: وإليكم التفاصيل

يعرف الجميع محمد كريشان؛ المذيع الشهير في قناة الجزيرة. ما إن حصلتُ على نسخة من سيرته الذاتية، حتى سعدتُ بالعيش مع هذه التجربة الصحفية الشيقة. يُخبرنا كاتبنا أن الكتاب ليس سيرة ذاتية، ولا توثيقًا تاريخيًا؛ إنه ببساطة مجرد محطات متناثرة ظلَّت عالقةً في ذاكرته الصحفية؛ امتزج فيها السرد بالرأي، وتداخل المهني بالشخصي.

أخذتُ في قراءة السيرة التي سمّاها محمد كريشان يروي: وإليكم التفاصيل، وبعد عدّة فصول تأكدتُ أنها سيرة ممتعة؛ أقول هذا بعد أن كتبتُ ما يقارب خمسين مقالةً حول السير الذاتية والمذكرات، وعشتُ مع هذا الفن الجميل. وأنا ضامنٌ للقارئ أنه سيفرّوها من الغلاف إلى الغلاف، ويتقلّب بين فصولها بخفة ورشاقة، وإذا ضمنتُ لك متعة القراءة؛ فلا أستطيع حمايتك من حالة الشّجن التي ستشعر بها، وأنت ترى حكايتنا مع السياسة وخيبات أوطاننا العربية وهزائمنا؛ كأن السيرة هي قصّة أوجاع العرب.

أجل كريشان فكرة كتابة سيرة ذاتية؛ بسبب دوامة العمل والسفر المتواصل منذ التحاقه بعالم التلفزيون بعد خروجه من تونس عام ١٩٩٥، ولم تكن ظروفه تسمح بثرف الجلوس لكتابة سيرته. واستمرّ التأجيلُ إلى أن أتى فيروس كورونا، واجتاح العالم، وكانت فرصةً لكريشان ليجلسَ ويُلملم ما كتب سابقًا، ويشخّذ ذاكرته، ويجمع أفكاره وأحداث حياته الإعلامية المبعثرة، ويسجّل لنا تفاصيل التجربة.

تونس فجر الصحافة وليل السياسة

يبدأ الكتاب بحكاية قصة محمد كريشان مع بلاط صاحبة الجلالة، ودخوله عالم الصحافة من بوابة جريدة الرأي؛ تحت رئاسة تحرير حسيب بن عمار. تستعيد السيرة سنوات كريشان في العمل الصحفي في تونس في شبابه؛ خصوصاً عندما انتقلت جامعة الدول العربية إلى هناك. وهي تُذكّرني بسيرة الصحفي حمدي قنديل عشتُ مرتين؛ حينما ثار من الشهرة الإعلامية في نهاية حياته بسبب برامج السياسية؛ مثل: قلم رصاص، واستفاض قنديل في شرح تغطياته حول العالم؛ كأنه أراد أن يُؤكد تاريخه في العمل الصحفي قبل شهرته على شاشات التلفزيون. وهذا ما فعله كريشان في حكايته عن قصته صحفياً قبل أن يكون نجماً على شاشة الجزيرة؛ خصوصاً في بدايات عمله الصحفي في تونس، وزيارته لمصر، ومقابلته الطريفة مع الشاعر أحمد فؤاد نجم، وعن رحلة عجيبة إلى ليبيا. والكتاب فيه حكايات عن العقيد القذافي غريب الأطوار، وعن تجربة كريشان مراسلاً لجريدة عكاظ. وفي الكتاب صورة مختلفة للمُصنف المرزوقي، والباقي قايد السبسي؛ فتراهما صحفيين قبل الوصول إلى سُدّة الرئاسة. وحينما دخل صدام حسين الكويت؛ دخل في نفس الوقت محمد كريشان بوابة العمل الصحفي مع الإذاعات؛ لتغطية الأحداث؛ إذ عمل مراسلاً للإذاعة الهولندية.

الجزيرة.. سيرة القناة الصداع

قصاصةٌ صحفية صغيرة فيها إعلانٌ من هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) عن رغبتها في توظيف مجموعة من المُحرّرين والفنّيين والمُذيعين للعمل في لندن؛ في قناة جديدة تُطلقها باللغة العربية. هذه القصاصة التي بقيت على مكتب كريشان حتى اصفرت من أشعة الشمس - كانت أول

نداءٍ له ليقدم على وظيفة مذيع في بي بي سي. في المذكرات قصّة الوظيفة الأولى، وما صاحبها من قلقٍ؛ من الصحفي القادم من عالم الجرائد إلى عالم الشاشات، والعرق يتصبّب من كامل جسده وهو يقرأ النشرة الأولى، ولم يتنفس الصعداء إلا بعد أن ودّع المشاهدين في نهاية النشرة. وفي هذه الفصول ستشعر ببرد لندن القارس، ويومها الكئيب القصير، ومشاعر الغربة وتجربة العمل التليفزيوني.

يسيرُ بك الكتاب حتى ترى تبخّر حُلُم هذه القناة العربية في لندن؛ في تفاصيل تجدها بتمامها في الكتاب، ثم ينقلك من ضباب لندن إلى حرارة شمس الدوحة الساطعة؛ وهو يحكي قصته وقصة القناة الوليدة؛ قناة الجزيرة؛ الفكرة الخطيرة التي نفّث عنها وعي الإرادة السياسية في الدوحة؛ بإنشاء قناة تليفزيونية مختلفة، وبسقف حريات أعلى. هذه شهادة مُمتعة؛ ترى فيها وصفًا للدوحة المدينة/ الدولة بالمُصطلح اليوناني؛ نراها في منتصف التسعينيات، والرعيل الأول من المسئولين في القناة يتوافدون عليها، وحكايات عن محمد جاسم العلي مدير القناة، وكيف جمع فريقه، وعن سهره الدائم في رعاية القناة؛ حتى إنه اتصل عدة مرّات في ليلة واحدة؛ ليصحح أخطاء على الشاشة، فردّ المنتج المصري: «يا أبو جاسم، متى تنام حضرتك؛ حتى نعرف نغلط براحتنا؟»

ينقل كريشان العبارة التي قالها له باتريك نيكولاس ثيوس سفير الولايات المتحدة في الدوحة بين عام ١٩٩٥-١٩٩٨؛ فحينما انطلقت المحطة بعث وقتها باتريك برسالة إلى واشنطن يقول فيها: «إنه إن صدّق القطريون فيما يُعلنونه بخصوص هذه القناة الجديدة؛ فإننا مقبلون على صداع كبير!» ويستمر الكتاب في شرح أثر الجزيرة في التجربة الإعلامية العربية، وتجارب المؤلف معها، ولحظة بكائه على الشاشة؛ حينما أعلن خبر وفاة زميله طارق

أيوب، وتجاربه في التغطيات الصحفية في العراق، وقلقه من مناطق النزاع، وجدالهم صباحًا في بغداد حول: كم انفجارًا حدث في الليلة الماضية؟ وفي زيارته للعراق للقاء الصحاف. قبل سقوط بغداد، التقى الصحفي روبرت فيسك، وقال له ساخراً: «إن الصحفيين يقصدون مناطق يكون الناس حينها بصدد مغادرتها».

فلسطين.. المهنة والوجع

كل الفضل يعود إلى راديو أبيه وصُحفه التي علّمته حُب فلسطين، والطفل محمد يستمع إلى أخبار يونيو/ حزيران ١٩٦٧؛ كان محمد في الثامنة والنصف من العمر يسأل ويستفسر؛ فإذا لم يجد ما يشفي الغليل قلب الصحف التي يُراكمها والده في البيت. كان يتابع الأخبار؛ فبعد أيلول الأسود عام ١٩٧٠، جاءت عملية ميونيخ الفدائية عام ١٩٧٢ خلال الألعاب الأولمبية في ألمانيا، ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣؛ فازداد شغفه بالشأن الفلسطيني ومتابعته له، وانتقل معه هذا الوعي إلى المدرسة؛ فهو الطفل الذي أغاظ معلمته الفرنسية مدام سولي عندما طلبت منه جملة بالفرنسية؛ فما كان منه إلا أن أعطاها جملة تقول: الحرب بدأت لتحرير فلسطين، فانتفضت المعلمة صارخة في وجهه بغضبٍ، قائلة: «إنّ هذا درسٌ في اللغة الفرنسية، ولا دخل للسياسة فيه».

كان يلتهم كلّ ما يخص أخبار فلسطين؛ إلى أن جاء اجتياح بيروت صيف ١٩٨٢، بعد عامٍ واحدٍ من تخرّجه في الجامعة؛ ليشكّل ذروة الاهتمام بفلسطين؛ إذ انتقلت القيادة الفلسطينية من لبنان إلى تونس. وذهب لتغطية الحدث لحساب صحيفة الرأي؛ كانت تلك اللحظة نقطة تحولٍ لحركة فتح؛ ونقطة تحولٍ في حياة كريشان أيضًا؛ إذ تحوّل عمله بالكامل تقريبًا إلى متابعة

الشان الفلسطيني، واجتماعات الجامعة العربية، التي انتقلت إلى تونس بعد مقاطعة الدول العربية لمصر في أعقاب اتفاقية كامب ديفيد.

غطى كريشان مجزرة حمام الشط؛ التي استهدفت فيها إسرائيل عرفات، ومقر القيادة الفلسطينية في تونس، وكوّن كريشان علاقات مع القيادة الفلسطينية؛ أخذ بعضها بُعدًا إنسانيًا؛ حتى إن القيادي أبو علي شاهين لم يتردد في دعوة كريشان وزوجته على صحنٍ مقلوبة عندما علم أنها حامل، وهناك تعرّف إلى منير شفيق (أبو فادي)، وسعى إلى عقد مقابلات مع المختار ياسر عرفات.

يُقدّم كريشان تصورًا عن عرفات بوصفه شاهد عيان؛ فقد صعد معه على الطائرة المتجهة إلى أمريكا لتوقيع اتفاقية أوسلو، وفي المذكرات تحليل لهذه الشخصية المُحيّرة، ويُظهر كريشان حُزنه على ذكرى عرفات، وشخصيته التي يعتبرها فريدة. ويحكى لنا كريشان عن النكتة التي قيلت عن عرفات أنه خلال شعيرة رمي الجمرات في الحج، رمى الجمرات كلها عدا واحدة؛ فلما سُئل عن السبب قال: «إنه لا يريد أن يقطع بالكامل مع الشيطان؛ فمن يدري؟» وفي الكتاب حديثٌ عن بعض الشخصيات الفلسطينية؛ مثل جورج حبش، وإبراهيم أبو لغد وغيرهما.

مع هيكَل

يتذكر محمد كريشان اليوم الذي جرى تكليفه فيه بالقيام بأول مقابلة مع هيكَل؛ مقابلاته مع هيكَل على الهواء وصلت إلى عشرين لقاءً تلفزيونيًا، ورغم أنه وهو شابٌ صحفيٌّ زار مصر حاول الوصول إلى هيكَل، لكن سكرتيرة الأستاذ تخلّصت من هذا الشاب الصحفي صغير السن؛ الذي أصبح لاحقًا قريبًا من هيكَل، ويدخن السيجار مجاملةً معه في عزبته في برقاش.

يُلخّص كريشان تجربته مع هيكل في أحد مقالاته بقوله عند وفاة هيكل: «للراحل محمد حسنين هيكل مُريدون مفتونون، أو كارهون حاقدون؛ مُشيطون فيما يشبه التقديس، أو مسرفون في الذمّ والقدح. لستُ من هؤلاء ولا أولئك؛ أحترم الرجل قائمَةً صحفية نادرة، وشبكة علاقات رهيبية، وتجربة سياسية ثريّة؛ لكن ذلك لا يعني بالضرورة التماهي التام مع كل ما قاله، أو كتبه، أو فعله».

هكذا يُقدّم كريشان الاحترام الكبير لأحد أهم الصحفيين العرب، ولا يوافق على كَوْن الصحفي يجب أن يحكم على كل من يلتقيهم ويحاورهم، ويجد أن مريدي هيكل لم يروا عيوبه، وأن كارهيه قد غَمَطُوا حقّه، وبين نظرف المحبين، وبغض الكارهين يقف كريشان على الحياد الممزوج بالحبّ والتقدير والعلاقة الشخصية مع هيكل.

وتأخذنا المذكرات في جولة حول كواليس تلك المقابلات والنقاشات بين المذيع والضيف، وزيارات محمد كريشان لبيت هيكل، وأكله الفطير المشلتت. ولا نحتاج إلى كثير جهد لنرى أثر انبهار كريشان بالكاريزما التي امتلكها هيكل. ويصف كريشان هجمات هيكل على المختلفين معه بأنها لكماتٌ عنيفة في قُفَازَات من حرير. وتتمثّل القيمة المهمة لهذه الفصول في معرفة بعض آراء هيكل، مثل عدم رضاه عن أداء الجزيرة في تغطية الثورات العربية، وعدم إعجابه ببرنامج الشريعة والحياة وضيفه الشيخ يوسف القرضاوي. كريشان يشرح العلاقة باستفاضة وبمعلومات مهمة، لكنه يتوقف عند لحظة الثورة السورية، وتردّد هيكل في دعمها، وكذلك مواقف هيكل السياسية من الأحداث في مصر، التي جعلت العلاقة تُفتر قليلاً. والقراءة عن هيكل وتجربته من أمتع فصول الكتاب.

سيرة حافلة بالسياسة والمفارقات

أنهى كريشان الكتاب بفصلٍ عن طرائفه مع الزعماء العرب؛ ربما لأن

الصحفي لا ينبغي أن يغمس كثيرًا في الابتسام. وينقل لنا بعض حكاياته مع الزعماء؛ مثل سؤال الرئيس اليمني علي عبد الله صالح للمخرج عماد بهجت: «أخ عماد، أنت سني ولأشيعي؟» فردَّ عماد: «والله يا سيدي الرئيس؛ لا هذا ولا ذاك»، وتطوع كريشان بالتوضيح أن عماد مسيحي، فقال الرئيس عبد الله صالح: «خليك مسيحي أحسن، بلا وجع راس!»

كذلك يحكي عن مقابلته مع بشار الأسد في باريس لتصوير حلقة معه، والنقاش مع بشار قبل التصوير، وجاءت سيرة السوريين العاملين في الجزيرة؛ فحكى كريشان عن تيسير علوني، ثم ذكر لونا الشبل التي لم يكن كريشان يتصور أنها ستنتقل بعد أعوام قليلة من العمل في الجزيرة، لتصبح مستشارة نافذة في قصر بشار الأسد، ومن المقربين إليه. وعن شخصية لبنانية تعرّف إليها في هذا اللقاء، ولن أخبرك من هذه الشخصية؛ فالقصة لافتة في الكتاب.

يرى كريشان في جذب انتباهك في بداية فصوله، وفي البحث عن قفلة مناسبة للفصل بطرفة أو مفارقة؛ فقلمه الصحفي الذي لم يتوقف عن كتابة مقال أسبوعي في جريدة القدس العربي، دأب عليه منذ أكثر من عشرين عامًا؛ حرصًا منه على أن يُعبّر عن آرائه الخاصة في شئون شتى، لا يسمح بها عالم التقديم التلفزيوني، وحتى لا يتكلّس قلمه بعد أن هجر الصحافة المكتوبة، التي يصفها بحبه الأول.

الكتاب يفيض بالمواقف الإنسانية في حياة الكاتب؛ إذ نراه يحكي لنا لحظة وفاة والده؛ التي يصفها بأنها كانت الجرح الغائر الذي لم يُشفَ منه إلى اليوم، أو غضبه من مقالة هاجمته، ورَفَعه قضية بعد الثورة التونسية على الصحفي عبد العزيز الجريدي؛ عندما كتب الجريدي مقالًا شهّر فيه بكريشان. وما أزعج كريشان في هذا المقال بالذات هو أن والدته قرأته،

قالت له: «إن النوم لم يُكْخَلْ جُفُونُهَا بسبب هذا الهجوم»، وأنها تخشى أن يكون المقال مقدمةً لتدبير سوء من حكومة بن علي قبل سقوطه؛ لذلك قرَّرَ مقاضاة هذا الصحفي الذي أزعج والدته، وجعلها تعيش هذا القلق من الافتراء على ابنها.

نستطيع وضع سيرة كريشان مع عديد من الكتب التي أرْخَتْ لمراحل الجزيرة عبر تجاربٍ من عَمِلَ فيها؛ مثل كتاب علي الظفيري بين الجزيرة والثورة، أو تجربة المراسل أحمد فال ولد الدين عند اعتقاله في ليبيا؛ التي سجَّلَها في كتابه في ضيافة كتائب القذافي، أو بعض من هوامش عارف حجاوي في كتابه حياتي في الإعلام، وكتاب أسعد طه يُحكى أن: عن الذات والحرب والثورة؛ على أنها أشمل منهم جميعًا في كونها سيرة غطَّت معظم مراحل حياته.

سيرة محمد كريشان لا تحتوي على كثيرٍ اعترافاتٍ، أو مغامراتٍ عاطفية، أو مراجعات نقدية؛ فهو يثبُتُ لنا صحة مقولة أرسطو أن الإنسان حيوانٌ سياسيٌّ؛ لأن السيرة تدور حول هموم السياسة حتى النخاع، وركض حول التصريحات والمقابلات والتغطيات، ومضايقات الأجهزة الأمنية للصحفيين؛ مثلما حدث معه في إسرائيل، ونفتيشه في الولايات المتحدة، وتحقيق فضولي من فرع المخابرات السورية في مقرِّ فرع فلسطين في دمشق، وغيرها كثيرٌ من الحكايات الممتعة والمؤلمة. هي سيرة تحكي قصة الإعلام أيضًا، ولعلها تُشجِّعُ أساطين تلك المهنة على المشاركة في تدوين مذكراتهم وحكايات حياتهم.

(٣٥) أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرمة

لفت نظري الغلاف الجميل لكتاب أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرمة للأستاذ محمد شعير. يتتبع الكتاب كل ما يخص المعارك الأدبية والسياسية التي دارت حول رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ. ولا يقتصر الكتاب على تقديم ما يخص الجدل حول الرواية؛ بل يصف الجو الأدبي العام الذي ساد مصر في تلك الحقبة. الكتاب مكتوب بطريقة شيقة وممتعة؛ ما إن تنتهي من فصل حتى تتحمس للفصل الذي يليه.

٢١ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٩: لحظة نشر رواية «أولاد حارتنا»:

يُطلعنا محمد شعير على الجو العام لحظة صدور الرواية في صورة سلسلة يومية في جريدة الأهرام القاهرة؛ أحد مزايا الكتاب هو التتبع الدقيق للأرشيف وتاريخ تلك الفترة؛ فالشيوخون معتقلون المحاريق بالوحدات، وهناك خبر عن لص مجهول يسطو على كرمة ابن هاني؛ منزل لشاعر أحمد شوقي؛ ومن بين المسروقات نخلة ذهبية؛ أهداها حاكم البحرين حمد بن عيسى لشوقي احتفالاً بمبايعته أميراً للشعراء، وكذلك كأس فضية؛ هدية من «الاتحاد النسائي برئاسة هدى شعراوي».

ستتعرف من خلال الكتاب على العناوين الرئيسة للصحف في تلك الفترة؛ والتي تتحدث عن مظاهرات حاشدة في العراق ضد عبد الكريم قاسم، بعد تنفيذ أحكام الإعدام في عدد من قادة ثورة الشواف، وأخبار الأدب تقود الهجوم الأعنف؛ فقد وصفت قاسم بأنه «نيرون بغداد».

الصورة الرئيسة في كل الصحف تقريبًا لعبد الناصر بصحبته عبد الحكيم عامر، وعلى المستوى الدولي؛ اهتمَّت الصحف بأول زيارة لزعيم سوفيتي إلى الولايات المتحدة؛ حيث ألقى نيكيتا خروتشوف خطابًا في الأمم المتحدة. في تلك الفترة، انتهى رياض السنباطي من تلحين أغنية «الحب كده» التي استفتحت بها أم كلثوم موسمها الغنائي، وفي هذه الأثناء نشرت الأهرام أول حلقة من رواية نجيب محفوظ أولاد حارتنا مقابل ألف جنيه، وتُسَوِّغ الأهرام ذكر المبلغ بالقول: «والأهرام لا تذكر هذا الرقم -وهو أكبر مبلغ دُفع في الصحافة العربية لقصة واحدة- تفاخرًا أو ادعاءً؛ وإنما يذكره ليسجل بدءَ عهدٍ جديد في تقدير الإنتاج الأدبي».

سنوات اليأس ١٩٥٢-١٩٥٧

يذكر الكتاب أن نجيب محفوظ كتب رواية أولاد حارتنا وهو في سن السابعة والأربعين، وتكتب الصحافة عنه في تلك الفترة أنه غير متزوج، ويوضح لنا شعير أن هذا الخبر غير صحيح؛ فقد تزوج نجيب في عام ١٩٥٤، لكنه أبقى خبر زواجه في السر، وكشفت عنه مجلة صباح الخير بعد عشر سنواتٍ من حدوثه؛ في تلك الفترة، كان نجيب يعمل مديرًا لمصلحة الرقابة على المصنفات الفنية؛ يسمّيه أنيس منصور القطار لشدة انضباطه؛ فهو يخرج من عمله الحكومي في الثانية بعد الظهر، ثم يتناول غداءه في بيته، ويستريح قليلًا، ثم يعمل إلى العاشرة مساءً؛ موعد نومه، وفي الفترة نفسها كان يعمل بكتابة السيناريو، ويعمل على سيناريو فيلم صلاح الدين؛ لكي يحصل على دخل إضافي بعد أن أصبح مسئولًا عن شقيقته وأولادها، عقب وفاة زوجها.

كان محفوظ قد توقّف عن الكتابة طيلة خمس سنوات؛ أسماها سنوات

الجفاف (١٩٥٢-١٩٥٧)؛ كان ذلك بعد أنهى ثلاثيته الشهيرة، وتلكاً ناشره عبد الحميد جودة السحَّار في نشرها لكبر حجمها؛ البعض يقول: إن تلكاً السحَّار كان بسبب الغيرة من نجيب محفوظ، ويصحبنا الكاتب في أقاويل مختلفة لتفسير توقف محفوظ عن الكتابة بعد ثورة يوليو، تعددت إجابات نجيب محفوظ التي تؤكد أن الثورة قتلت رغبة الكتابة داخله؛ ولعلَّ السبب كما ينقل شعير عن صلاح عيسى أن الثورة أصرت على اقتلاع جيل ما بين الثورتين (١٩١٩-١٩٥٢) من الخريطة السياسية المصرية، وخيرتهم بين أمرين لا ثالث لهما؛ أن يقرّوها على أنها بداية تاريخ الوطن، وأن كل ما قبلها لم يكن شيئاً إلا الفساد والخيانة؛ فيغتالون بذلك تاريخهم، أو أن يلتزموا بالصمت التام، وينسحبوا من العمل العام، ويضعوا على أفواههم أقفالاً من حديد؛ لذلك يقول الدباغ بطل الرواية: «كنا طليعة ثورة، فأصبحنا حطام ثورة».

عبد الناصر يسأل

قرر هيكل نشر الرواية في سلسلة يومية وليست أسبوعية؛ حتى تُنشر كاملةً سريعاً، ولكن عقب الحلقة السابعة عشر، بدأت شكاوى ومطالبات للأزهر بالتحرك لوقف نشر الرواية؛ كل هذا وصل إلى عبد الناصر، فسأل هيكل: «إيه الحكاية؟» فأوضح له ملابساتها، وقال هيكل لعبد الناصر رواية كتبها نجيب محفوظ لا بد من نشرها، حتى آخر كلمة. فقبل عبد الناصر استكمال النشر، ثم عاد الصخب، وسأل عبد الناصر مرةً أخرى، وكان اقتراح هيكل أن تقوم لجنة من الأزهر بقراءة الرواية، وأراد من ذلك أن يكسب وقتاً؛ حتى يستكمل نشر الرواية كاملةً في الأهرام.

يكشف لنا الكتاب عن سرّ هجوم الكاتب صالح جودت على نجيب محفوظ، وكيف أن تاريخه لا يخلو من حوادث مشابهة؛ مثلما فعل مع

نزار قباني عندما نشر قصيدته هوامش على دفتر النكسة؛ لكن نزار سيرسل رسالة لعبد العناصر الذي أصدر قرارًا بفكّ الحصار المفروض على نزار وقصائده، وغنّت له أم كلثوم قصيدة: «أصبح عندي الآن بندقية» عام ١٩٦٩؛ من ألحان محمد عبد الوهاب، وهي أول احتفاء بانطلاق المقاومة الفلسطينية المسلحة.

ولم تكن رواية محفوظ وحدها التي أثارت جدلاً عند نشرها في الأهرام؛ فقد تسبّب نشر مسرحية بنك القلق لتوفيق الحكيم، والتي احتجّ عليها عبد الحكيم عامر بشدّة، ووصل الخلافُ إلى نقاشٍ حادٍّ أمام عبد الناصر الذي حسم الموضوع؛ كما يقول هيكل بقوله: «إذا كان الحكيم كتب في العصر الإقطاعي السابق يوميات نائب في الأرياف، وقال رأيه في الأحوال الاجتماعية المصرية في ذلك الوقت، ولم يتصدّ له أحد؛ فهل يُعقل أنه عندما ينتقد بعض الأوضاع بعد الثورة أن نتصدى له؟»

هذا كتاب مُميّز؛ لأنه تتبّع ما يشبه المعركة الأدبية التي دارت حول رواية أولاد حارتنا، وأمدّنا بصورة مختلفة للعهد الناصري؛ الذي لم يكن فيه توجه واحد؛ بل عدة توجهات؛ منها التوجهات اليمينية المحافظة التي كانت ضد نجيب محفوظ؛ والتي وصلت الأمر بها إلى إصدار قرار باعتقاله مرتين؛ مرة بسبب رواية ثرثرة فوق النيل، ومرة بسبب أولاد حارتنا، لكن هيكل كان يدافع عن نجيب محفوظ، وتكشف لنا في ثنايا الكتاب أشكالا من غيرة الأدباء، ومن الصراع حول القُرب من السلطة، ومظاهر معاداة هيكل بسبب قُربه من الرئيس، والتي وجدت في نشره الرواية فرصة لمهاجمته.

ونجد في الكتاب بحثاً عن مخطوطة الرواية بمائشبه التحقيق الاستقصائي، وكذلك ظروف حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل، وجدل المشايخ،

والأزهر معه وقصة نشر الرواية في بيروت، ومنعها في مصر، وفي الكتاب توثيق من الأرشيف والصحف للحياة اليومية والسياسية، وربطها بالمعركة حول الكتاب؛ فالسياسي يتداخل مع الأدبي بسلاسة، ويعود محمد شُعبير للأرشيف العميق؛ ليرسم صورةً عن حالة المجتمع، والأزهر، والأدباء؛ من خلال الموقف من الرواية، ولا يكتفي شُعبير بالتأريخ، ونقل المعلومات؛ بل يدقق في كثير من المعلومات التي ترد له، وينقد تلك المرويات التي حصل عليها، ويحاول أن يضبط سهو الذاكرة بكتابة تلتزم الدقة.

قد يختلف القارئ مع المقارنة التي قدّمها شُعبير بين نجيب محفوظ وسيد قطب، وفي الكتاب محاولة للردّ اتهام نجيب محفوظ بالجُبن السياسي، وذكر مضايقات السلطة له؛ وهو تحليلٌ مختلف للمصورة الشائعة عن نجيب محفوظ؛ الكتاب يستحق الحفاوة به؛ لأنه ممتع، ووراءه جهدٌ يستحق التقدير.

(٣٦) سالم بن لادن وعالم النفط والمال والطائرات

بين يديّ كتاب آل بن لادن وعالم النفط والمال والإرهاب؛ من تأليف ستيف كول، والكتاب ضخيم يقع في زهاء ثمان مائة صفحة، وملّيء بالمعلومات والتفاصيل الدقيقة، ولقد أحسنت الشبكة العربية للأبحاث والنشر إخراج هذا الكتاب في ترجمة جميلة، وطبعة أنيقة لا تسرد لنا سيرة أسامة بن لادن وحياته الدرامية فحسب؛ بل تُقدِّم رؤية أشمل لدور عائلة بن لادن في تاريخ السعودية. وفي طيّ قصة العائلة نرى تفاصيل تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث، وأحداث الطفرة النفطية، وحادثة جُهيّمان؛ فضلاً عن تفاعل عائلة بن لادن مع العائلة الحاكمة في المملكة العربية السعودية.

كنت أودُّ قراءة رواية شائقة، ثم أهداني صديقي كتاب آل بن لادن وتصفحته. ساعته قررتُ التخلي عن فكرة قراءة رواية والبحث عنها؛ لأن النص الذي بين يدي أفضل وأجمل من أي رواية؛ فهذه الوقائع تحكي قصة عن عالم الأعمال والسياسية، وهذا الكمُّ من التفاصيل التي نجح ستيف كول في جمعها أفضل من أي نصٍّ أدبيّ يحكي أحداثاً خيالية. العجيبُ أن الشخصية التي لفتت اهتمامي في الكتاب هي سالم بن لادن وليس أخاه أسامة. الفصول التي تستعرض حياة سالم بلغت ٢٢٨ صفحة. تخيلت هذه الصفحات كتاباً منفصلاً عن حياة سالم ومغامراته.

يمكن وضع هذا العنوان بجانب رفِّ كبير قدمته الشبكة العربية لرؤية أعمق لتاريخ المملكة العربية السعودية؛ فقد نشرت كتاب: الوهابية: بين الشرك وتصدع القبيلة، للدكتور خالد الدخيل، وكتاب: الجهاد في السعودية:

قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب للباحث توماس هيفهامر، ودراسة ستيفان لأكروا المميّزة عن الصحوة المعنونة: زمن الصحوة: الحركات الإسلامية في السعودية، وأيام مع جُهيمان لناصر الحزيمي؛ هذا بالإضافة لدراسات تهتم بالأنثروبولوجيا الثقافية، وحياة الصحراء ومروياتها التي كتبها الدكتور سعد الصويان، ودراسة لحياة النساء في السعودية في كتاب النساء والفضاءات العامة في السعودية، للكاتبة إميلي لورنار، وكتاب الحراك الشيعي في السعودية، وكتاب علماء الإسلام: تاريخ المؤسسة الدينية بالسعودية، وكتاب عبد العزيز الخضر: السعودية: سيرة دولة ومجتمع؛ الذي قدم فيه تاريخًا ثقافيًا للحياة الأدبية والفكرية، مع توضيحات لأهم المعارك التي خاضتها التيارات الفكرية المختلفة، وفي الكتاب تتبّع مميّز للأرشفيف الصحفي والكتابي لهذا الزمن؛ يصل لتتبع شرائط الكاسيت ومقولاتها التي كانت جزءًا من المعركة الفكرية في التسعينيات.

يسرد ستيف كول قصة حياة سالم بن لادن في فصلٍ بعنوان: «الابن الصاعد»، ويخبرنا عن شخصيته الودودة، وتمتّع بهيشاشة طفولية؛ سمحت له بفعل الأشياء الصادمة؛ فقد كان يخرق القواعد دون أن يشعر الآخرون بالضيق أو النفور منه. كان والده قد تمكن سابقًا من كسب ودّ العائلة المالكة بحضور المناسبات الدينية في مكة والمدينة، أو باصطحابهم في جولات في مواقع أعماله الإنشائية؛ إلا أن سالمًا اتبع نهجًا مختلفًا. لقد صادق الكثير من شباب العائلة الملكية؛ فكانوا يسافرون معه إلى الخارج، ويرتّب لهم رحلاتهم، واستمتع الأمراء بأحاديث سالم عن أوروبا، والسيارات السريعة، والطائرات الخاصة.

ينقل لنا الكتاب صورًا ولقطات من حياة سالم وصدافته القريبة من

الأمراء؛ نراه وهو يسهر في الصحراء حول النار، ويفكّ قيد الصقور، ويقوم برحلة صيد مع أميرين ذوي شأن من السديريين السبعة؛ كان أحدهما الأمير نايف الذي كان على وشك أن يصبح وزير الداخلية المهاب في الملكة، وينطلق المؤلف في الحديث عن سالم وهو في خيمة الأمير فهد؛ ولي العهد في ذلك الوقت، واستطاع سالم الحصول على إذن بشراء طيارة خاصة؛ إذ كان الملك فيصل أصدر أمرًا سابقًا بعدم السماح لأحد من عائلة بن لادن بالطيران بطائرة خاصة بعد وفاة والدهم. واشترى سالم أول طائرة له من طراز (MU2)، وكان سالم عادةً ما يتندّر بما قاله الملك فهد له بعد ذلك؛ إذ قال: «إنك لمجنون، وسوف تلقى حتفك يومًا ما في مغامرة من مغامراتك».

كان استمتاع سالم بمغامراته استمتاعًا شخصيًا خالصًا؛ إلا أنه وظّفه بدهاء ليفوز بالخطوة عند فهد وإخوته؛ لتوظيفها في شئون العمل. ومثلما يفعل مديرو المبيعات؛ أوكّل سالم لكل أخ من إخوته الأشقاء وغير الأشقاء أميرًا سعوديًّا ذا شأن، وكانت المهمة المنوطة بكلّ منهم إقامة علاقة شخصية مع الأمراء، والفوز بعقود المقاولات.

كانت رحلات التخميم الصحراوية فرصةً لتحصيل الفواتير التي مضى موعد استحقاقها. كان سالم يجلس بجانب فهد، ويتحدث بودّ ولطف عما على الدولة من ديون له؛ إلى أن يصل المحاسب الملكي ومعه شيك بالمبلغ المطلوب. ويتذكر أحد مساعدي سالم أنه قال عندما عاد من خيمة فهد ذات مرة وفي يده شيك يلوح به في الهواء: لقد حصلنا على مستحقّاتنا يا رفاق. لنرحل من هنا؛ فحزموا أمتعتهم، وفكوا خيامهم، ورحلوا على الفور.

بحلول أواخر السبعينيات، كان سالم قد حصل على المزيد من العقود التي كانت كافيةً للشرع في إضافة طائرات من طراز ليرجت، وطائرات

رجال أعمال فاخرة إلى أسطوله الخاص. واستخدم سالم هذه الطائرات لتعزيز علاقاته مع العائلة المالكة؛ فإذا اتصل أمير من الأمراء، وطلب استعارة إحدى طائرات سالم الليرجت، لم يكن يشعر أن أمامه أي خيار سوى إرسال الطائرة للأمير.

في الكتاب حديثٌ عن العقبات التي واجهت سالم في بناء إمبراطورية أسرة بن لادن؛ مثل عدم توفر السيولة النقدية اللازمة؛ الذي تغلب عليه عن طريق دعم صديقه المصرفي الحضرمي سالم بن محفوظ؛ ومثل صداقته مع ابنه خالد بن محفوظ؛ وخالد هو من مؤسسي البنك الأهلي التجاري. وشخصية خالد تتشعّب بالهدوء مقارنةً بسالم؛ إلا أن صداقتهما توطدت بسرعة، وينقل ستيف كول قصصًا كثيرة عن حياة خالد بن محفوظ. وخلال فترة السبعينيات كان الرجلان في طور محاولة إثبات نجاحيهما كمسؤولين تنفيذيين شائين؛ كلٌ في مجاله. تشارك الاهتمام بالطائرات الخاصة، وكان كلٌ منهما يملك أسطولاً صغيراً من الطائرات الخاصة في السنوات الأولى للطفرة النفطية.

يتتبع ستيف كول حياة سالم بن لادن، ويعتمد على عشرات المصادر؛ من ضمنها مقابلات مع الطيارين المقربين منه، ويحكي عن سفره الدائم للقاهرة، ورعايته أخته غير الشقيقة رندا؛ التي كانت من أمٍ مصرية. وبحلول أواخر السبعينيات، كان سالم يعرف عن القاهرة ما لا يعرفه أكثر متعهدي البناء والتطوير بها؛ لأنه كان يقضي الساعات الطويلة مُحلّقاً فوق سماءها بطائراته الخاصة. كان ولعه بالطيران هو العشق الوحيد في حياته الذي لم يسأم منه مطلقاً، ولازمه إلى وفاته. وفي ظل حماسه للطيران تحول آل بن لادن تدريجياً إلى عائلة من الطيارين. تُوضّح سجلات الطيران أن ما لا يقل

عن سبعة من إخوة سالم تلقوا دروسًا على متن طائراته الخاصة، لم يكن أسامة واحدًا من هؤلاء؛ لكن أسامة اشترى طائرات خاصة لاحقًا؛ منها واحدة وهو في السودان. لكن العجيب أن يكون الولع بالطيران أقرب إلى أن يكون جينًا من جينات الأسرة، وستكون أسطورة أسامة متعلقة بطائرتين أيضًا خرجتا عن مساريهما، وغيرتا أحداث المنطقة والعالم، ومن لم يسمع بأحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول.

كان سالم يتنقل بين المكالمات الهاتفية بين صديقاته وهو يفقد طائراته الخاصة، ويدير إمبراطوريته المالية أيضًا من الجو؛ من خلال استخدام أحدث أجهزة الاتصالات التي كلفته ٣٠ ألف دولار للطائرة الواحدة. ويهاتف أخته المفضلة رندا وهي في مونتريال، ويقول لها: «رندا، إنني أحلق أعلى جبال الألب على ارتفاع ١٢ ألف قدم؛ أتصدقين ما أقول؟» أحيانًا يبث عزفه على الهارمونيكا عبر الراديو لتسلية المراقبين الجويين، وعندما يقترب من المطارات يمازح مراقبي أبراج التحكم، ويصبح المراقبون الجويون في بيروت أو القاهرة مرحبين به: «أهلاً شيخ سالم».

لعب سالم دور المتحدث الرسمي باسم العائلة، وأصبح صانع صفقاتها؛ فهو وسيط مثالي يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وصحته ممتعة. وشخصيته مرنة ولديه قدرة على التنقل بسهولة من بيئة إلى أخرى، وكانت الشركات الأوروبية والأمريكية تسعى لمقابلته ويتوافدون لزيارته؛ للإفادة من الطفرة النفطية، والحصول على عقود شراكات وأعمال في المملكة. وأكثر عائدات مؤسسة محمد بن لادن كانت من المشروعات الضخمة في البنية التحتية. لم يكن سالم يملك خبرة في الأمور الهندسية؛ لذلك أمر اثنين من إخوته الأشقاء: بكرًا وغالبًا؛ بأن يحصلوا على دورات في الهندسة المدنية.

توجه سالم إلى أمريكا، وصنع علاقات تجارية هناك؛ خاصةً فيما يتعلق بشراء الطائرات الخاصة، والسيارات الفخمة، والسلع الاستهلاكية للعائلة المالكة. اشترى سالم سيارات كاديلاك للعائلة المالكة؛ بعد أن أصدر أمرًا بجعلها مُصَفَّحة لمقاومة الطلقات النارية، وجَهَّز قصرًا في مدينة بنما؛ لدعوة الملك فهد. وهبطت طائرة الملك البوينغ ٧٠٧ في مطار مدينة بنما، وكانت أكبر طائرة تصل إلى أرض مطار المدينة.

كان سالم يستمتع بالسعادة البالغة التي يُبديها الأمريكيون والأوروبيون؛ خاصةً النساء؛ عندما يعطيهم مبالغ كبيرة على نحوٍ غير متوقع. وبدأ أن سالمًا يستمتع بهذا النوع من العلاقات الإنسانية أكثر من استمتاعه ببعض الرفاهيات التي كان يمكن الحصول عليها بأمواله.

فكَّر سالم أن أحد المجالات التجارية التي يودُّ المشاركة فيها مدُّ شبكة الهواتف؛ فكما سيُدُّ والده الطرق؛ فهو يودُّ مدُّ شبكة الهواتف في المملكة. ويتتبع الكتاب بالتفاصيل الدقيقة قصص هذه الصفقات الضخمة، والصعوبات التي كانت تواجه مؤسسة محمد بن لادن؛ خصوصًا في مسائل السيولة المالية. اعتاد مساعد سالم أن يسمع منه عبارة كيف أعثرُ على سيولة تُقدَّر بمئة مليون دولار؟ إنني في حاجة إليها بحلول الغد. وعندما زار وفدٌ من شركة كاتربيلر، وأحصوا المعدات التي تملكها المؤسسة من هذه الشركة، أبلغوا سالمًا أن مؤسسة بن لادن هي أكبر شركة تمتلك معدات كاتربيلر في العالم، وعرضوا عليه أن يكون وكيلهم في السعودية؛ إلا أن سالمًا لم يُبدِ اهتمامًا بالأمر؛ فهو مشغول بالإنشاءات، ولم يكن يريد أن يكون وكيلًا لبيع منتجات شركة أخرى.

زادت أهمية سالم مع حادثة جُهِيمان. مع تدفق رجال جُهِيمان في السرايب

والأنفاق؛ برزت الأهمية القصوى للمخططات الهندسية والمعمارية التي يمتلكها أبناء محمد بن لادن للحرم المكي. أحضر العاملون في شركة بن لادن مُعدّات ثقب لحفر فتحات في أرضية المسجد لحصار جماعة جُهِيمان، وفي خِضمّ هذه الأحداث تفتّق ذهنُ سالم في يوم ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٩ -أي بعد أسبوعٍ واحدٍ من دخول جُهِيمان الحرم- عن إنشاء حسابات في ملاذاتٍ خارجيّة في السر؛ تحسبًا لأي تغييرات سياسية قد تخسر فيها مؤسسته، وكان رأسُ مال الشركة التي تم تسجيلها في بنما ١٠ ملايين دولار، وقامت الأسرة بنفس التصرف عند غزو صدام للعراق في ١٩٩٠؛ فحولت مبالغ كبيرة للخارج. لم يكتف سالم بتحويل الأموال؛ بل اشترى قطعة أرضٍ ضخمة في مدينة أورلاندو في فلوريدا؛ مقابل ٩, ١ مليون دولار.

يخبرنا الكتاب عن الوضع المالي لأسامة بن لادن في مراحل حياته؛ ففي بداية الثمانينيات ربما كان دخل أسامة بن لادن الصافي من نصيبه في شركات بن لادن يبلغ ١٥٠ ألف دولار سنويًا، ويحدّثنا عن مقابلة سالم مع دونالد ترامب مرّةً واحدة لم يتج عنها أي صفقات تجارية. نرى سالمًا المفاوض المهم في المملكة يتحول خارجها إلى سمسار يقوم بالعمليات الكبرى؛ مثل ترتيبه للحصول على طائرة للملك فهد بعد أن وجد أن التصميمات التي عرضتها بوينغ على الملك لم تُعجبه. سافر سالم إلى مدينة ساس، وقابل أسطورة الطيران الأمريكي دي هاورد، واتفق معه على أن يقوم بالتعديلات على طائرة بوينغ التي كلفت ٩٢ مليون دولار، وفي الكتاب تفاصيل التعديلات التي أضافها دي هاورد، وكيف جعلها تحفة فنيّة تحتوي على جميع وسائل الرفاهية الممكنة.

عندما انتقل أسامة مع عائلته إلى بيشاور، طلب طلبًا جديدًا من سالم. كان الطلب هو الحاجة إلى السلاح؛ وبالتحديد الصواريخ المحمولة المضادة للطائرات، واستطاع سالم، عن طريق صديقه الألماني توماس ديتريش، الحصول على هذه الصواريخ من أمريكا الجنوبية.

لا يترك ستيف كول أيَّ تفصيلٍ صغيرٍ عن حياة سالم؛ عن أصدقائه، وعلاقاته النسائية، وقصص زيجاته، ويتداخل في هذه القصص الحديث عن التجارة والصفقات والسياسة. ينتهي الحديث عن سالم بتحقيق نبوءة فهد بأن مغامرة ستقضي على حياة سالم؛ فلقد سقط بطائرته في مطار الأحلام كيني هوك بالولايات المتحدة. وكما توفي والده محمد بن لادن في حادثة طائرة، توفي سالم الميته نفسها. يستمر ستيف كول في جمع كل المعلومات الممكنة عن حياة الأسرة ووضعها المالي والتجاري. اخترنا بعض اللمحات عن حياة سالم، لكن الكتاب مليء بما يشبه قصصًا قصيرة عن أفراد هذه العائلة. ٨٠٠ صفحة من التحقيق الصحفي الاستقصائي المميز قدمها لنا ستيف كول، لا نعرف عائلة بن لادن؛ فحسب بل تاريخ السعودية الحديث والمعاصر من خلال التأريخ لإحدى العائلات البارزة فيها.

(٣٧) أحمد حسين: البدايات والنهايات

كتب أحمد حسين مذكراته بوصفه فردًا عاديًا يبحث عن سيرته بين هؤلاء الأفراد، وقد جذَّهم اللبنة التي يقوم بها أي بناء، ووجد في تسجيل قصته صفحة أو وجهًا من وجوه الحياة الاجتماعية والتاريخية لمصر في فترة ما من تاريخها.

ولقد عاش أحمد حسين بروح الفنان المناضل؛ تورَّط في السياسة، لكنها قوت لديه حاسة الفضيلة الخلقية؛ بأن يقاوم الفساد، وأن ينشد عالمًا أفضل من العالم الذي وُلد فيه؛ فلقد ولد عام ١٩١٠، تحت قبضة الإنجليز وحكومات القصر، وتفتَّح إدراكه على ثورة ١٩١٩ التي كانت آثارها على المجتمع ونتائجها فيه ما زالت حاضرة، وشارك مع رهط من الشباب المصريين في العمل السياسي منذ بداية الثلاثينيات بـ «مشروع القرش» مع فتحي رضوان صديقه المقرب؛ فقد بدأت صداقتهم القديمة منذ عهد المدرسة الثانوية، ولم يكن أحمد حسين يستطيع أن يتعد عن فتحي رضوان؛ حتى في الإجازات المدرسية؛ فيتواصلون بالرسائل، ويتشاركون عناوين الكتب والروايات، وأخبار السياسة والتمثيل. هذه الصداقة وصفها أحمد حسين بأنها محور حياته العاطفية كلها، وامتدت هذه الصداقة إلى المشاركة في العمل الحزبي عن طريق «حزب مصر الفتاة». والجامع بين الرجلين هو حبُّ النضال، ودفاعهم عن المجتمع بكل ما أوتيا من قوة؛ خصوصًا مع حملهم تراث الحزب الوطني، وموقف مصطفى كامل من الإنجليز دون ميوعة الوفد.

حاولت هذه المجموعة جمع التبرعات مع رفاقه لبناء أحد المصانع

برأس مالٍ وطنيٍّ بعيدٍ عن المحتل، وتشكُّل ما يعرف بحزب مصر الفتاة، وأصدر حسين جريدة الصرخة في الثلاثينيات.

كان الحزب راديكاليًا في مطالبه؛ يقف على يسار حزب الوفد المصري؛ فطالب بإلغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة، وتمصير الشركات الأجنبية، وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الحياة التجارية، مع القضاء على أمية الفلاح المصري وجهله، وكفالة الرخاء له؛ هذه بعض سمات المرحلة الأولى للحزب. أما المرحلة الثانية؛ فتبدأ مع عام ١٩٣٦، وصعد فيها التوجه الإسلامي لدى الحزب إلى ما يُعتبر قمة ما وصل إليه في الدعوة السياسية الدينية، والبعض يرى في هذا التوجه ردّة فعلٍ على النشاط التبشيري، وأحداث فلسطين، والسياسة الاستعمارية، وتوطين اليهود. كانت تجربة الحزب قاصرة، وفيها ما فيها من التقلقل السياسي، وعدم الثبات الفكري مع الاستناد إلى الزعامة الفردية لشخص أحمد حسين. صدرت الأحكام العرفية، ووجدت السلطات في المؤتمرات الصاخبة، والمُخطب النارية صدادًا يجب التخلُّص منه؛ فصار مُطارَدًا من الشرطة في جميع الأوقات، وسافر إلى بريطانيا بعد اغتيال حسن البنا، ومقتل النفراسي؛ هربًا من بطش حكومة الملك.

كان حسين ضيفًا دائمًا على المعتقلات والسجون، وصوتًا صارخًا في وجه السلطة الملكية والإنجليز، وعندما احترقت القاهرة في ٢٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٢، اتجهت جميع الأصابع إلى أحمد حسين، وأصبحت الفرصة مواتية للحكومة؛ للتخلص منه على أعواد المشاتق، واستمات المحامون والرأي العام؛ ليفلتوا رقبة الرجل من جبل المشنقة. سلّم نفسه، ومنعوا عنه الكتب والقراءة؛ فأضرب عن الطعام حتى عاد له حق المطالعة، وخشي أن

يقتل غدراً في أثناء سجنه؛ فكان يصلي جالساً؛ حتى لا تظهر رأسه من نافذة الزنزانة. جمعت عليه الحكومة خمس قضايا قديمة، بالإضافة إلى قضية حريق القاهرة؛ فسقطت هذه الأعباء النفسية عليه، وقد سجّل معاناته في هذا السجن في مذكراته، وذكر كيف ساعدته الكتب فقال: «والله وحده يعلم كيف كان يمكن أن أقطع وقت الفراغ؛ لو لم تكن رواية تولستوى الحرب والسلام هي التي أنكبُّ على مطالعتها؛ كلما خلوتُ إلى نفسي؛ فتشغلني عما يُحيط بي من هموم. كانت الصلاة كالعادة هي مفرّعي؛ وخاصة صلاة الفجر؛ حيث أصلي وأدعو في هدوء الليل ربي وخالقي أن يبدّد من حولي الظلمات والغواشي، وأن ينجيني ويخلصني من الكيد الذي يُكاد لي وإخواني».

ولم ينقذه من هذا المصير إلا وقوع انقلاب يوليو ١٩٥٢. توقّف النشاط السياسي لأحمد حسين عام ١٩٥٣، وكانت سنّه لا تتجاوز ٤٢ عاماً؛ قضى أكثر من نصفها فاعلاً اجتماعياً بنشاط لا يكل، ومناضلاً ضد الإنجليز ومشاركاً في العمليات الفدائية وحرب عام ١٩٤٨. أكمل حياته كاتباً. اعتُقل أحمد حسين في عهد ثورة يوليو عدّة مرات، واضطر إلى الهرب خارج مصر، ولما عاد كان قد تاب عن السياسة توبةً نصوحاً، وانصرف بكلّيته إلى الاهتمامات الفكرية، ثم سجّل سيرته في ثلاثة بعنوان: أزهار، الدكتور خالد، واحترقت القاهرة.

يبرز سؤال عن دور حركة يوليو في انكسار الرجل؛ هل كان هذا الأمر شأنًا خاصاً بأحمد حسين، أم أن المناخ الذي ساد الوضع السياسي في مصر بعد انقلاب يوليو، لم يعد يقبل بالاختلاف، أو وجود رواية أخرى مختلفة عن رواية الضباط؟ كيف أحوّلت هذه الحركة الرجل المناضل إلى المعاش المُبكر عن طريق القمع؛ وهو لا يزال في العقد الرابع من عمره؟ وكيف

عطلت ثورة يوليو طاقاتٍ لسياسيين ومثقفين واعددين؛ لو أُتيحت لهم الفرصة دون آلة القمع؛ لكان لحياة هذا المجتمع وحيويته شأنٌ آخر.

مشهدٌ من النهايات

من المشاهد التي نأسر الإنسان بداية الرجل ونهايته؛ ففي صورة ناصعة ظلت في ذاكرة الفتى وديع فلسطين؛ يقف فوق الكرسي؛ يُلقي خطبةً والناس من حوله مُردّدة مُعجبة بتشجيع من أخيه؛ لكي يخطب أمام الناس، ظلّ هذا الفتى الخطيب يتذكر هذه الصورة من طفولته، لتستمر معه خطيبًا في المحافل المختلفة ضد الإنجليز والملك.

وفي زيارة لوديع فلسطين مع أنور الجندي لأحمد حسين بعد أن مرض في نهاية حياته في بيته بجزيرة الروضة - استقبلهم أحمد حسين وهو جالسٌ على كرسيه المتحرك، وقد أطلق لحيته بغير تشذيب، وقامت ابنته بدور المترجم لما كان يصدر منه من همهمات لا تُبين؛ في حين اغرورقت عيناه بالدموع وهو يصافح صديقين قديمين. وهنا تذكر وديع مواقف أحمد حسين الخطابية التي كانت تهزّ المنابر هزًّا عندما كان حزبه يحتفل بالمناسبات المختلفة، ورثى له وديع، وقد أصبح أحمد حسين عاجزًا عن الكلام، وإن كان ذهنه شديد اليقظة. خرج وديع وقد قرّر ألا يزور أحمد حسين مرةً أخرى؛ لأن زيارته في حالته المرضية أورثته ألمًا مُضًا؛ فهو يألم له أنه أصبح بلا حولٍ ولا طول. لكن الأقدار أرخت له في العمر؛ فتوفي حسين في سبتمبر/ أيلول ١٩٨٢؛ تلك الروح التي كان الجلادون يدبرون لخنقها بحبل المشنقة عام ١٩٥٢، قبل ثلاثين عامًا من وفاته! فماتوا جميعًا؛ أما هو فطال عمره، وتوفي عن واحدٍ وسبعين عامًا. تبدو قصة أحمد حسين مثالًا على البدايات

والنهايات، وفي كتاب وديع فلسطين ذخيرةً من التجارب والحكايات عن الأُفول بعد المجد، وحكايات الشجن في مصائر الناس، وتعاقب الزمن.

تعرض أحمد حسين لصنوف التضيق على صحيفته، وعرض عليه فؤاد سراج الدين وزير الداخلية رشوةً / مبلغاً من المال؛ ليكفّ عن حملته ضد الملك فرفضها، وكتب يشنع على حكم فؤاد سراج الدين؛ هل كان فؤاد يتخيل أن الحياة قد تمتدُّ به من وزارة الداخلية إلى السجن في نهاية عهد أنور السادات مع اعتقالات سبتمبر / أيلول ١٩٨١؟

مشهد من ضمن مشاهد غرور الإنسان، واطمئنانه على حركة التاريخ الخادعة؛ تبدو نهاية فؤاد غير متوقعة؛ كما كانت نهاية حسين غير متوقعة، وتبدو ثقة الإنسان بإمكانياته مائعةً له أن يفكر في تبدُّل الأحوال، في السياسة كما الأدب والفن؛ لا شيء يثبت على حاله، ومن الفطنة أن نتعلم من مشاهد كثيرة أن نواضع بعض الشيء. عندما حكيت لصديقي عن فكرة البدايات والنهايات أمدني بمشهدٍ آخر؛ لقطة في رواية السكرية لنجيب محفوظ؛ حينما تخرج أمينة دون أن تهتم كثيراً بإذن السيد أحمد عبد الجواد لها؛ يجلس السيد أحمد عبد الجواد شاعراً بالعجز؛ فبعد أن عاش الرجل مرهوب الجانب، ينتهي عمره مريضاً؛ ترى أمينة عجزه ولا تأبه به، قال لي صديقي: «لقد أجهشت بالبكاء؛ لقد استطاع نجيب أن يمرر أمامي شريط الزمن، ويذكرني بالدنيا أو متاع الغرور».

(٣٨) جيش الشرق:

حياة الجنود الفرنسيين في شوارع المحروسة

لم تفقد حملة نابليون على الشرق الأوسط سحرها ولا شعبيتها على الرغم من فشلها عسكرياً؛ خصوصاً في دورها الأساسي؛ كإحدى محطات لقاء الشرق والغرب، ووصول المدفع إلى البلاد العربية، وإعادة إحياء الحضارة الفرعونية القديمة، وقراءتها من جديد بعد فك رموز حجر رشيد. لقد أراد نابليون من هذه الحملة أن تكون فرصة لتكوين مستعمرات جديدة؛ عوضاً عن المستعمرات التي فقدتها في جزر الهند الغربية، وأن تصبح مصر فرصة لفتح أسواق جديدة للصادرات الفرنسية؛ والأهم توفير موطئ قدم لمهاجمة الهند؛ كبرى المستعمرات البريطانية.

في هذا السياق؛ طالعْتُ كتاب: جيش الشرق: الجنود الفرنسيون في مصر ١٧٩٨-١٨٠١؛ من تأليف تيري كرودي، ونقله للعربية د. أحمد العدوي، وصدر عن مدارات للأبحاث والنشر. يقصُّ علينا المترجم في مقدمته للكتاب شَغَفَهُ بحكايات الحملة الفرنسية منذ طفولته، وكيف أن أحداث الحملة كانت من أهم أحداث التاريخ التي تركت فيه أثراً منذ الطفولة حتى الآن؛ ففي الصيف، كان العدوي يزور قريته بني عدي في محافظة أسيوط، ويلاحظ مقابر منفصلة على زمام القرية، وتثير دهشته العناية التي كان أهل القرية يحيطون بها هذه المقابر. وعندما سأل والده عرف أن هؤلاء هم الشهداء من أهل القرية الذين سقطوا، في أثناء مقاومة الجنرال الفرنسي دافو؛ حيث نصب الجنرال مدافعه فوق تلة عالية حول القرية، وصَبَّ جَمَمَ المدافع

على أهلها. وقد أخذت المترجم حمة الشباب، وأخذ على نفسه عهدًا أمام قبور هؤلاء الشهداء بتأليف كتاب عن الحملة الفرنسية يهديه لأرواحهم؛ وفي ترجمته لهذا الكتاب محاولة للوفاء بعهده القديم.

يحتوي الكتاب على شهادات حيّة لرجال الحملة (عسكريين ومدنيين)، ونلاحظ أن المؤرخ في هذا الكتاب سيلعب دورًا لم يعتدّه المؤرخون ولا يفضلونه؛ سيتوارى تمامًا، وسينكر ذاته، ويفسح المجال لشهود العيان؛ ليرووا تلك الأحداث التي شاركوا في صنعها بأنفسهم.

بلغ عديد جيش نابليون ٣٤ ألف جنديّ، وتمت تغطية تكاليف الحملة من المال المسلوب من سويسرا. وغطّت شهادات الكتّاب جوانب كثيرة من أفكار الجنود وهواجسهم؛ منذ انضمامهم للحملة عبر موانئ تولوز وجنوة؛ إذ لم يصرح نابليون بوجهة الحملة، وبدأت التخمينات في صفوف الجنود، ودار الكثير من اللغط؛ هل هي البرتغال أم مصر؟ وتداول بعض الجنود الشائعات بأن الحملة ذاهبة إلى صقلية أو مالطا؛ حتى علماء الحملة الفرنسية لم يعرفوا وجهة الحملة ومسارها، ومن رجحوا كفة مصر؛ فإنما فعلوا ذلك لأن قادة الحملة قد استولوا على كل الكتب والخرائط عن مصر وسوريا.

ومن الأمور التي يُشير إليها الكتاب قلة السفن التي تم تجهيزها لحمل الخيول؛ مما نتج عنه قلة شحن الخيول في الحملة. وقد حمل الفرسان مستلزمات للخيول على السفن بدون جياد؛ على أمل أن يغنموا خيولاً في معاركهم لاحقاً. وينقل الكتاب معاناة بعض الجنود من دوار البحر، وتعرف على نوع الطعام في سفن الحملة، ونرى سوء تخزين الطعام وفساده، ويصف أحد الجنود حالتهم بأنهم قد حُشروا حشراً كالأنشوجة في البرميل؛ فلك أن تتخيل سفينة المشرق أحد أكبر سفن الحملة تحمل ألفي جندي، وألفاً من

طاقم البحرية، وأكثر من مئتين آخرين من الجنرالات والقادة والإداريين؛ فضلاً عن ١٣٢ مدفعاً ثقيلًا.

أما المقصورات في السفن؛ فكانت ضيقة مثيرة للاشمئزاز، وقد يجتمع فيها عشرون رجلاً بين سَكَّيرٍ ومريض، أما الأواني الفخَّارية؛ فهي قدرة لا تخلو من أثر شحوم اللحوم الفاسدة، مع رائحة كريهة من أثر ترسبات مرق الشحوم القديمة، وقاتل لا يهدأ من جانب الشُّوس على الخضروات؛ فضلاً عن المياه العكرة كريهة الرائحة، والبيض الفاسد، والكعك المغبر. وبالإضافة لهذه المعاناة مع الطعام؛ كان هناك القلق الدائم من هجوم نلسون أمير البحر الإنجليزي على سفن الحملة الفرنسية.

وصل الجنود إلى مصر، وكانت الانطباعات الأولى مخيبة للآمال تمامًا؛ فليست هناك شجرة واحدة، أو آثار عمران محسوس، وعبث أحد الجنود وهو يشير إلى الصحراء: انظر هناك؛ هذه هي الهكتارات الست التي وعدنا بها نابليون. وشعر أحد الجنود الآخرين بالإحباط؛ فليس ثمَّ شيء يؤكل، ولا يعرفون لغة أهل البلد. ومع الوقت تبدَّد أيُّ أملٍ في العودة إلى فرنسا بعد شهرٍ واحد من الوصول إلى مصر، بعد أن نجح الأسطول الإنجليزي في تدمير السفن الفرنسية في أبي قير، وفي لحظة انفجار سفينة المشرق كانت الإسكندرية مضاءة في الليل بفعل تفجُّر الذخائر؛ وكأنهم في وَضَح النهار. وساءت المعنويات، ولم يكن استهلاًلاً غيرَ موفَّقٍ فحسب؛ ولكنه كان أمرًا يُنذرُ بشيء طالعٍ عظيم؛ كما عبَّرَ أحد الجنود.

بحث الجنودُ الفرنسيون عن الطعام كلما اقتربوا من المدن المصرية، ويحكي أحد الجنود عن ابتهاج بعض الأفراد من المصريين بالحصول على أضرار المعاطف الفرنسية، وجرب الجنود الفرنسيون الموسرون اقتناء العبيد،

وحاز العديد من الجنود الفرنسيين غنائم وفيرة بعد معركة الأهرام (إمبابة) التي سرعان ما أنفقوها ببذخ، واشترى معظمهم الحمار الريفي الصغير (الجحش)، وينقل أحد الجنود مشهد تسابق الفرسان الفرنسيين على الحمير في الحواربي الضيقة والمتعرجة، ونقل الجبرتي هذا المشهد بقوله: «كان الكثير من الفرنسيين يظلُّ طوالَ النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أن يجري به مسرعًا في الشارع».

وتصف لنا بعض الشهادات في الكتاب مشاعر عدَّة جنودٍ فرنسيين في الحمامات العامة، وانبهارهم بالخدمة فيها؛ لقد خرج أحد الجنود من هذه الحمامات قائلاً: «لقد انتابني شعورٌ جارفٌ بالليونة والخفة؛ تمامًا كطفلٍ حديث الولادة يتنَّسَّم نسمات الحياة للمرة الأولى، وعاد الجندي لهذه التجربة عدَّة مرات بعد ذلك أحيانًا بمفرده، أو بصحبة أصدقاء له».

لم يكتف بذلك الفرنسيون. لقد تكيفوا مع الطرق المصرية الأخرى؛ مثل شرب القهوة القوية، وتدخين التبغ عبر النارجيلة، وعانى الفرنسيون من افتقاد الخمر في القاهرة. وابتكر بعضُ الجنود شراءًا مصنوعًا من الحشيش، وقاموا بتدخين الحشيش، وأنشأ مقالٍ فرنسي مصنَّعًا لصناعة البراندي وعرق القصب، ومع استمرار الطلب على الحشيش، أصدرت القيادة الفرنسية في عام ١٨٠٠ قرارًا بحظر تدخين بذور القنب الهندي؛ الحشيش.

يصف الكتاب معاناة جنود الحملة الفرنسية مع الضجر والملل والأوقات الطويلة، واختلاف المناخ ومتاعب الحرارة الشديدة، وخوفهم من التنزه؛ مخافة هجوم العربان عليهم، ولم يكن لديهم أنشطة كثيرة إلا لعب القمار والسَّمر، وقامت علاقات بين الجنود الفرنسيين وبعض العاهرات المحليات، وتعجب الجنود من ارتداء النساء للبرقع، ووصف بعضهم نظام الحرملك.

يشير الكتابُ إلى الانضباط العسكري الصارم بين صفوف القوات الفرنسية؛ مثل فرض عقوبة الإعدام على نطاقٍ واسع من الجرائم، وتم تحذير الجنود من بيع الزي الرسمي للجيش، أو بيع الأسلحة لسكان الإسكندرية، ويصف الكتاب نظام العدالة والعقاب في جيش الفرنسيين، ولا يكفي بذلك؛ بل يرصد معاناة الجنود مع الحشرات؛ مثل البراغيث، والناموس، ولدغات العقارب. ومع الحشرات جاءت الأمراض؛ خصوصًا الطاعون الدُّبلي.

وينقل لنا الكاتب شكوى علماء الحملة من لا مبالاة الجنود الفرنسيين بالاكشافات العلمية؛ فقد تخيلوا أن مراد بك أحد كبار قادة المماليك يملك جملاً أبيض مُحَمَّلاً بالذهب والجواهر، ولم يكن شيءٌ يشغلهم إلا الحديث عن مراد بك وجمَلِه المزعوم.

يستمر الكتاب في التقاط تفاصيل الحياة اليومية للجنود؛ مثل استبدالهم الخيول بركوب الجمال، وارتدائهم ملابس محلية تُناسب حرارة مصر، ويشرح الكتاب اختلاف طريقة التشكيلات القتالية بين الفرنسيين، وبين المماليك، ونقرأ شهادات بعض الجنود عن شجاعة المماليك، ويشرح الكاتب تقنيات الحرب الجديدة التي استخدمها الفرنسيون، ثم يصل بنا إلى الانسحاب الفرنسي المُذَلَّ أمام أسوار عكا؛ الذي لا يماثله إلا الانسحاب الفرنسي من موسكو ١٨١٢، ويناقش الكتاب مدى مسئولية نابليون في ترك مرضى الطاعون ليفترسهم الموت؛ بل أمره بتسميم الجنود المرضى؛ وهي التهمة التي حاول أن يدافع فيها عن نفسه في مذكراته.

يتضح لنا عبر الشهادات كيف انهارت سمعة نابليون بين الجنود؛ فلم يعد ذلك القائد الملهم الذي لا يُقهر بعد فشله في اقتحام عكا، وسوء إدارة الحصار، ولا مبالاته بالجزْحى من جنوده، ثم عودته سرّاً إلى فرنسا، تاركاً

كليبر ليقود الحملة خلفه بدون أسطولٍ فرنسي بعد أن أغرقه الإنجليز في أبي قير. لقد فقد جيش نابليون ثلث رجاله تقريباً؛ أي ما يعادل ١٥ ألف رجل؛ بين قتلٍ في المعارك، وضحية للأمراض والأوبئة، ولقد رأينا في الكتاب كيف عانى الجنود من الظروف القاسية في مصر وفلسطين؛ بسبب الحرارة الشديدة والعطش وتفتّس الطاعون الذُّبلي؛ الذي اجتث الكثيرين دون تمييز.

تبقى لنا ملحوظة عن أن هذا الكتاب يقربنا من حقّ دراسة حياة الجنود والأفراد العاديين في الحروب، وهذا النمط من الكتابة لدينا نماذج متفرقة تُعبّر عنه مثل كل رجال الباشا عن جيش محمد علي باشا، للمؤرخ خالد فهمي الذي اعتنى بحياة الأنفار والجنود في جيش الوالي. وهناك شهادة الجندي إحسان الترجمان من فلسطين في الحرب العالمية الأولى في كتاب عام الجراد، ويمكن مقارنة تفاصيل همومه وأفكاره بتصورات قائده جمال باشا التي عبّر عنها في مذكراته.

وهناك مذكرات عبد الله دبوس الضابط البيروتي في الجيش العثماني، وهناك مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس لأحمد حجّي، أو تجربة الأسر لدى الإسرائيليين التي عبّر عنها فؤاد حجازي في كتابه الأسرى بقميّمون المتاريس، والرواية التي كتبها محمد حسين يونس خطوات على الأرض المحبوسة؛ التي تصف تجربة الأسر ثمانية أشهر في سجن عتليت في إسرائيل؛ بالإضافة للدراسات التي اعتنت بتتبع تفاصيل حياة الجنود؛ مثل كتاب الحرب العالمية الأولى لنيل هايمان؛ الذي اعتنى فيه كاتبه بدراسة حياة الجنود، ونمط الحياة في الخنادق، والطعام في الحرب، ودراسة تجربة التمريض، ومشاركة النساء في الحرب العالمية الأولى، وكيف كانت الحياة

في ٥٢ شهرًا في الحرب العالمية الأولى، وغيرها من الزوايا التي تنظر لحياة الجندي العادي، وتعتني بقصته وتحاول تخيل نفسيته في هذه الصراعات. ولدينا كتاب حكاية الجند: الحرب والذاكرة والمذكرات في القرن العشرين لصموئيل هاينز؛ الذي يُصنّف كأقرب دراسة في أدب الفضاء، وتتبع مآسي الجنود في الحروب، والكتاب يبحث في معنى أن يجد المرء نفسه في الخطوط الأمامية مشاركًا في القتال وضحية له. ويجد هاينز أن أفضل وسيلة لبلوغ هذه المعرفة الخاصة هي دراسة المدونات الشخصية للجند المشاركين في القتال.

وبالطبع يمثل كتاب تيري كرودي الذي عرضنا له نموذجًا لهذا الصنف من الكتب، وقد لا يكون القارئ العربي حريصًا كلَّ الحرص على رفاهة الجنود المحتلين لمصر؛ غير أن الكتاب يحكي لنا بطريقة غير مباشرة طريقة الحياة في مصر في ذلك الزمن؛ من خلال انخراط جنود الحملة الفرنسية في هذه البيئة.

(٣٩) القافلة: حكاية أول العرب الأفغان

عبد الله عزام

أُمسيتي اليوم مع كتاب: القافلة: عبد الله عزام وصعود الجهاد العالمي للكاتب توماس هيغهامر؛ الذي سبق وأصدر: الجهاد في السعودية. صدر الكتاب وترجمة مميزة لعبيدة عامر. يقدم المؤلف في هذا الكتاب سيرة مُعمّقة لعبد الله عزام؛ الشيخ الفلسطيني الذي قاد حشد المقاتلين العرب إلى أفغانستان بنهاية الثمانينيات، ولعب دورًا أساسيًا في تحويل الحركة الجهادية إلى حركة عالمية.

يحكي المؤلف في بداية الكتاب عن مقابله مع حذيفة؛ أكبر أبناء عبد الله عزام الذين ما زالوا على قيد الحياة، لقد كان هذا في أيلول/سبتمبر لعام ٢٠٠٦؛ حين ذهب المؤلف لمقابلة حذيفة من أجل أطروحة الدكتوراه التي يعدّها عن الجهاد في السعودية، القصة التي كان والده عاملاً داعماً مُهمّاً بها. أعطى حذيفة إلى توماس هيغهامر المعطف المخضّب بالدم قائلًا: «شُمّه! هل تستطيع أن تشُمّه؟ المسك؟ دُمّ الشهداء رائحته مسكٌ». لم يستطع الكاتب بأي شكل أن يحس شيئاً سوى أثر قطعة قديمة من الملابس؛ عدا عن أنه لم يكن يعرف رائحة المسك أساسًا. كان يمسك المعطف الذي ارتداه عبد الله عزام يوم اغتياله عام ١٩٨٩، تناولوا العشاء الذي أعدته أرملة عزام؛ فجعلت رائحة الدجاج المشوي تحدي الشّم أكثر صعوبة، قال حذيفة

للمؤلف، كاسراً حاجز الصمت: «أعلم أنك غالباً لا تصدق هذه الأشياء؛ لكنك كنت ستفعل لو كنت في أفغانستان».

في تلك اللحظة أدرك كاتبنا أن كتابه التالي سيكون عن صاحب المعطف. لقد مرَّ هيغهامر باسم عبد الله عزام كثيراً من المرات أثناء بحثه عن القاعدة؛ بدءاً من يوليو/ تموز ٢٠٠١، عندما كان متدرباً شاباً في مؤسسة أبحاث الدفاع الترويجية؛ حيث وجَّه رئيسه بيرنار ليا للعمل على شيءٍ يسمَّى «شبكة بن لادن».

يلفت توماس نظرنا إلى أن هناك على الأقل خمسَ سيرٍ باللغة الإنجليزية لأسامة بن لادن، وبينما تُدرس سيد قطب بشكلٍ واسع لدرجة أن هناك كتابين عن كتابين من تأليفه؛ فلا توجد سيرة عن عزام؛ لذلك تحمس لكتابة سيرة تؤرِّخ لحياة عبد الله عزام، ولتجربة الحركة الجهادية معه.

وُلد عبد الله عزام في عام ١٩٤١ في الضفة الغربية، وخرج منها في أعقاب نكسة ١٩٦٧، ووصل إلى الأردن على قدميه. واجه صعوباتٍ لإيجاد عمل في عُمان، وانتقل إلى السعودية لمدة عامٍ كاملٍ للعمل هناك. وفي الصيف التالي عاد إلى عُمان، ووجد عملاً؛ كمدِّرس في مدرسة التاج الثانوية للبنات.

يشير الكتاب إلى أثر حرب ١٩٦٧ عليه. كان عزام شاباً في الثامنة والعشرين من عمره، وقد انضمَّ إلى الإخوان فترةً مراهقته. جاءت أحداث النكسة لتحرك فيه مشاعر الحاجة للقتال؛ انضمَّ للفدائيين، وقاتل على حدود الأردن قريباً من معسكرات فتح، وهكذا كانت مشاركته الأولى في العمل المسلح وزوجته حامل في الشهر الثامن؛ يزورها أربعة أيام في الشهر، وينضم للكتائب المقاتلة.

يتبع الكتاب قصة حياة عزام خطوة خطوة، ويشير التساؤلات حول كل قرار تتخذه هذه الشخصية؛ ليقراً من خلالها تاريخ المنطقة، يحاول الكاتب الإجابة على سؤال: «لماذا قد ينضم أي شخص لحرب قصية، بينما بلده نفسها تحت الاحتلال؟ وكيف ظلت فلسطين حاضرة في وجدان عزام؛ حتى وهو يقاتل في أفغانستان».

توقّف عزام عن العمل مع الفدائيين بعد أيلول الأسود عندما قررت حكومة الملك حسين وضع نهاية لعمليات فتح، والحركات الأخرى عام ١٩٧٠، لاحقاً سيفتح واحداً من مقالاته العديدة حول فلسطين بمجلة الجهاد بقوله: «إن وجودنا في أفغانستان الآن لا يعني أننا نسينا فلسطين»، بالطبع لم تكن العلاقات ودية مع فتح والحركات اليسارية الأخرى، ويلفت الكاتب نظرنا إلى أن عزام لا يكون لاذعاً وساخراً (ومُسلياً) عند حديثه عن موضوع ما؛ بقدر ما يكون عندما يناقش موضوع اليساريين الفلسطينيين، رغم أنه كان سعيداً بالاشتراك بنشرات «منظمة التحرير الفلسطينية» لمتابعة الأوضاع في فلسطين.

بعد ذلك وصل عزام إلى دمشق في الوقت الذي بدأت فيه العلاقة تتدهور بين الإخوان والنظام بشكل واضح؛ حيث جلب انقلاب عام ١٩٦٣ نظاماً بعثياً كان علمانياً بشكل أكثر وضوحاً من الحكومات السابقة. في دمشق تعرّف عزام على الثوري مروان حديد؛ الذي قاد عمليات ضد النظام السوري، رغم أنهما التقيا عملياً للمرة الأولى في فلسطين، لا سوريا. وفي بداية الستينيات أو منتصفها، زار حديد الإخوان المسلمين في جنين، وتعارف الاثنان بشكل سريع. يوضح الكاتب أن طُرقهما لم تقاطع في سوريا أثناء أيام الجامعة، ولكن في عام ١٩٧١، أثناء رحلة إلى سوريا، زار عزام حديداً

في مخبأ له بدمشق، قبل أن تعتقل قوات الأمن السورية حديدًا بفترة قليلة. عزام، بعد ذلك، اكتسب مروان حديد احترام عبد الله عزّام الشديد؛ فقد أهدها لاحقًا كتاب: *عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر*، ١٩٨٦، وقال لاحقًا: «إن حديد كان أشجع شخص التقاه في حياته».

من الأحداث التي أثّرت في عزام خبر إعدام سيد قطب؛ لقد انزعج، وحفّزت لديه أول نشاط من المعارضة السياسية؛ عبر برقية احتجاج للحكومة المصرية، كتب عزّام لاحقًا: أذكر أنني كتبت برقية لعبد الناصر أقول فيها: «الدعوة لن تموت، والشهداء خالدون، والتاريخ لا يرحم».

يشير الكاتب إلى أن عزام كان غاضبًا؛ لأن سيد قطب كان ملهمه الرئيس، حزن عزام بالتأكيد على أنه لم يحظَ بفرصة لقاء قطب، لكن عزام عندما انتقل إلى القاهرة عام ١٩٧١؛ كان من أول الأشياء التي قام بها التواصل مع عائلة قطب؛ ممثلةً في شقيقة سيد: أمينة، وعندما خرج محمد، شقيق سيد، من السجن في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧١، التقاه عزام في أول فرصة متاحة، ويبدو أن لحظة إعدام قطب جعلت عزام يحترم سيد قطب؛ ويقف منه موقف المريد للشيخ، وفي إحدى العمليات الفدائية التي اشترك فيها عزام عام ١٩٧٠، أطلق عليها عملية سيد قطب.

علاقة عزام وآل قطب طويلة وممتدة في الكتاب؛ فمحمد قطب سيسافر إلى أمريكا مع عزام عام ١٩٧٧، وسيصبح زميله بالقسم في مكة عام ١٩٨١، والشخص الذي سيزرع في عقل عزام لذهاب إلى باكستان هو كمال السنابيري زوج أمينة قطب.

كانت حرب ١٩٦٧ الشرارة التي اكتشف فيها عزام نفسه، وسيطلب

الأمر ثمانية عشر شهرًا فقط بعد ذلك لنرى عزام يحمل سلاح كلاشينكوف على الحدود الأردنية-الإسرائيلية؛ يقف على هضاب إربد وجبالها، وبين كهوفها وصخورها، وفي الأغوار، وعلى ضفاف اليرموك؛ يرتدي الكاكي ويحمل الكلاشينكوف والمصحف الذي لا يفارقه في جيب صدره.

يشير الكاتب توماس هيفهامر إلى أنه منذ عام ١٩٦٩ كان عزام يأخذ الدور الذي سيشتهر به أثناء الجهاد الأفغاني؛ أي دوره كخطيب يجلب الأخبار، وقصص الشهداء من الجبهة للناس؛ حيث خطب في الناس، وذكر كرامات الشهداء. وهكذا يكشف الكتاب أن سمة سرد معجزات الشهداء - مثل رائحة مسك دم الشهيد - لم يكن شيئًا اخترعه عزام في الثمانينيات. سيظهر هذه السمة بشكل أكبر في كتب لاحقة؛ مثل: آيات الرحمن في جهاد الأفغان، ١٩٨٣، لكنها كانت حاضرة في ذهنه بوضوح في الستينيات.

يأخذنا الكتاب في رحلة مع عزام منذ البدايات، ومعاداته المبكرة للشيوعية منذ شبابه، والخطبة التي خطبها في إربد في الذكرى المئة لميلاد لينين عام ١٩٧٠؛ نحتاج سنوات لنراه يكتب كتابه السرطان الأحمر؛ مُحذراً من الشيوعية، ويقاوم السوفييت في أفغانستان.

هكذا نرى عزام يتجنب آثار حادثة أيلول الأسود، ويدخل السبعينيات، وقد ألهمته تجربة الفدائيين؛ يلخص الكاتب أثر تلك التجربة عليه بقوله: «لقد أعطته طعم الحياة العسكرية بكل مشاعرها: شعور المعنى، وإثارة المغامرة، والفخر باختراق المصاعب، وسرور الأخوة». لقد أقنعتة كذلك بأن الحركة الإسلامية ما زال لها روح قتالية؛ خصوصًا بين شبابها، وكل ما يتطلبه الأمر

هو إيجاد السياق المناسب لإشعالها. وسيتطلب الأمر عقدًا كاملاً قبل أن تأتي هذه الفرصة.

يبدأ بعدها عزام فصلاً جديداً أكاديمياً في حياته؛ حيث سافر إلى القاهرة لدراسة الدكتوراه في الشريعة، عاد بعدها إلى الأردن؛ حيث سيدرس في الجامعة الأردنية للأعوام السبعة التي أعقبت عودته، كان هو وزميله أحمد نوفل، هما أشهر المحاضرين في القسم، وهكذا يشير الكاتب إلى أن عزام كان عالماً إسلامياً يملك مكانة ما حتى قبل أن يصنع اسمه بالجهاد الأفغاني.

كان عزام كتلة من النشاط الحركي؛ تركت حادثة أيلول الأسود ندوباً في شخصيته، أو جرحاً نرجسياً؛ حيث شعر أن هذه الحكومة قست في معاملة الفدائيين. في أثناء زيارة للملك الحسين للجامعة، جذب عزام الانتباه برفضه الوقوف، بينما يُعزف السلام الملكي الأردني، تنتهي السنوات الأردنية بقرار من الحاكم العام، ورئيس الوزراء مضر بدران بفصله من الجامعة، يكمل الكاتب تتبّع رحلة عزام بالتأريخ لسنواته في الأردن وصراعاته مع الحكومة، وتحوله لعبٍ حتى على جماعة الإخوان؛ ساعتها سنفهم كيف ساعدت محاولات الحكومة الأردنية لإسكات عزام بتحويله إلى مواطن بلا جذور في المنفى، ينتمي للعالم الإسلامي، أو مسلم أممي يمني جمهورية حالمة من الجهاديين.

هكذا ندرك أن عزام لم يستيقظ صباحاً في أحد الأيام ليقول: سأترك العمل في الجامعة، وأنضم للجهاد الأفغاني؛ الانتقال إلى باكستان كان عملية من خطوتين؛ نفي بخطوتها الأولى، وعندها فقط - بلا كثير يخسره - قرر

أن يُجربَ حظُّه في جنوب آسيا. مغادرته من الأردن كانت نتيجة لنشاطه السياسي الفج.

يلتقط الكاتب نقطة مميزة؛ وهي منتشرة في فنون كتابة السير الذاتية؛ عندما يصف عزام خروجه من الأردن بأنه كان محنة، لكنها تسببت في فرصة عظيمة من وجهة نظره ليغادر إلى أفغانستان؛ يقرأ الكاتب تلك النصوص التي كتبها عزام لاحقاً على أنها نوع من التناثر المعرفي؛ حيث نميل نحو تعديل وصفنا للماضي، لنجعل قصص حياتنا أكثر اتساقاً. وينشر رسالة من عزام لقيادة الإخوان تظهر مدى انزعاجه منهم، ومن التضييق عليه، لم يكن عزام مسروراً بالخروج من الأردن، لكنه حوله لاحقاً إلى نوع من دراما تطور قصة حياته الشخصية المشرية إلى لحظة الذروة؛ لقد قرأه قراءة مغايرة بعد ذلك.

طربت لهذه الفكرة التي عالجها الكاتب حول أوجه الاختلاف بين روايتنا للحدث في وقته، وكيف نفسره لاحقاً؛ حينما تلعب الذاكرة الانتقائية دوراً في بناء سرديتنا حول روايتنا عن حياتنا، لم يكتب الكاتب سيرة تبجيلية لعزام، لكنه لم يقلل من احترامه للشخصية التي يكتب عنها طوال الكتاب. لقد حاول أن يشرح حياة عزام بأفضل طريقة صادقة؛ ليرك الحكم للقارئ، رواية الكاتب عن عزام تتفهم ميله للتدين منذ الصغر، وحسه الديني، وسعيه نحو التقوى، ولا تستبعد البعد الأخروي في تفكيره، أو تحيله لأسباب مادية؛ كما يفعل البعض. كل تفصيلة يحشد لها المؤلف المراجع في الهوامش؛ لا عجب أنه قضى في هذا الكتاب عشر سنوات يتتبع كل معلومة، ويقابل عشرات الشخصيات ليبني تصوراً عن حياة واحدٍ من أهم شخصيات الحركة الجهادية.

اختيارات الكاتب لعناوين الفصول فيها نزعة أدبية موفقة، في الفصل المعنون: «ابن السبيل»؛ يتناول فيه الكاتب المرحلة الانتقالية بعد النفي من الأردن؛ حيث غادر عزام الأردن، وتراكت عليه ديون بقيمة ١٥ ألف دينار. كانت البداية الجديدة في السعودية؛ حياته هناك كانت تدور حول التدريس والخطابة والكتابة، عام ١٩٨٠ و ١٩٨١، نشر عدة مقالات في مجلة المجتمع؛ مجلة الإخوان المسلمين الصادرة في الكويت ذات الانتشار الواسع في العالم العربي؛ حيث كان يعرف رئيس التحرير، إسماعيل الشطي جيداً؛ فقد جمعتهم القاهرة أثناء دراستهم في مطلع السبعينيات.

سيدرس عزام لفصل واحد فقط في جامعة الملك عبد العزيز - الفصل الثاني من عام ١٩٨١ -؛ لأنه سيتنقل مُجدِّداً في ذلك الخريف. كان واضحاً منذ البداية أن السعودية مجرد محطة مؤقتة في الطريق لشيء آخر. أحد أسباب ذلك هو أن العائلة لم تحب البقاء في مكة؛ في هذه اللحظة، التقى بكمال السنائري الذي حكى له عن الصراع في أفغانستان، كانت فترة فارقة في التاريخ؛ فقد شهدت الثورة الإيرانية، واتفاق كامب ديفيد، وحادثة جُهيّمان، والحرب الإيرانية العراقية، والحرب الأهلية اللبنانية، وأحداث حماة، والاحتلال الإسرائيلي للبنان، واغتيال أنور السادات. يقرّر عزام التوجه إلى اليمن أو أفغانستان، ويستقر على اختيار أفغانستان.

في الفصل السادس يدرس المؤلف كتابات عزام قبل مرحلة باكستان، ويمر على أطروحة الدكتوراه وغيرها من كتابات عزام؛ يحاول الكاتب استنطاق قراءات عزام وأفكاره من خلال نصوصه. من الطريف البحث في السطور عن مقدمات الأفكار التي تبناها عزام لاحقاً.

عزام كان عمره أربعين عامًا فقط عندما وصل إلى باكستان، يتساءل الكاتب: ما الذي أشعل الشيب في لحيته مبكرًا؟ والإجابة المختصرة هي الخلافات الأفغانية التي تدخل فيها كوسيط؛ لم يندفع الجهاديون إلى أفغانستان عندما غزاها السوفييت؛ لقد تطلب الأمر أربعة أعوام من الحرب ليصل عدد متطوعي الحرب العرب إلى مئة شخص، وهكذا لم يكن اندلاع الحرب بذاتها هو السبب؛ بل جهود التجنيد الكبيرة لمغامرين مثل عزام داخل الحرب كانت هي التي جلبت أعدادًا كبيرة من المتطوعين؛ نفهم بعد ذلك جدول أعمال عزام في باكستان، دخوله كوسيط بين الفرقاء الأفغان، وصداقته مع عبد رب الرسول سياف، والحفاوة التي استقبل بها حقاني العرب؛ التي لولاها لم يكن العرب ليجدوا العرب موطنًا قدم في أفغانستان. لم يكن مستغربًا أن يبدأ العرب في معسكرات سياف، ويتجهوا في جبهات حقاني؛ فحقاني الذي لقبه مراسل فرنسي بـ «هو تشي منه» [السياسي والثوري الفيتنامي] الإسلام؛ فبينما كان سياف يُوقَّر معظم معسكرات التدريب الكبيرة، فيما قدَّم حقاني فرصة لقتال حقيقي.

يعود المؤلف لمذكرات بعض القادة الباكستانيين، وضباط المخابرات؛ ليصف دور جهاز المخابرات الباكستاني في الحرب؛ حيث أشرفت باكستان على دخول الأسلحة إلى أفغانستان. لقد مُني مسعى عبد الله عزَّام لتوحيد الأفغان واستدخال الإخوان المسلمين بالفشل، لكنه نجح بتطويع الجمعيات الخيرية، وبناء علاقات محترمة مع الحكومتين السعودية والباكستانية.

نرى الشخصيات العربية التي تعرفت على عزام هناك بالتفاصيل الدقيقة والأسماء؛ مثل زيارة راشد الغنوشي لعزام في بيشاور؛ حيث أجرى معه الغنوشي مقابلةً لمجلة الجهاد عام ١٩٨٩، ويفنِّد الكاتب قضية مسئولية

الأمريكان عن صناعة الحالة الجهادية في أفغانستان، ويضعنا في الطرف الجيوسياسي الذي سمح بتكون الظاهرة هناك.

يتتبع المؤلف علاقة عزام بأسامة بن لادن، ومتى كان اللقاء الأول بينهما؛ الذي يرجّح، وللمفارقة، أنه كان في ولاية إنديانا في الولايات المتحدة عام ١٩٧٨، يكمل توماس شرح الدور الثاني الذي لعبه عزام؛ وهو حشد الحكومات والمتمرعين لدعم الجهاد الأفغاني.

في خريف عام ١٩٨٤؛ تبرع أسامة بن لادن بمبلغ بين ٥ إلى ١٠ مليون دولار؛ حيث أسهم في بناء مكتب الخدمات الذي يعدُّ أهم منظمة في الجهاد الأفغاني؛ يدرس الكاتب دور عزام كمجند الذي كان متفوقاً فيه أكثر من دوره كمدير، وتجربة مكتب الخدمات وهو المكتب الإداري الذي يستقبل المتطوعين ويوزعهم على الجبهات، ويقدم الدعم اللوجستي، وقام المكتب بالإشراف على بناء مدرسة لتعليم أبناء المقاتلين، وسعى للحصول على اعتراف بشهادات المدرسة من حكومات عربية؛ مثل الأردن، واليمن، وأصدر مجلة الجهاد.

يؤرّخ الكتاب لحياة عزام في أفغانستان، ودوره السياسي والعسكري، إلى أن اغتيل في ظروف غامضة عام ١٩٨٩ في مدينة بيشاور الباكستانية.

اعتمد توماس هيغهامر في كتابة الكتاب على الكثير من المقابلات، وتحدث مع ما يقارب سبعين شخصاً؛ بينهم أساطير حية للحركة الإسلامية الحديثة؛ مثل عبد رب الرسول سيّاف في أفغانستان، وأبو محمد المقدسي في عُمان، وكذلك قابل عصام العطار، والأمير تركي الفيصل، وستيف كول مؤلف الكتاب المهم: آل بن لادن وغيرهم.

ذهب المؤلف إلى قرية عزام: سيلة الحارثية؛ حيث أخوه، وابن عمه، وأفراد آخرون من عائلته؛ حيث رأى أماكن كان يرتادها في طفولته وصباه. ذهب إلى عمان عدة مرات ليقابل ابن عزام حذيفة، وأفراد آخرين من عائلته. لم يستطع مقابلة أرملة، أم محمد، لكنها أجابت أسئلته عن طريق وسيط في لندن، وهكذا حكى لنا عن عبد الله عزام زوجاً وأباً. استطاع المترجم عبدة عامر أن ينقل لنا نصّاً رائعاً، وفي منتهى السلاسة والتشويق، والأهم أنه حافظ على روح النصّ العربية بالعودة إلى نصوص عبد الله عزام نفسه؛ بلغته وبتعبيراته العامية أحياناً؛ كما في خطبه.

لقد تعولم الجهاد عالمياً بسبب القمع المحلي؛ هذه إحدى الخلاصات التي يصل إليها الكاتب؛ فالكتاب ليس سيرة فقط؛ بل بحثاً اجتماعياً بجانب السرد التاريخي؛ حيث يحاول ملء الفجوات ببحث ثلاثة خطوط من الاستقصاء؛ الأول هو حول الحقائق الأساسية لسيرة عزام. ما هو أصله؟ وما الذي شكّله كمفكر؟ ما الذي حفز القرارات الكبيرة في حياته؛ مثل انتقاله لباكستان عام ١٩٨١؟ وماذا كانت آراؤه؟ الثاني معنيّ بأسباب تأثير عزام. لماذا أصبح مؤثراً للغاية؟ ما الذي فعله ليجنّد العديد إلى أفغانستان؟ لماذا كانت أفكاره جاذبة بذلك الشكل؟ المجموعة الثالثة من الأسئلة معنيّة بآليات حشد العرب إلى أفغانستان. من هم أوائل المنحركين، وما الذي دفعهم للمشاركة؟ ما هي الشبكات والطرق والموارد التي كان المجنّدون التالون يُستدخلون بها؟ وأخيراً، وليس آخرًا، ماذا كان دور عزام بالضبط؟

وجد عزام نفسه، غالباً بالصدفة، في العديد من الأماكن التي كان التاريخ يُصنع فيها في تلك الفترة. وقد نجح توماس هيغهامر في أن يكتب لنا سيرة ضخمة من ٨١٥ صفحة؛ عاد فيها لعشرات المصادر والكتب. قد نلخص

القصة بقلم توماس هيغهامر بقوله: «هذه أيضًا قصّة حقيقية أغرب من الخيال؛ إنها قصة فلسطيني سخر حياته للقتال في آسيا الوسطى، ومُزارع أصبح مجنّد حربٍ رحّال، وبروفيسور أحب الحياة العسكرية. إنها رواية عن منظرٍ راديكالي لم يصادق فعليًا كل الإسلاميين البارزين في زمنه، وحسب؛ بل التقى كذلك أمراء، وعملاء في المخابرات الأمريكية، ونجم البوب كات ستيفنز. قصّته ستأخذنا لأماكن لا نتوقعها؛ مثل كاليفورنيا، وجنوب إيطاليا، وفنزويلا، وستحملنا لشقق تحت الأرض، وقصورٍ باذخة، وكهوف مظلمة في أعماق الجبال. وستنتهي هذه القصة، حرقًا، بانفجار: اغتيال بقبيلة، ما زال أكبر جريمة غامضة بتاريخ الجهادية». يصف توماس الكتاب بأنه رحلة طويلة، تعلم بها الكثير؛ حتى إنه عرف رائحة المسك.

قائمة قراءة مقترحة والمراجع

- كل رجال الباشا، خالد فهمي، دار الشروق.
- مذكرات نوبار باشا، نوبار باشا، دار الشروق.
- اسمها نجربة، أرسكين كالدويل، المدى.
- مذكرات الأغا خان، دار المدى.
- المستشرق: في فض غموض حياة غريبة وخطيرة، توم ريس، دار الجمل.
- مذكرات برتراند راسل، دار المعارف.
- صور من الذاكرة، برتراند راسل، بيت الياسمين.
- بعث صدام: رؤية من داخل نظام استبدادي، يوسف ساسون، الجمل.
- ذكرى عهد: أشلاء سيرة ذاتية، أحمد حسن الزيات، جمع عبد الرحمن قائد، دار آفاق المعرفة.
- ذبابة في الحساء، تشارلز سيميك، ترجمة إيمان مرسال، كتب خان.
- الشاهد والمشهود، سيرة ومراجعات فكرية، وليد سيف، الأهلية.
- أنيس صايغ عن أنيس صايغ، أنيس صايغ، رياض الرئيس.

- لمحات من تجاربي الفكرية، صلاح الدين المنجد، دار تراث.
- مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، المركز العربي للأبحاث.
- جمال الدين الأفغاني: سيرة سياسية، نيكى. ر. كيدي، ترجمة: معين الإمام ومجيب الإمام، متدى العلاقات العربية والدولية.
- حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات، شفيق الغبرا، الساقى.
- بيروت - برلين - بيروت، كامل مروة، رياض الرئيس.
- وثائق تجارة السلاح في الجزيرة العربية: قراءة في أرشيف زكي كرام، عمر رياض، دار الكتب والوثائق القومية.
- الجندي السوري في ثلاث حروب، جبرائيل إلياس، ورد، المطبعة التجارية السورية الأمريكية.
- عباقرة النغم: حياتي بين الشعر والشعراء، محمد سعيد محمديّة، دار العودة.
- السفير: من كابول إلى البيت الأبيض؛ رحلتي عبر عالم مضطرب، زلماي خليل زاد، الدار العربية للعلوم ناشرون.
- عشت مرتين، حمدي قنديل، دار الشروق.
- خيارات صعبة: مذكرات هيلاري كلينتون، شركة المطبوعات.
- كل يوم هو إضافة، جون كيري، شركة المطبوعات.
- القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية؛ الكتاب الثاني من

مذكرات الموسيقي واصف جوهريّة ١٩١٨-١٩٤٨، تحرير
وتقديم: عصام نصار وسليم تمّاري، عن مؤسسة الدراسات
الفلسطينية.

- ذكريات عمر أكله الحروف، نجيب المانع، الانتشار العربي.
- الفصول الأربعة: سيرة حياة، معن زيادة، رياض الرّيس.
- في سبيل الله والفوهرر؛ النازيون والإسلام في الحرب العالمية
الثانية، ديفيد معتدل، مدارات للأبحاث والنشر.
- إقلاع وهبوط: سيرة طبيب من رأس بيروت، منير شمّاعة، رياض
الرّيس.
- مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب ١٩١٦-١٩١٨، لويل
توماس، كلمة للترجمة.
- على بلد المحبوب: رحلة زمزم الأخيرة، أحمد خير الدين، دار
الشروق.
- آخر الخوارج: أشياء من سيرة صحافية، رياض نجيب الرّيس، دار
رياض الرّيس.

الأُنسُ بالراحِلين

أمسيات مع السَّير الذاتية

قضيتُ أمسيات مليئة بالحكايا والفوائد والفرائد والغرائب مع السَّير الذاتية، فأحببت أن أسجلها. ثم أحببت أن أدعوك أيها القارئ الكريم لتشاركني هذه الأمسيات، لعلنا نحظى بشيء من الأُنس بالراحِلين. هذا الكتاب هو أوراقٌ من سيرتي كقارئٍ وحكايتي مع المذكرات. لقد عايشَت هذه الشخصيات في غُربتي، وفررت من الواقع لعالم الخيال، مصغياً لهذه التجارب، محاولاً أن أفهم التاريخ من خلال الدروس التي تقدمها هذه الكتب. لكن وراء ذلك غاية أخرى هي البحث عن دروس عملية تصلح لحياقي؛ كيف عاشوا وواجهوا صروف الحياة وأقدارهم. كانت هذه القراءات تقوِّي عزمي وتشدُّ من أزرِي، وتعلِّمني الكثير عن التحمل والصبر. هي إطلالة على ما يقارب أربعين شخصية أرجو أن تكون إطلالة ماثعة مفيدة على عالم المذكرات والسَّير.

مدارات للأبحاث والنشر

٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة

جمهورية مصر العربية

(+٢) ٠١٠٢٤٤٦٣٧٠ / ١ / ٢

info@mdarat-rp.com

مدارات للأبحاث والنشر

ISBN 978-977-6459-48-9



9 789776 459489

تصميم الغلاف:

أحمد الصباغ